أسست عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

الوعي الإسلامي

AL-Wasi AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥١٧) رجب ١٤٣٥ هـ - مايو ٢٠١٤م

50 عاماً من العطاء

بين منطق الاستخلاف وشهوة الاستهلاك

تأملات في آية الإسراء

التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات

قراءة في رواية «ساق البامبو»

كيف يسمو مجتمعنا بالإنسانية؟

محدودية السياحة البينية بين الدول الإسلامية

احتفاء مع العدد «مراعم اليمن»

الافتتاحية

وكان بين ذلك قواما

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

التدبير نصف المعيشة... وقد خلق الله تعالى الإنسان ماس الحاجة، ظاهر العجز، وجعل لنيل حاجته أسبابا، ولدفع عجزه حيلة، دل عليها بالعقل، وأرشده إليها بالفطنة، وحسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٧). فقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون، أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم. فالمال عصب الحياة ووسيلة الإنسان، وهو إحدى الضرورات الخمس لتحقيق النصوص الشرعية، والمقاصد المرعية، وهو نعمة من نعم الله على خلقه في الحياة الدنيا، وهو الطريق إلى الاستمتاع بنعمها وزينتها. لذلك، لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحت له ذلك مع الاعتدال.

فالمال أداة استثمار وإنفاق، وليس للكنز والادخار، فقد أوجده الله تعالى للتداول والاستثمار، ولندير به عجلة الاقتصاد، ونهى عن الكسب الحرام، وعن إضاعة المال، وأكله بالباطل، فالإنسان مؤتمن عليه ومستخلف فيه، قال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١). وحكمة الله مراعاة المصلحة في تحقيق السعادة البشرية، ودفع الجشع والأنانية.

فكل ما حرم الله على العباد أكله، أو شربه، أو فعله، فأنفق فيه منفق نفقة سمي مبذرا. والقصد في النفقة مطلوب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩)، أي لا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتبقى ملوما محسورا، فنهيه عن مجاوزة الحد والإجحاف بالنفس في النفقة خشية السرف.

ووصفهم الله بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وقد قيل «ما عال من اقتصد». وكون إنفاقهم من خير الأمور، فقد شاع «خير الأمور أوساطها»

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد
كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقيل:

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت
ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي
دعته إليه من حلاوة عاجل

فالإنسان دُنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمس.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٧ | رجب ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
مايو ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

تتلخص مشكلة ثقافة الاستهلاك في الإنسان المتسلع ذي البعد الواحد الذي لا يرى السعادة إلا في الاستهلاك.

١٤

أن يكلمك ربك

٤٠

الفتوحات الإسلامية

٧٠

نحو ثقافة مثلى للطفل العربي

٧٨

سمرقند

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	الافتتاحية	فيصل يوسف العلي
٦	فعاليات/ العلماء طوق نجاة الأمة	إسلام لطفي ومحمد عبدالعزيز
٨	مناسبات/ تأملات في آية الإسراء	د. أمان قحيف
١٢	حوار/ السفير عبدالرحمن الموسى	إسلام لطفي
١٤	رقائق/ أن يكلمك ربك	د. محمد علي يوسف
١٧	قضايا/ قيمة الانتماء للوطن	سالم بن عميران
١٨	ملف العدد/ كيف طغى الاستهلاك	محمد شعبان أيوب
٢١	ملف العدد/ الإنتاج وسؤال الحضارة	السنوسي محمد
٢٢	ملف العدد/ ما بين الإبداع.. والمجتمعات الاستهلاكية	د. آندي حجازي
٢٥	ملف العدد/ بين منطق الاستخلاف.. وشهوة الاستهلاك	د. هبة رءوف عزت
٢٨	ملف العدد/ الإسراف.. الجذور والمسار والثمار	محمد إلهامي
٣٠	ملف العدد/ اقتصاد الأسرة: ضوابط شرعية وآداب مرعية	د. حسين شحاتة
٣٤	ملف العدد/ المزيدي: نسعى إلى نشر القيم الإيجابية في العالم	نشوة صالح
٣٦	ملف العدد/ لجنة التأليف والترجمة والنشر	علاء عبدالفتاح
٤٠	دراسات/ الفتوحات الإسلامية	مصطفى يعقوب
٤٥	دراسات/ التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات	محمد الحريري
٥٠	علوم/ إعجاز الخلية الحية	د. عبدالرحمن النمر
٥٢	لغة وأدب/ القول المأثور في الصواب المهجور (٢١)	عبدالله أيت الأعشير
٥٤	لغة وأدب/ قراءة في رواية ساق البامبو	محمد أبوالسعود
٥٧	لغة وأدب/ فضلك قد جرى	محمد عباس
٥٨	أنباء الكتب/ المشترك الأسمى بين الشعوب	منتصر الخطيب
٦٢	حضارة/ كيف يسمو مجتمعنا بالإنسانية	أحمد هريادي
٦٦	إيمانيات/ مطارق العسرة.. ومقامات الإيمان	د. خالد راتب
٦٩	رثاء/ محمد قطب في ذمة الله	التحرير
٧٠	أسرة/ نحو ثقافة مثلى للطفل العربي	رفعت بدوي
٧٢	أسرة/ الجميل: دمج مجهولي الأبوين في الأسر البديلة ضرورة	محمد عبدالعزيز
٧٥	حضارة/ الشعب النموذج	إسلام مهدي
٧٨	استطلاع/ سمر قند	د. محمد المحمدي
٨٢	أعلام/ الشيخ لحبيب فارس	د. محمد مراح
٨٤	اقتصاد/ محدودية السياحة البينية بين الدول الإسلامية	عبدالحافظ الصاوي
٨٧	طب/ مقاومة السكري	د. محمد القاسمي
٨٨	طور نفسك	سلمان الكندري
٩٠	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش
٩٢	كتب عربية علمت الإنسانية/ مقدمة ابن خلدون	خالد خلاوي
٩٤	بريد القراء	التحرير
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ فلا تظلموا فيهن أنفسكم	د. أحمد الدش

كلمة العدد

ترشيد الاستهلاك

تنامي معدلات الاستهلاك في المجتمعات العربية والإسلامية أصبح يهدد مصالح هذه الدول، ويعوق مجهوداتها التنموية، لذا وضع الإسلام قيودا محكمة على الاستهلاك، إيمانا بأن حرية الاستهلاك تؤدي في النهاية إلى إصابة الاقتصاد بأسوأ الأضرار.

والإسلام جعل الاستهلاك والانتفاع بما خلق الله تعالى أمرا مباحا في الإسلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾(المائدة:٨٧).

إن النظام الاقتصادي في الإسلام يسعى إلى تحقيق رفاهية المجتمع ودعم قدرته الاقتصادية حتى يتمكن من تحسين مستويات المعيشة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالاعتدال والتوسط، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾(الفرقان:٦٧).

وبات من الضروري حماية المستهلك من السلع السيئة والخدمات قليلة الكفاءة والصفقات غير العادلة لأنه في النهاية وسيلة لتحقيق العدل في التعامل.

وينبغي أن نترك التقليد الأعمى المدمر، وهذه العادات السيئة، والجري وراء أوهام وسراب الاستهلاك، وأن نعود إلى تعاليم الدين الحنيف، فهو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من أزماتها، وهو وحده كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من كمال ورفعة وتقدم ورخاء.

التحرير

الاشتراكات
• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

في ختام مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر:

العلماء طوق نجاة الأمة

القاهرة : إسلام لطفي ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية

فتح أبواب الحوار والتواصل بين العلماء والشباب، والاستفادة من التقنيات الحديثة للرد على استفسارات المواطنين، وكذا ضرورة إحياء التعارف بين أبناء الأمة الإسلامية، والعمل المشترك على محو الأمية الدينية والفكرية لجميع أبناء العالم العربي والإسلامي، ووضع المساجد في جميع الدول تحت إشراف وزارات الأوقاف، والعمل على إعادة دور العلماء المتخصصين في القيادة الفكرية للأمة، وتحليل العقول من كل ألوان الضلال.. كانت هذه أبرز التوصيات التي انتهى إليها المؤتمر الدولي الـ٢٣ للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، بمشاركة أكثر من ٨٠ عالما ووزيرا ومفكرا من ٤٠ دولة، ناقشوا خلاله ٦٠ بحثا حول سبل مواجهة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المجتمعات والعلاقات الدولية.. «الوعي الإسلامي» شاركت في فعاليات المؤتمر وجاءتكم بالتفاصيل:

في بداية المؤتمر، أكد وزير الأوقاف المصري الدكتور محمد مختار جمعة، أن المؤتمر يأتي في مرحلة فارقة للأمة عامة ولمصر خاصة، مشيرا إلى أن مصر عانت من التشدد باسم الدين واقتحام غير المتخصصين للدعوة، مما جعل الأوقاف تنأى بالدعوة بعيدا عن التشدد والمزايدة باسم الدين، لتحقيق مصالح خاصة على حساب الأمن القومي.

وقال جمعة، إن روح التسامح تأتي بالاحترام المتبادل دوليا، وبين مختلف الطوائف لتحقيق المستقبل الأفضل، لافتا إلى أن اختيار موضوع المؤتمر جاء لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تروج لتكفير الآخر؛ وتتخذ ذلك وسيلة للاعتداء على الآمنين وحراس الوطن، ما يؤدي إلى الإفساد في المجتمعات.

عودة الوعي

وخلال كلمته، دعا شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، إلى عودة الوعي بمذهب أهل السنة والجماعة، كونه المذهب الذي يضيق فيه الفكر التكفيري، مؤكدا أن الأزهر حريص على تجميع علماء الأمة، وجمع كلمة المسلمين ورفع راية موحدة فيما بينهم، كما أنه لا يبخل بجهد في مقاومة الانحراف الفكري الضال.

وأكد أن آفة التشدد ليست جديدة

شيخ الأزهر: الأمة تمر بمحنة كبرى لما تعانيه من فوضى

وزير الأوقاف: موجات التشدد تنعكس سلبا على المصالح الوطنية والدولية

على المسلمين، حيث بدأت مع الخوارج، وأن المتشددين يتشبثون بالظواهر ويتركون الأصول، منوها إلى أن المجتمعات الإسلامية لم تعرف جماعة تقول بتكفير المجتمع إلا منذ بداية فترة السبعينيات.

الإرهاب جريمة

في الاتجاه ذاته، أكد الدكتور جعفر عبدالسلام، أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية، أن الفكر الإرهابي يقصد إشاعة الفوضى وإرهاب الناس على طريقة «أرهب عدوك وانشر قضيتك»، مشيرا إلى أن الإرهاب جريمة نكراء، تم إلصاقها بالإسلام ظلما من قبل بابا الكاثوليك بندكت الثاني.

الفتاوى المشبوهة

من جانبه، أكد وزير الأوقاف الأردني الدكتور هايل عبدالحفيظ، أن زلزال التكفير يهدد الأمة العربية، حيث يستخدمه أعداء الأمة العربية، وأن التكفيريين يستخدمون آيات القرآن في الاستدلال على فكرهم الشاذ وتبنيهم للعنف، مطالبا الأمة العربية بالتوحد في مواجهته.

مسؤولية مشتركة

بدوره، طالب د. محمد أبوزيد الأمير، عميد كلية الدراسات الإسلامية فرع المنصورة، بوجوب التثبت والتريث في أمر الفتوى، مشيرا إلى أن الفتوى الشرعية ليست مسؤولية المفتي وحده، ولا المستفتي وحده، إنما هي مسؤولية مشتركة بينهما، وعلى المستفتي أن يتجه بسؤاله إلى المختصين في الفتوى، حتى يتحقق له المطلوب من الفتوى، وهو الوصول إلى الرشاد.

أما مفتي روسيا الشيخ طلعت صفا تاج الدين، فطالب الجميع بالتوحد ومحاربة الإرهاب والفكر المتشدد من أجل تحقيق السلام بين الأمم، مؤكدا خطورة انتشار الإرهاب تحت ستار الدين الإسلامي، قائلا: «الدين بريء ممن ينفذون عمليات إرهابية وإجرامية باسمه».

اختطاف الفتوى

بينما شدد الدكتور توفيق السديري، وكيل وزارة الشؤون الإسلامية، لشؤون الدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، على أن ما يحدث من فوضى قتل في بعض البلاد الإسلامية، وما يحدث من إشكالات لدى الأقليات والجاليات المسلمة، وتشويه صورة الإسلام الوسطي الحقيقي المتسامح، جاء نتيجة الفتوى بغير علم، كنتيجة لاختطاف الفتوى في العقود المتأخرة من قبل تنظيمات وأحزاب لها أجندات سياسية تتاجر بالدين، كذلك من قبل أشخاص لهم مصالح شخصية، ويبحثون عن الشهرة والمال.

ميثاق شرف

فيما طالب الدكتور محمد عبدالستار الجبالي، رئيس قسم الفقه والتشريع والقانون بجامعة الأزهر الشريف، بضرورة وضع ضوابط للفتوى على أن تخرج من المتخصصين فقط، لافتا إلى أن هناك صفات محددة للمفتي، وفي مقدمتها أن يكون ملما بعلوم القرآن والسنة، والحديث وعلوم اللغة العربية، وأن يحترم آراء العلماء والأئمة السابقين.

د. السديري: اختطاف الفتوى من أهلها سبب إشكالات الأقليات وتشويه سماحة الإسلام

د. جعفر عبدالسلام: الإرهاب جريمة نكراء تم إلصاقها بالإسلام ظلما

توصيات المؤتمر

أوصى المؤتمر في ختام فعالياته، بضرورة التنسيق بين دور الإفتاء فيما يخص القضايا الدينية، ومخاطبة وسائل الإعلام بترك مساحة للفكر الوسطي، وفتح الباب أمام الوسطية وغلقه في وجه التشدد، وإعلام الجميع ببغض ورفض الفكر التكفيري الشاذ، وترك التكفير للمؤسسات الدينية والقضائية، وتأصيل المفاهيم الكبيرة وتوضيحها، مثل مفاهيم الجهاد وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

كما أكد على ضرورة فتح باب الحوار، وخاصة مع الشباب، والاستفادة من وسائل الاتصال للرد على الفتاوى من قبل العلماء المتخصصين، حتى لا تترك الساحة للتكفيريين، وتبني مبادرة شيخ الأزهر حول ضرورة إحياء التعارف بين أبناء الأمة والإنسانية، والعمل المشترك على محو الأمية الدينية والفكرية في العالم، بعيدا عن التشدد وفكر الجماعات، ووضع المساجد في الدول العربية تحت وزارة الأوقاف، وإطلاق القناة الخاصة بالأزهر وعمل المتخصصين بها.

كما أوصى أيضا على أن حفظ الأنفس من مقاصد الإسلام الكبرى، فلا يحل الاعتداء عليها، وذلك محض فساد وإفساد في الأرض، والتأكيد على سماحة الإسلام وحضارته نحو الآخر.

تأملات في آية الإسراء

أ. د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

شاءت إرادة الله -تبارك وتعالى- أن ينفرد كل نبي من أنبيائه، أو رسول من رسله بمعجزات، تختلف وتتباين، من حيث الشكل والجوهر، عن المعجزات التي يؤيد الله بها غيره من إخوانه حملة رسالات السماء إلى أهل الأرض. والمتأمل في معجزاتهم -صلوات الله عليهم جميعا- يتبين له أن دابة الأرض لم تخرج إلا لنبي الله صالح عليه السلام، وقانون الإحراق لم يتوقف في النار إلا مع خليل الله إبراهيم عليه السلام، وأن العصا لم تنقلب إلى ثعبان إلا مع كليم الله موسى عليه السلام، ولم يحي الموتى -بإذن الله- إلا كلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام، ولم تأت معجزة رسول أو نبي في منهجه إلا مع حبيب الله محمد ﷺ. وهكذا ندرك عند تأملنا لتاريخ الرسل والأنبياء أن الله تعالى اختص كل واحد منهم بشكل معين وصور محددة من المعجزات، التي تؤيده وتنصره على خصوم دعوته ومناهضي رسالته. والحق أن معجزة كل رسول كانت تأتي متحدية التخصص الذي نبغ فيه قومه الذين أرسله الله إليهم، وهي تأتي داحضة للخصوم وقاهرة لبراعتهم في الأمر الذي برعوا فيه وفاقوا غيرهم من الأمم والشعوب. كما حدث مع نبي الله موسى الذي فاقت معجزته براعة قومه في السحر، وكما حدث مع رسول الله محمد ﷺ الذي أعجز قرآنه قومه وهم سادة البيان وبلغاء الزمان.

ويلحظ المرء أن ثمة تنوعا في المعجزات حدث مع بعض الرسل والأنبياء، لمزيد من التأييد لهم ولإظهار صدقهم وبيان سلامة دعواهم، فموسى -عليه السلام- الذي انقلبت معه العصا إلى ثعبان، هو من انفلق له البحر، وعيسى الذي أحيا الموتى بإذن الله هو من أبرأ الأكمه والأبرص وأنبأهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ونبينا الذي أعجز قرآنه قومه، وهم البلغاء والفصحاء، هو من اختصه الله تعالى برحلة أو معجزة الإسراء والمعراج. ولقد تحدث القرآن الكريم عن المعراج وما حدث فيه في سورة «النجم»، وتحدث عن الإسراء في سورة «الإسراء» وذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

ويرى بعض العلماء أن جزءا من الآية ٦٠ في السورة نفسها جاء هو الآخر متعلقا بمعجزة الإسراء والمعراج، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء:٦٠).

واللافت أن الحديث عن المعراج في سورة «النجم» قد امتد وتواصل عبر عدة آيات، بينما الحديث عن الإسراء لم يأت إلا في آية واحدة متكاملة، ولا ننفي أن الجزء الذي ذكرناه من الآية ٦٠ يتعلق بالمعجزة نفسها. لكن ما يهمنا هو أن تأتي، في معجزة بحجم الإسراء، آية واحدة في كتاب الله فلا شك أن هذا الأمر يلفت النظر، ويشد الانتباه، ويدعونا إلى التأمل والتدبر.

ولما كانت كلمة «الآية» لغة: هي المعجزة، فإن الإسراء بهذا المعنى معجزة في البيان القرآني والصياغة اللفظية، كما هو معجزة في حياة النبي ﷺ. وقد بدأت سورة «الإسراء» بقول الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، وهذا اللفظ، بالإضافة إلى كونه يفيد تنزيه الله تعالى، إلا أنه يعد معجزة في هذا الموضع بالذات! لأنه قدم نبوءة بأن الناس سيندهشون من حديث الإسراء، وأنهم سيعترضون عليه. لذا، افتتح الله السورة بـ «سبحان»، أي لا تندهشوا مما سيقال، لأن الله تعالى منزه عن العجز عن إتيان فعل الإسراء، أو أي فعل آخر، لأنه على كل شيء قدير. فورود لفظ «سبحان» في هذا الموضع، هو بحد ذاته معجزة، لأنه إشارة إلى ما سيقوله الأغيار عن معجزة الإسراء.. وربما لهذا السبب لم يبدأ الله السورة بقوله «أسرى الله بعبده..»، أو «الحمد لله الذي أسرى بعبده..»، نقول: ربما لم يحدث هذا لأن القرآن الكريم كان حريصا على تنبيه العقل الإنساني إلى أن الله تعالى منزه عن العجز عن إتيان هذا الفعل، فعل الإسراء. والإسراء لغة: هو السير ليلا. من هنا نفهم أن الإسراء وقع لنبينا ﷺ ليلا. ثم قال الله تبارك وتعالى بعد ذلك ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾، ودونما دخول في تفاصيل الإشكالية التي دارت حول التساؤل عن الإسراء: هل كان بالروح والجسد، أم بالروح فقط، أم كان رؤية منامية؟.. فكاتب السطور يرى أن هذه مشكلة مختلقة بالأساس، لأنه ليس ثمة ما يشير بحال من الأحوال إلى أن الإسراء وقع بالروح دون الجسد، «والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، أنه أسري بجسده ﷺ، والآثار تدل لمن طالعها أو بحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل» (١).

وعندنا أن العقل المنصف المحلل لا يستسيغ القبول بالرأي القائل إن الإسراء كان بالروح، أو رؤيا منامية. والدليل على هذا الأمر هو «استعظام مشركي مكة لذلك، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له، إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه، لما استدعى هذا الأمر منهم أي تعجب، أو استعظام، أو استنكار، لأن المرئيات في النوم لا حدود لها، بل يجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر. ولو كان الأمر كذلك ما سألوه أيضا عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي» (٢).

يضاف إلى هذا أن الإسراء لو كان بالروح، أو رؤيا منامية ما كنا في حاجة إلى قول الله تعالى في بداية آية الإسراء «سبحان»، لأن هذا اللفظ يفيد هنا تنزيه الله تعالى عن العجز عن القيام بفعل الإسراء بنبيه، ولو كانت المسألة قد حدثت بالروح دون الجسد ما كنا في حاجة إلى التنزيه عن العجز هنا، لأن الرؤيا المنامية لا تحتاج إلى قدرة مطلقة أو إعجاز سماوي.

ثم نتوقف بعد ذلك مع قول القرآن الكريم ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾. واللفظ بهذا الشكل يفيد حدوث الإسراء بالروح والجسد معا. وورود هذا اللفظ على هذا النحو نقرأ فيه أن الله تعالى يريد أن يثبت لنا أن العبودية له هي أسمى المراتب التي يصل إليها الإنسان. فالعبودية لله عزة ما بعدها عزة، وعطاء ما بعده عطاء. وإذا قرأنا في سورة الكهف نجد قول الحق جل جلاله: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (الكهف: ٦٥ و٦٦). ونحن نعلم أن موسى رسول الله وكليمه، ومع ذلك فقد كان هناك عبد من عباد الله أعلم من موسى -عليه السلام- واتبعه ليأخذ منه، أو ليتعلم عنه. إذن فالحق -سبحانه وتعالى- يريد أن يلفتنا إلى أن العبودية له هي أعلى الدرجات. بدليل أنه -سبحانه- ذكر لنا في سورة الكهف قصة موسى والخضر -عليهما السلام- ولم يكن الخضر رسولا ولكنه كان عبدا، فنال منزلة عالية عند الله سبحانه وتعالى، وأنزل الحق -جل جلاله- عليه من فيوضات علمه ما لم ينزل على موسى عليه السلام» (٣).

إذن فالتعبير بلفظ «عبده» هنا يفيد أمرين: أولهما أن النبي ﷺ أسري به روحا وجسدا. أما الثاني فهو أن رسولنا الكريم ﷺ وصل إلى درجة العبودية الخالصة لله تعالى، وهي أعلى المراتب والدرجات؛ إذ يفيض فيها ربنا على عباده من الرحمة والعلم اللدني كما حدث مع العبد الصالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ

رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥).

لماذا كان الإسراء ليلا؟

من الملاحظ أن لفظ «ليلا» ورد عند الحديث عن الإسراء ولم يرد عند الحديث عن المعراج. ولعل ذلك يرجع إلى أن الله تعالى أراد من ذكر هذا اللفظ في أثناء الحديث عن الإسراء الإشارة إلى أن النبي ﷺ تعامل في إسرائه مع بعض الأشياء الحسية، كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى، وقوافل التجارة التي كانت في طريقها إلى مكة، ورأى إبلا ضالة عن أصحابها، وشرب من ماء آخرين.. إلخ من المرويات الحسية في هذا السياق. والشاهد أن التعامل مع المحسوسات يقتضي الإشارة إلى الزمان والمكان، عكس المعراج الذي لم يتعامل النبي ﷺ فيه مع المحسوسات مطلقا.

وإذا كنا قد عرفنا أن الرحلة كانت ليلية من خلال لفظ «أسرى» الوارد في مفتتح الآية، لأنه يفيد السير ليلا، فإن الله تعالى أورد لفظ «ليلا» ليقول لنا: إننا أسرينا به ليلا وكنا قادرين على أن نسري به نهارا، وفيه أيضا تأكيد واضح على حدوث معجزة الإسراء، وأنها ليست مسألة ادعاها النبي الكريم ﷺ.

ولقد قيل في ورود لفظ ليلا: «كان قوله «ليلا» إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء من ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدا»(٤).

وقد تساءل بعضهم هنا قائلين: لماذا كان الإسراء ليلا ولم يكن نهارا؟ ونقول:

أولا - ربما لو رأى الناس ركب الإسراء المبارك المكون من جبريل -عليه السلام- والرسول ﷺ والبراق، ورأوا الرسول يركب البراق ثم يتحرك به بالسرعة والكيفية المذكورة في أحاديث الإسراء، ربما ظن هؤلاء وقتها أنهم قد سحروا.. ولقد سجل القرآن الكريم مثل هذا التصور في قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧).

ثانيا - من الثابت تاريخيا أن المعجزات الحسية لا تقنع المعاندين، فمعجزة نزع القدرة على الإحراق من النار لإبراهيم، وعصا موسى التي انقلبت إلى ثعبان، وإحياء عيسى للموتى بإذن الله، ونبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ وانشقاق القمر وحنين الجذع، كل ذلك لم يُدخل المعاندين تحت مظلة الإيمان، وظلوا على عنادهم، ورفضوا الانصياع للأنبياء، أو الانقياد لهم.

من هنا تأتي قيمة وأهمية اعتماد الإسلام على الإقناع والاقتناع العقلي، لأن هذا هو المنهج الصواب، ولا سيما أنه الدين الخالد. والواضح أن البشرية تتصاع في القادم من مستقبلها إلى العقل وبراهينه، ويسهل عليها في الوقت نفسه إنكار المعجزات وخوارق العادات، أو على الأقل التشكيك فيها، إن لم تكن مدعومة ببراهين إقناعية.

ثالثا - لو وقع الإسراء نهارا ورآه بعض الناس، لكان حجة على من رآه فقط، لكن الله تعالى أراد أن يكون التصديق بالإسراء مسألة إيمانية تقوم على تصديق المستمع للرسول ذاته.

الأدلة العقلية على حدوث الإسراء

وإذا كانت معجزة الإسراء والمعراج قد حدثت ليلا، وكانت غيبا بالنسبة إلى المعاصرين لها، فإن الله تعالى هيأ لها من الأدلة العقلية التي يمكن البرهنة من خلالها على صدق النبي ﷺ، وهذه الأدلة منها:

أولا - يعد إصرار النبي ﷺ على عرض هذه المعجزة على الآخرين دليلا ساطعا على حدوثها؛ لأنها لو لم تقع لما حدث بها الرسول ﷺ الناس، لكن الثابت أنه ﷺ كان حريصا على عرضها عليهم، على الرغم من أن أم هانئ رجته ألا يعرض ذلك على الناس خشية أن يكذبوه.

ثانيا - وصفُ الرسول ﷺ الدقيق للمسجد الأقصى من دون زيادة، أو نقصان، مع العلم بأنه لم يكن قد سافر إلى بيت المقدس قبل ذلك مطلقا.

ثالثا - تأكد أهل مكة من صدق ما قاله ﷺ عن القوافل التجارية القادمة إليهم في الطريق، حيث تحدث إليهم عن عير بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، وشربه الماء من قدح كان لإحدى القوافل.

رابعا - يعد التوقيت الذي حدثت فيه معجزة الإسراء دليلا عقليا في حد ذاته على وقوع تلك المعجزة، فقد كان الرسول ﷺ مُقدما على الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان هذا الأمر يحتاج إلى مؤمنين أقوياء الإيمان، الأمر الذي اقتضى الإقدام على عملية فرز وتصفية للصف الإسلامي في هذا التوقيت بالذات حتى لا يهاجر إلا المسلم صحيح الإسلام والإيمان، ومن لديه اليقين الذي يعينه على بذل الجهد في بناء دولة الإسلام في المدينة المنورة.

خامسا - عندما حدثهم النبي ﷺ عن أنه قد التقى بأنبياء الله تعالى، قالوا له: صف لنا أشكالهم. فوصفهم الرسول من دون تردد، ولم يعترض أحد من أنصار هؤلاء الأنبياء وأتباعهم، الأمر الذي يؤكد أنه ﷺ قد وصفهم وصفا سليما ومطابقا لما يعرفه أنصارهم عنهم.

سادسا - هناك من يعترض على حدوث الإسراء والمعراج بهذه السرعة المذهلة.. ونقول: هل تستعظم ذلك على الله تعالى وهو الذي يحرك الشموس والكواكب والأفلاك بسرعات تتجاوز ذلك بمئات أو آلاف المرات.. وهل نسيت أن القرآن الكريم ذكر أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش

بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل:٤٠).

ننتقل بعد ذلك إلى قول الله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، والمسجد هو مكان السجود، أما الحرام فهو يعني أن يحرم غزوه، وعدوان المعتدين عليه، أو الإقدام على أي ظلم فيه. والثابت أن المسجد الحرام كان يسمى على عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام «البيت المحرم» أو «البيت الحرام»، بدليل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (ابراهيم:٣٧).

وذكر البيت هنا لأول مرة بـ «المسجد الحرام»، والله عز وجل هو من اختار مكانه وأعلمه لعبده ونبيه إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ (الحج:٢٦). لذا كان المسجد الحرام هو قبلة كل المساجد الموجودة في الأرض قاطبة (٥).

وإذا كانت الرحلة المباركة قد بدأت من المسجد الحرام فإن الله تعالى لم يشأ لنبيه ﷺ أن يرتقي إلى السماوات العلى مباشرة، بل اتجه -كما هو معلوم- صوب بيت المقدس. وهنا يتساءل البعض: لماذا لم يكن التوجه صوب سدرة المنتهى مباشرة من دون المرور بالمسجد الأقصى؟

وقيل في الإجابة عن مثل هذا التساؤل: «ظلت النبوات دهورا طوالا وهي وقف على بني إسرائيل، وظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أنواره على الأرض.. من هنا فإن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به عيسى ابن مريم ومحمد بن عبدالله، عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به» (٦).

ونضيف إلى ذلك أنه لو لم يكن الإسراء إلى بيت المقدس ما توافرت لدينا أدلة عقلية نبرهن بها على زيارته وصلاته ﷺ بهذا البيت، وما كان لأهل مكة أن يسألوه عن وصف بيت المقدس، ولا كان له أن يتحدث إليهم عن قوافل التجارة والإبل التي مر بها، وما تمكن ﷺ من وصف الأنبياء على النحو الذي رآهم عليه.

وسمي المسجد الأقصى بهذا الاسم لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وأغلب الظن أنه لم يطلق عليه «المسجد الأقصى» إلا بعد نزول آية الإسراء؛ إذ كان يقال له قبل ذلك «بيت المقدس». وإذا قيل: إن التعبير بـ «المسجد الأقصى» يفيد وجود المسجد الأدنى. نقول إن المسجد الأدنى هنا هو المسجد الحرام ذاته.

ويفيد قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أن المسجد الأقصى مبارك كل ما حوله من زروع، وثمار، وأرض، ومياه، وهذا هو الجانب الحسي من البركة.. ولها جانب آخر روحي ومعنوي وهو أن البركة حلت بهذه المنطقة لبعثة الرسل الكرام فيها وصلاتهم بهذه الأرض الطيبة.

ويأخذ المرء من قول الله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، أن ربنا أراد أن يطلع نبيه على بعض الآيات المبهرة من طيه الأرض للبراق، وإحيائه -سبحانه وتعالى- للأنبياء السابقين، وإطلاعه ﷺ على بعض الآيات التي ما كان له أن يراها لولا الإسراء والمعراج.

وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد حظي بتكريم من الله تعالى له، كما سبق أن كرم رب العزة -سبحانه وتعالى- نبيه إبراهيم عندما أراه ملكوت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٧٥). وكما حكى القرآن الكريم عن موسى -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ (طه:٢٣).

وأخبر الله تعالى عن معرفته وعلمه بكل ما يدور من أقوال النبي ﷺ وردود فعل خصومه في أمر الإسراء، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فهو السميع لأقوال رسوله، البصير بأفعال المعارضين له؛ إذ هو سبحانه شاهد بنفسه على كل ما يقال ويحدث في مختلف أرجاء كونه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

الهوامش

١ - النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٩٠. وينظر في نفس المعنى: فتح الباري على صحيح البخاري ٧/ ١٣٦، ١٣٧.

٢ - دكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، من دون تاريخ، ص١١٤. وينظر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، المعجزة الكبرى: الإسراء والمعراج، طبعة أخبار اليوم، القاهرة، من دون تاريخ، ص٣٦ - ٣٨.

٣ - الشعراوي، المصدر السابق نفسه، ص٣٩ و٤٠.

٤ - الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد السادس، جـ ١٥، ص١١.

٥ - ينظر الشعراوي، المصدر السابق، ص٦٨.

٦- ينظر محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ط ٧، ١٩٧٦ م، ص ١٣٩. وينظر: دكتور البوطي، مرجع سابق، ص١١٣، (بتصرف يسير).

مستشار شيخ الأزهر لشؤون الوافدين السفير عبدالرحمن موسى:

الفكر الوسطي «حائط صد» ضد التطرف

إسلام لطفي
القاهرة : دار الإعلام العربية

أكد مستشار شيخ الأزهر للعلاقات الخارجية وشئون الوافدين السفير عبدالرحمن موسى، أن عدم وضوح الرؤية في العديد من المفاهيم أفقد كثيرين بوصلة الاتجاه فيما يجب أن يكون عليه الدور الإسلامي في العالم كله، وبالتالي لم المجتمع الإسلامي في أفضل أحواله حاليا، وعزا ذلك إلى وجود العديد من المشكلات، وطالب في حواره مع «الوعي الإسلامي» المسلمين باتباع مفاهيم الإسلام الصحيحة، وتطرق إلى العديد من القضايا نتعرف إليها في سياق الحوار التالي.

● لا يخفى عليكم حالة التشرذم التي يعيشها المجتمع الإسلامي حاليا.. فما تقييمك للوضع الراهن؟

– الوضع ليس بأفضل أحواله في وقتنا الحالي، فلا يخفى على أحد أننا نعاني من مشكلات عدة في عالمنا الإسلامي، إضافة إلى عدم وضوح الرؤية في كثير من المفاهيم، ففقد الكثيرون بوصلة الاتجاه فيما يجب أن يكون عليه الدور الإسلامي في العالم كله، فالإسلام في حقيقته ليس بهذه الصورة التي هو عليها الآن، ولو ألقينا نظرة على كثير من بلدان العالم الإسلامي سنلاحظ مشكلات متشعبة، لذا لابد من توحيد الجهود بين الدول لتوحيد المفاهيم والاتجاه، من أجل تنقية سلوكيات المسلمين من كل الشوائب التي تشوه جوهر الإسلام، وبذلك نقدم صورته الحقيقية الناصعة للعالم أجمع.

● ما الأسباب التي أدت إلى وجود تلك المشكلات في الدول الإسلامية؟

– بالقطع أساسها هو التدخل الخارجي، سواء كان عن طريق الاستعمار القديم وما تبعه من سياسة «فرق تسد» بين الجماعات والفئات والطوائف؛ من أجل السيطرة على مقدرات بلادنا، خاصة أن معظم الدول الإسلامية كانت محتلة، وهذا النوع القديم من الاستعمار اختفى، لكن ظهرت صورة جديدة للاستعمار بعدة أشكال، من بينها التدخل الخارجي في الشؤون الداخلية للدول، ومحاولة السيطرة عليها، سواء كانت اقتصادية أو ثقافية، أو عن طريق تطبيق فكرة العولمة، دون وعي بأبعادها

وضوابطها، فاختلطت الأمور، وأصبحنا نعاني من كثير من أشكال التدخل في شؤون معظم البلدان الإسلامية، بينما كان يجب أن نتخذ من قوة الإسلام ومتانته وثقافته «حائط صد» أمام أية محاولات لزعزعة الأوضاع في بلادنا، ونتمنى في القريب العاجل أن يكون هناك نوع من التواصل بين الدول الإسلامية لتوحيد الجهود؛ من أجل العمل على تقوية وتدعيم المفاهيم الوسطية السمحة التي يتصف بها الإسلام.

● هل التحجر الفكري سبب رئيس فيما نعاني منه؟

– لست موافقا تماما على فكرة التحجر، فلا نستطيع أن نصف دولة بالتحجر بعد الانفتاح العالمي الكبير الذي نشهده في الوقت الحالي، إنما يوجد اتجاهات وموائمات، وهناك تدخل في شؤون الدول ومحاولات للوقيعة بين فئات المجتمع هي أساس ما نعانيه، فإن لم نستطع تدارك هذه الأمور فسنزداد ضعفا على ضعف، ذلك يحتم على عقلاء العالم الإسلامي وعلى علماء الدين المعتدلين، وهم كثر في عالمنا، وعلى رأسهم علماء الأزهر الشريف، أن يقوموا بدور لم شمل هذه الدول مرة أخرى، تحت مفاهيم الإسلام الوسطية السمحة.

● وإن فعلوا ذلك.. هل سيكون بمقدورهم أن يعيدوا مجد حضارتهم ثانيا؟

– قطعا، إذا اتبعوا مفاهيم الإسلام الصحيحة، وإذا تضامنوا سويا كما كان في التاريخ الإسلامي القديم، فكانت هناك محاولة لتصفية الأمور داخل كل دولة أولا، ووضع أسس التعايش السلمي ما بين طوائف المجتمع المختلفة، وتعضيد الإسلام الوسطي السمح الذي يقوم على قبول الآخر، والتعامل معه وفقا لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فهذه المفاهيم والأمور لابد أن تسود في المجتمعات الإسلامية؛ من أجل النهوض والتقدم إلى الأمام.

● إذا انتقلنا من العالم الإسلامي إلى محيطنا العربي.. ما أسباب تمزق العرب لهذه الدرجة؟

– يوجد كثير من الصعاب، فمثلا بعد ثورات الربيع العربي، ظهر التدخل الخارجي بشكل سافر، لتحويل مجرى ومسار هذه الثورات وما تؤدي إليه الآن من تطاحن بين فئات المجتمع المختلفة، مثلا سوريا وما يحدث بها، فما زالت العوامل الخارجية ذات تأثير كبير على الأوضاع في كثير من بلدان العالم الإسلامي والعالم العربي، ولابد من التصدي لها بكل قوة وفهم؛ من أجل إيضاح ما تريده الشعوب وما تطمح إليه من

على عقلاء أمتنا أن يجتهدوا في لم الشمل تحت مفاهيم الإسلام السمحة

محاولات لتحسين أوضاعها وتغيير أحوال البلاد للأفضل، فلابد من أن يكون هناك وعي عام بما نريده مستقبلا.

واليوم عندما ننظر إلى العالم نجد أنفسنا في وضع متدن جدا، بينما يسير العالم الغربي في خطى واسعة نحو التقدم التكنولوجي والعلمي والفضائي وغيره، ونجد أنفسنا نتطاحن وصراعات متواجدة، وببساطة شديدة؛ لأنه ليس هناك إجماع قومي على مفاهيم محددة، وخطوات بعينها من أجل النهوض بالبلاد والارتقاء بمستواها العلمي والثقافي وفي جميع المجالات.

● كيف ترى العلاقة بين الإسلام والغرب؟

– لو نظرنا إليها من الناحية التاريخية سنجد أن الإسلام قدم للغرب الكثير، فالحضارة الغربية قامت على جزء من الحضارة الإسلامية، إضافة إلى الآثار الإسلامية الموجودة في كل دول أوروبا، وما عرف به الإسلام في هذه الدول من سماحة وعقلانية وقبول الآخر والتعايش بين الأديان وجميع المذاهب والطوائف.

ومما لاشك فيه أن الغرب يحترم الإسلام ويقدر الحضارة الإسلامية، إلا أن قيام بعض المسلمين ببعض الأعمال غير موقف ومفاهيم دول الغرب وشعوبها من الإسلام والمسلمين، لذا علينا دور كبير لتصحيح هذه المفاهيم.

● ما أهمية وجود الوافدين في الأزهر؟

– تدعيم لدور الأزهر في نشر فكره الوسطي في العالم؛ لكي يكون «حائط صد» ضد الأفكار المتطرفة التي تسود كثيرا من البلدان، وبين كثير بين الجاليات الإسلامية في البلاد غير الإسلامية، فهي مهمة لنشر المنهج الوسطي المعتدل؛ لكي يقوم بنشر الرسالة إلى جميع الدول، فهذا كنز الأزهر الذي يجب الحفاظ عليه.

● كيف يتم التعامل مع الوافدين بعد انتهاء فترة دراستهم؟

– هناك الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، لها فروع في معظم بلدان العالم الإسلامي، وتعمل على الاتصال الدائم بخريجي الأزهر بالدول المختلفة، وتعقد مؤتمرا سنويا تحت إشراف الأزهر للخريجين، لأنها تعمل على التواصل بين الأزهر والخريجين، ومعرفة أحوالهم ونشاطاتهم في بلادهم، وإمدادهم بكل الكتب التي يطلبونها؛ من أجل مساعدتهم في القيام بمهامهم في بلدانهم المختلفة، ونحن حريصون في إطار ذلك على نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة.

أن يكلمك ربك

د. محمد علي يوسف - باحث دراسات إسلامية

«بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا».

دائما ما كانت هذه الجملة، التي رويت عن الصديق أبي بكر رضي الله عنه، محل تفضيل من الدعاة والمصلحين والمربين حين يعظون الناس في شأن العفو والصفح والتغافر.

رجل أنفق عليه الصديق أعواما، وقيل إنه قد تربى في حجره يتيما، ثم يكون المقابل أن يخوض في عرض ابنته وزوجة نبيه ﷺ مع من خاضوا في الإفك المبين! ومع ذلك، يتناسى الصديق كل هذا ليعود إلى عطائه وإلى الإغداق على مسطح من جديد. ويعفو..

أمر مذهل يقف المرء طويلا أمامه مشدوها متأملا!

كيف فعلها؟!

كيف استطاع تحملها وحمل نفسه عليها وإنها لكبيرة إلا على من وفقه الله لاحتمالها؟!

كيف قابل هذه الإساءة البشعة بإحسان، فضلا عن صفح وغفران؟!

الإجابة عن تلك الأسئلة، التي تتبادر إلى الذهن، تكمن في تلك العبارة التي صدّرت بها المقال.

بل في الحقيقة، تكمن في أولى كلمات تلك العبارة.

كلمة: «بلى».

إنها كلمة تستعمل كجواب لاستفهام دخل على نفي فتفيد إبطال هذا النفي وإثبات المعنى.

وهي هنا إجابة السؤال الرباني الذي نزل به الوحي مخاطبا كل من له حق يمكن أن يصفح عنه.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور:٢٢).

طبعا، نحب.

ومن لا يحب؟!

ربما لا أكون مبالغا لو قلت -بيقين جازم- إنني لا أتصور مسلما صحيح الإسلام تام الأهلية يعي معنى هذا السؤال ثم يملك أن يجيب بإجابة غير تلك التي أجاب بها الصديق رضي الله عنه.

وهل يتصور أحد أن تكون إجابة مسلم عن هذا السؤال: نعم، يا رب، لا نحب أن تغفر لنا!

هل يتخيل مخلوق أن يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر على رفض المغفرة؟!

أعتقد أن ذلك مستحيل، عقلا وشرعا.

إذن، فما السبب الذي يؤدي إلى هذا البون الشاسع بين رد فعل عموم المسلمين تجاه تلك الآية ومثيلاتها، وبين رد فعل الصديق؟

أعتقد أن -وبغض النظر عن فحوى السؤال وقيمة المغفرة- مناط ما فعله الصديق رضي الله عنه يكمن في أنه تفاعل.

في كونه تعامل مع السؤال القرآني على أنه موجه إليه.

على أنه مخاطب به.

وهنا أجاب.

وكانت الإجابة المتوقعة والمنطقية: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي.

ثم أعاد إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

وهكذا دائما كانت ردود الأفعال عند أولئك الذين أدركوا تلك الحقيقة، وعاشوا بتلك القيمة.

حقيقة أن الله يتكلم، وقيمة أنهم مخاطبون بكلامه.

من يدرك ذلك لا بد أن يتفاعل، وأن يجيب ويستجيب.

حين نودي آدم -عليه السلام- وقيل له ولزوجه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢). كان التفاعل مباشرا، والإجابة سريعة وواضحة ومحددة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

ولما نودي موسى -عليه السلام- وسئل عما في يمينه، أجاب واستفاض في الإجابة: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه:١٨).

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

لكنها المناجاة والتفاعل مع كلام الملك.

وحين يسأل المسيح -عليه السلام- عن اتخاذ الناس له ولأمه إلهين من دون الله سيجيب قائلا: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١١٦).

ولما سمع الصحابي أبو الدحداح رضي الله عنه أن الله يسأل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (الحديد:١١). أجاب فورا بإجابة عملية وتصدق ببستانه البهيج صائحا: البستان قرض لله.. البستان قرض لله.

ولما سمعت الجن سؤال الرحمن المتكرر في سورته: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن:١٣). أجابت من فورها: «ولا بشيء من آلائك نكذب ربنا، ولك الحمد».

وبعد أن ذكر الله بشاعة الخمر والميسر ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة:٩١). صاح المجيبون: انتهينا يا رب، انتهينا يا رب. وسالت الخمر في شوارع المدينة أنهارا.

وهكذا كان التفاعل مع قول الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦).

ألم يأن؟

سؤال لا بد له من إجابة.

ولا تصح له إلا إجابة واحدة. فلا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك، قولا وعملا: بلى، قد آن.. قد آن.

فقط، يحتاج إلى أن يستشعر أن السؤال موجه إليه، وستأتي الإجابة بإذن الله.

حين وقعت تلك الكلمات من قلب الفضيل بن عياض موقع التجاوب والشعور بالمخاطبة، كانت الإجابة وكان التغيير الشامل في حياته، وصاح معلنا إياها: بلى، يا رب، قد آن... بلى، يا رب، قد آن.

وما فعله الصحابة حين سمعوا الآية نفسها التي تفاعل معها الفضيل، لم يكن بعيدا عن رد فعله، فقد تفاعلوا هم كذلك مع الآية والسؤال الرباني المحكم، واعتبروه معاتبة موجهة إليهم، فقال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا ربنا إلا أربع سنوات».

وقال ابن عباس «استبطأ الله قلوب المؤمنين فعاتبهم».

وروي أن بعضهم كان يعزي بعضا بعد استشعارهم لخطورة ذلك السؤال، وقيمة تلك المعتبة والاستبطاء.

هذه النماذج المتعددة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات المولى عز وجل ونداءاته، تعد غيضا من فيض نماذج لا تحصى كانت رد الفعل الطبيعي من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين ينادون أو يوجه إليهم الكلام، فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون.

وهذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الرباني، ويعون حقيقته، ويستشعرون مخاطبتهم به.

وذلك هو الفارق الرئيسي بيننا وبينهم.

الفارق الرئيسي بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسارعته بالإجابة والعفو.

والفارق الرئيسي بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح، الذي تخلى عن ثروته، المتمثلة في حديقته الغناء، امتثالا لآية من كتاب الله.

والفارق الرئيسي بيننا وبين الفضيل ابن عياض، الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب.

إنه الفارق الرئيسي بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذين عُطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم، وقد أجابوا واستجابوا.

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كلام الله لهم.

أنهم تفاعلوا مع القرآن، ونظروا إليه نظرة سديدة دقيقة، ظهر أثرها جليا في ردود أفعالهم، التي ذكرت في السطور السابقة طرفا يسيرا منها.

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: إن الله يكلمنا.

هذه الآيات كلام الله لنا.

ملك الملوك يخاطبنا نحن.

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة إلينا: لك ولي.

كيف إذن لا أرد؟

كيف إذن لا أتفاعل؟

وهل يسعني أن أعرض ولا أجيب أو أستجيب؟

هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم.

للأسف الشديد، الحقيقة أننا كثيرا ما نتعامل مع القرآن على أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة، أو أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسى، أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمى.. حقيقة أنه كلام الله.

أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا، كما وصفه رسوله ﷺ.

إن ربنا يتكلم..

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله، ومعاملته بهذه الصفة، والإحساس بآثارها، وتدبر تجلياتها، فكانوا كمن ظل يثبت عظمة كتاب وجلاله، وينفق الأوقات على إثبات نسبته لصاحبه، ثم لم يجد الوقت لفتحه، أو قراءته.

أو كمن دعي إلى وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها!

ولله المثل الأعلى.

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها.

على الرغم من أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد يكمن في آية واحدة في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة إليك أنت.

تتشلك معانيها..

تشفيك موعظتها..

وتضيء توجيهاتها طريقك.

على الرغم من أنه كثيرا ما يكون الحل في التذكير بالقرآن -وحسب- دون وسيط، أو إضافة، أو تكلف، أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى.

على الرغم من كل ذلك، فإن قليلا من ينتبه، وقليلا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية.

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يخلى بينك وبين كلام ربك مباشرة..

يخاطب قلبك، ويمس فؤادك، وتهفو إليه روحك.

وقليل من المربين والموجهين من يعنون بتوجيه قلوب الناس وعقولهم إلى تلك القيمة والحقيقة، ويجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاته وتذكيراته ونصائحه وتوجيهاته.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥).

حاول أن تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق.

حاول أن تتفاعل معه.

أن تجيب عن سؤالاته.

وأن تمتثل إلى أمره.

وتنتهي عن نهيه.

حاول استشعار أنك أنت المخاطب.

أنت.

نعم، أنت.

القرآن كله يحتشد بالنداءات والسؤالات والأوامر والنواهي الموجهة إليك أنت.

كل كلمة يا عبادي، أو يا أيها الذين آمنوا، أو يا أيها الناس، تشملك أنت.

الله ينادي ويدعو عباده.

وأنا وأنت من عباده.

يدعوك أنت، ويدعوني أنا، وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه.

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك.

يدعوك إلى دار السلام والجنة والمغفرة بإذنه.

يدعوك إلى ما يحييك ويناديك، إلى ما فيه خيرك.

كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك.

كم مرة سمعت: يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الناس، ويا عبادي.

نعم، هذا أنت.

أنت المنادى وهو المنادي.

هل لا بد أن ترى اسمك مكان كل كلمة عبادي، أو الذين آمنوا، أو الناس وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادى؟!

لماذا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنى وتستمتع بشعور جديد؟!

شعور أن ربك يناديك.

يكلمك.

يسألك.

ويدعوك ليغفر لك.

حاول.

وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير. وستلمس بإذن الله تغيرا واضحا في علاقتك بالقرآن، تغيرا للأفضل.

فقط، إذا ترسخت في نفسك تلك القيمة.

قيمة أن الله يكلمك.

قيمة الانتماء للوطن

سالم بن عميران
باحث يمني

يعد الانتماء للوطن من أبرز القيم التي تقوم عليها حياة الفرد، وهي من النعم التي رزقنا الله بها، والنعم لا تستشعر ولا تحصل قيمتها في النفس إلا إذا فقدت، وبغير هذا الشعور يشعر الإنسان بالضياع ويفقد هويته وكيانه وجزءا من شخصيته؛ ويعيش في فراغ وفوضى وضياع.

ولولا مكانة الوطن في النفس لما ذرفت عينا الحبيب ﷺ، ولما ذكره العقلاء والشعراء، في أسفارهم محبة وشوقا.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١) أن المحنة التي يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن المحبب للطباع السليمة؛ أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها، ومن هنا قيل: لقتل بحد سيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق (١).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما- قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال: «أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» (٢).

وعنه- أيضا- أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع ناقته، وإن كان على دابة حركها من حبها، قال ابن حجر –رحمه الله- «وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه» (٣).

وروي أن أبان قدم على النبي ﷺ فقال: يا أبان كيف تركت مكة؟

قال: تركت الأذخر وقد أعذق، والنمام وقد أورق، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة. وأوصى الإسكندر أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبا لوطنه، واعتل سابور ذو الأكتاف وكان أسيرا ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك، وكانت قد عشقته، ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته. وقال الجاحظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه في جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلاد ألفناها على كل حالة
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هوى بها

ولا ماؤها عذب ولكنها وطن (٤).

يقول إبراهيم بن أدهم: «عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد علي من نزاع النفس إلى الوطن» (٥).

وجاء في تاريخ بغداد أن أبا العباس محمد بن إسحاق السراج قال: وآسفا على بغداد، فقيل له ما الذي حملك على الخروج منها؟ قال أقام بها أخي إسماعيل خمسين سنة فلما توفي ورفعت جنازته سمعت رجلا على باب الدرب يقول لآخر: من هذا الميت؟ قال: غريب كان ها هنا. فقلت: (إنا لله..) بعد طول مقام أخي بها واشتهاره بالعلم والتجارة يقال: غريب كان ها هنا! فحملتني هذه الكلمة على الانصراف إلى الوطن (٦).

وقد أكثر الشعراء في ذكر الأوطان ومحبتها والشوق إليها، فهذا ابن الرومي ذكر الوطن وبين العلة التي لها يحب، وزاد عليهم أجمعين وجمع ما فرقوه في أبيات من قصيدة يخاطب بها سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد أريد على بيع منزله فقال:

ولي وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمه
كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
وقد ألفته النفس حتى كأنه
لها جسد إن غاب غودرت هالكا

والنفس السوية بطبعها تألف موطنها الذي فيه ولدت، وعلى مهده نمت وشبت حتى وإن كان هذا الموطن صحراء قاحلة مجدبة.

فكل ما سبق يدل على أن حب الوطن والارتباط به واجب، والانتماء إلى الوطن فطرة وضعها الخالق في نفوس الأسوياء؛ فلا يمكن لأحد أن ينزع هذه الفطرة من نفس صاحبها وذلك لتمكنها منه، ونفاذها فيه.

إن فقد الشعور بالانتماء للوطن والولاء له، هو سبيل إلى الضياع. فهلا سألت نفسك يوما هذا السؤال: ماذا قدمت لوطني؟

الهوامش:

١- روح المعاني (٢ /٧٥).
٢- مسند أبي يعلى (٥ / ٦٩).
٣- فتح الباري (٣ / ٦٢١).
٤- المستطرف ص (١٣٢٤- ١٣٢٧).
٥- حلية الأولياء (٧ / ٣٨٠).
٦- تاريخ بغداد (٦ / ٢٩٢).

كيف طغى الاستهلاك؟!

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث

قديما حاول ابن خلدون في إطار الثقافة/المرجعية الإسلامية، وفي انعدام موجة العولمة والعلمانية التي تجتاح العالم اليوم، أن يقدم تصورا عن أسباب انهيار الأمم والدول، فكان من جملة الأسباب التي تناولها في حديثه المهم ذاك، المال وفيضه، والإسراف ومآلاته، فقال: «يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية؛ لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها، ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس (الضرائب) على أثمان البياعات في الأسواق لإدرار الجباية؛ لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا» (١). فكان الاضطهاد والقهر مآلين للترف، ثم سببين في انهيار الدولة في الرؤية الخلدونية للعمران والحضارة والاجتماع.

على أن العالم اليوم ذا المرجعيات الثقافية المتنوعة من المعذور في ضوئه أن نفسر الظواهر الاجتماعية الغريبة من خلال عامل الترف والإسراف فقط كما تناوله ابن خلدون، إذ صار الأمر أشد تعقيدا وتركيبا بلا شك.

المرجعية وأداة التنفيذ

إن «العقلية الاستهلاكية هي تلك العقلية التي تُقبل على الاستهلاك متجاوزة درجة إشباع الحاجات الطبيعية الضرورية للعيش إلى إشباع الحاجات الثانوية غير الضرورية» (٢).

ويمكن أن نرى أبعاد هذه الظاهرة في البلاد العربية بالنظر إلى عدد من الإحصائيات؛ فمن خلال دراسة ميدانية مصرية أجراها الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء في فترة ٢٠٠٨-٢٠٠٩، وصدرت عام ٢٠١٢ بعنوان «تطور أنماط الإنفاق الأسري»، يتبين أن المصريين ينفقون على التدخين والمكيفات بنسبة ٢,٧ في المئة سنويا من إجمالي إنفاق الأسرة المصرية تقريبا، و٢,٧ في المئة على الاتصالات، و٤,٣ في المئة على المطاعم والفنادق (أي ما نسبته ٩,٧ في المئة)، مقابل نسبة ٢,٩ في المئة للتعليم.

ومما أشار إليه تقرير صادر عن «الإدارة العامة للرقابة على الصادرات والواردات» في العام ٢٠١٠، أن واردات مصر من السلع الاستهلاكية والترفيهية قد قاربت ٥,٤ مليارات دولار، وهو ما يمثل ٨,١٦ في المئة من إجمالي الواردات، وأن الواردات الاستفزازية قد سجلت ارتفاعا بنسبة ٥,٢ في المئة.

ووفقا لنتائج استطلاع لـ«ماستركارد» حول اتجاهات الإنفاق على المطاعم والترفيه في دولة الإمارات عام ٢٠١١، لا يزال الترفيه يحتل صدارة التصنيف، بحيث يقوم واحد من كل اثنين من المستهلكين هناك بزيارة مراكز التسلية والمدن الترفيهية.

وكانت دراسة لشركة الأبحاث يورو مونيتور انترناشيونال قد أشارت إلى أن سوق مستحضرات التجميل قد زاد بنسبة تصل إلى ٣٠٠ في المئة خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وإلى بلوغ إجمالي مبيعات أدوات التجميل في المنطقة العربية ٢,١ مليار دولار، مما جعل هذه المبيعات الأعلى في معدلات استهلاك مستحضرات التجميل على مستوى العالم، شكلت النساء الخليجيات النسبة الأكبر منها (٣).

والسؤال المهم هو: كيف ترسخ هذا الاستغراق في الاستهلاك وصار من المسلمات؟!

إن هذا السؤال، وغيره من الأسئلة التي تحاول الإجابة عن الظواهر السلوكية والاجتماعية وأسبابها تبحث غالبا في محورين أساسيين:

الأول - الثقافة أو المرجعية السائدة.

الثاني - وسائل تنفيذ هذه المرجعية.

فالمرجعية التي انبعثت الثقافة الاستهلاكية منها هي العلمانية التي اخترعت العولمة، ذلك أن العلمانية، وهي تجلٍّ للتطرف الغربي تجاه الدين والمرجعية القيمية عموما، قد جعلت الكسب والمادة هما الغاية في ذاتها، وجل المدارس الاقتصادية الأوروبية التي ظهرت في ظل المرجعية العلمانية، من المدرسة الطبيعية الفيزيوقراطية إلى الرأسمالية الكلاسيكية، لم تخرج عن هذه المضامين (٤).

يقول روبرت داونز عن آدم سميث (شيخ المذهب الرأسمالي الاقتصادي، وكتابه الأشهر «ثروة الأمم»، وأحد أبرز المؤسسين للأفكار الاقتصادية المعاصرة): «النظرية الأساسية في كتاب «ثروة الأمم» نظرية ذات نزعة ميكيافللية، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها. وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري، وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها، وإنما هي على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته. وفي رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلا بد من ترك كل فرد يستغل أقصى إمكاناته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقييد بأي قيد» (٥).

في ظل هذه الأفكار الأنانية التي تجعل الغاية مبررة للوسيلة، وتجعل المادة لب الكون، ظهرت المؤسسات والشركات التي تتنافس على حساب الأمم وثقافتها وصحة أبنائها وثرواتها بلا رقيب (٦)، بل تحالفت معها أنظمة قوية، فظهر ما يسمى بمنظومة «الدولة/الشركة»، أو «الكربورقراطية»، كما يسميها جون بركنز في «اعترافات قرصان اقتصاد»، إذ يقول: «تسعى الإدارة

الأمريكية إلى تقسيم العالم إلى مناطق اقتصادية نوعية تخدم كل منها على حدة أغراض الشركات الأمريكية (فنزويلا والمكسيك والخليج للنفط، أمريكا الوسطى والكاريبي للعمالة الرخيصة وتجميع المنتجات، والصين للاستهلاك...)، وكما سعت من خلال مجموعة الدول الصناعية الكبرى، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية إلى إنشاء منظومة لحكم العالم بشكل غير مباشر، أعطت فيها للنخب السياسية ورجال الأعمال وقادة الرأي في العالم النامي حق المشاركة فيها والاستفادة منها بشرط الدفاع عن الليبرالية بالمفهوم الأمريكي، وطلب من أكثر من مئة دولة من العالم الثالث فتح أسواقها أمام الشركات المتعددة الجنسيات والابتعاد عن السياسات المساندة للقطاع الاقتصادي الوطني تحت شعار «حرية التجارة»، الذي كانت له آثار مدمرة على اقتصادات الدول» (٧).

تسلع الإنسان!

إذن للثقافة الاستهلاكية مرجعية ووكلاء: مرجعية تؤسس للتنافس بلا رقيب ولا تهدف إلا للربح على حساب الإنسان والبيئة، ووكلاء من شركات عالمية متحالفة مع أنظمة كبرى لها ترسانة عسكرية وإعلامية تنتشر في العالم تدافع عن هذه المصالح وما ينبثق عنها من ثقافات -كالثقافة الاستهلاكية- ليل نهار، وبلا كلل (٨)!

في ظل هذه الآلة الجبارة من الإعلام والعسكرة والاقتصاد شُكِّل الإنسان ذو البعد الواحد، كما يقول دكتور عبدالوهاب المسيري، رحمه الله؛ هذا الإنسان «نتاج المجتمع الحديث، مجتمع ذي بعد واحد يسيطر عليه العقل الأداتي والعقلانية التكنولوجية، شعاره بسيط جدا هو التقدم العلمي والصناعي والمادي، وتعظيم الإنتاجية المادية، وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك، وتهيمن على هذا المجتمع الفلسفة الوضعية التي تطبق معايير العلوم الطبيعية على الإنسان، وتدرك الواقع من خلال نماذج كمية ورياضية، وتظهر فيه مؤسسات إدارية ضخمة تغزو الفرد وتحتويه، وترشده وتنمطه وتشيئه وتوظفه لتحقيق الأهداف التي حددتها. ويذهب ماركوز إلى أن المجتمعات الاستهلاكية تتسم بهيمنة المؤسسات الرأسمالية على السلطة وسيطرتها على عملية الإنتاج والتوزيع، بل صياغة رغبات الناس وتطلعاتهم وأحلامهم، فهي تنجح في خلق طبيعة ثانية مشوهة لدى الإنسان؛ إذ يتركز اهتمامه على وظيفته التي يضطلع بها، وتتركز أحلامه على السلع، ويرى ذاته باعتباره منتجا ومستهلكا وحسب، دون أدنى إحساس بأي غائية كبرى أو هدف أعظم، ويرى أن تحقيق ذاته إنما يكمن في حصوله على السلع» (٩)!

بكلمات المسيري، رحمه الله، تتلخص مشكلة ثقافة الاستهلاك في الإنسان المتسلع ذي البعد الواحد، الذي لا يرى السعادة إلا في الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك. وحل هذه المشكلة يتلخص في تغيير البنية الثقافية والإعلامية من جذورها في بلادنا، وفي إعادة السؤال عن مرجعيتنا الدينية والقيمية، هل هي متحققة أم تم إقصاؤها؟!

هوامش

١ - مقدمة ابن خلدون ص٣٦٦، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٨م.

٢ - طارق حسن السقا، مقال بعنوان «العقلية الاستهلاكية ومستقبل الأمة»، موقع صيد الفوائد على الشبكة العنكبوتية.

٣ - الإحصائيات نقلا عن نشرة مركز البحوث والدراسات التابع لمؤسسة الفكر العربي، العدد ١٣٩، التاريخ ٢٠١٢/١/٩.

٤ - راجع: جون كينيث جالبيرت، تاريخ الفكر الاقتصادي، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، ص٧١ وص٨٧، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦١ - الكويت، ٢٠٠٠م.

٥ - روبرت داونز، كتب غيرت وجه العالم، ص٧٣، نقلا عن العلمانية لسفر الحوالي، ص٢٧٥، طبعة دار الهجرة.

٦ - نورينا هيرتس، السيطرة الصامتة، الرأسمالية العالمية وموت الديموقراطية، ترجمة صدقي حطاب، ص٦٦ - ٧٠، منشورات سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٣٦ - الكويت، ٢٠٠٧م.

٧ - جون بركنز، الاغتيال الاقتصادي للأمم، اعترافات قرصان اقتصاد، ترجمة شريف دلاور، ص١٥، الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة، ٢٠١٢م.

٨ - شريف دلاور، السطو على العالم، التنمية والديموقراطية في قبضة اليمين المتطرف، ص٩٧ و٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠١٢م.

٩- عبدالوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/١٤٤، ١٤٥، دار الشروق، الطبعة الأولى - القاهرة، ٢٠٠٢م.

الإنتاج وسؤال الحضارة

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

ثمة تعريفات كثيرة تحاول أن تستجلي مضامين الظاهرة الحضارية، وتستبين شرائطها ومظاهرها ومعادلاتها؛ لكننا يمكن أن نعرف هذه الظاهرة ونتلمس مؤشراتها من زاوية «الإنتاج والاستهلاك»، فنقول: الحضارة هي فائض الإنتاج؛ وبالتالي فإن مفهوم المخالفة يقتضي أن تكون زيادة الاستهلاك وما تستتبعه من زيادة الاستيراد، مؤشرا من مؤشرات التراجع الحضاري.

الحضارة تعني -في شقها المادي- إبداعا في التعامل مع عالم الأشياء، وقدرة فائقة على التفاعل مع معادلات الكون وكشف غوامضها؛ وهذا يقتضي بالضرورة القدرة أولا على تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتوظيف الإمكانات المتاحة بما يفي بالمتطلبات الأساسية والحاجات الملحة، وصولا إلى توفير قدر من الإنتاج يسمح بزيادة العمران، وتحقيق الرفاه، وتشييد الحضارة.

لكن للأسف، قد تتوافر الموارد المالية التي تمكن -إذا أحسنا استغلالها- من قطع الشوط الأول في رحلة الألف ميل نحو الحضارة، فإذا بالبعض يستسهل مراكمة الأشياء بالاستيراد؛ بدلا من إعمال العقل، وبذل العرق، وتفعيل الطاقات، ورفض التسلق على منجزات الآخرين.. ظنا منه أن مراكمة الأشياء، والزهو بامتلاك أحدث الصيحات في عالم الرفاه، يعني امتلاك ناصية التقدم، واختصار الطريق باتجاه الحضارة! هذه الحالة الزائفة لمفهوم الحضارة، هي ما حذر منه مالك ابن نبي وسماها «ظاهرة التكديس»، موضحا أن طريقنا إلى الحضارة يمر عبر مرحلة ننتقل فيها «من التكديس إلى البناء»؛ فننتج الأشياء، «لا أن نكدس؛ فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة، لا التكديس؛ ولنا في الأمم المعاصرة أسوة حسنة. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، وليست المنتجات هي التي تكون حضارة؛ إذ من البديهي أن الأسباب هي التي تكون النتائج، وليس العكس؛ فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي؛ لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء» (١).

وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن نقلل من قيمة الأشياء، ولا أن ندعو إلى عدم التمتع بطيبات الحياة الدنيا؛ فموقف الإسلام في هذه القضية واضح غاية الوضوح، وهو موقف وسط بين من يغالي في حب الأشياء حتى تلهيه عن ذكر الله، وبين من يزدريها ويجور على حقوق جسده بزعم الارتقاء بالروح؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾(الأعراف:٣٢). وقال أيضا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (القصص:٧٧).

لكننا ندعو إلى التمتع والزهو بحضارة هي من صنع أيدينا، ومن حصاد أعمالنا، ومن كدنا الذي يصل الليل بالنهار؛ أما ما دون ذلك فلا يسمى حضارة، ولو امتلكنا أحدث الصيحات في عالم الأشياء!.

هوامش

١- ابن نبي «حديث في البناء الجديد»، ص ٩٨، ٩٩ ترجمة عمر مسقاوي.

ما بين الإبداع...والمجتمعات الاستهلاكية

د. آندي حجازي - أكاديمية من الأردن

لكل زمان سمة تميزه عن غيره من الأزمان والعصور، وقد يكون ما يميز زماننا هو «السرعة في كل شيء، والتغير المستمر، والإنتاج الصناعي والإلكتروني المتنوع والهائل...». ففي الماضي القريب، كان الناس يعتمدون على أنفسهم في زراعة وصناعة ما يحتاجون إليه، فكانوا يأكلون مما يزرعون، وينتجون بأنفسهم ما يلبسون، فكانت الصناعات اليدوية المحلية هي السائدة، وكانت أساليب التواصل الاجتماعي بسيطة غير معقدة. أما اليوم، ومع انتشار المصانع والكهرباء والآلات ذات الدقة العالية، وتنوع وسائل الاتصال والتكنولوجيا، فإن الصناعات الآلية والإلكترونية أصبحت هي السائدة، وذلك من أصغر قطعة، كالمسمار، إلى أكبر قطعة، كصناعة السيارات والطائرات.

إن نواتج الإبداع أو الابتكارات التكنولوجية أمور تستحق الاحترام والتقدير والنظر إليها بعين الإعجاب والانبهار. لكن الاعتماد على الآخر والاستهلاك الهائل والمترف لما ينتج من قبل الآخرين هو ما يستحق الازدراء وقلة التقدير، بل وإغراء الآخرين باحتلال البلد والسيطرة على خيراته وموارده. فشتان بين شعب ينتج ويبدع ويصدر إنتاجه وابتكاراته لكل العالم، وشعب ما عليه سوى الاستهلاك والعيش على ما ينتجه الآخر! فليست القوة لمن يشتري الإنتاج بل لمن يبيعه.

إن منطق القوة اليوم هو في مصلحة من يملك الصناعات والإنتاج ووسائل الرفاهية التي يقدمها للآخر، فالصين -مثلا- أصبحت اليوم ثاني أقوى اقتصاد في العالم، وباتت مرشحة لتحتل المرتبة الأولى في العالم في حجم الاقتصاد والصناعات والقوة الدولية خلال السنوات العشر المقبلة. والعالم اليوم لا يعرف غير لغة الإنتاج والابتكار والسيطرة الصناعية والاقتصادية، فالدول المسيطرة في عصرنا الحالي تستمد قوتها من حجم إنتاجها وحجم صادراتها واقتصادها وناتجها القومي ومدى إنتاج عقول أبنائها، فليست معادلة القوة اليوم لمن يملك المال، وإنما من يملك العقول التي تعرف كيف يستفاد من تلك الأموال، لتقف الآمال على أرضية صلبة لا رمال متحركة تبتلعها.

الإبداع أم الاستهلاك؟

في الحقيقة، إن الإبداع يتعارض مع المجتمعات الاستهلاكية، فكلا المفهومين بينهما تنافر شديد، كأقطاب المغناطيس السالبة التي يستحيل تلاقيها. فالإبداع هو الإتيان بشيء جديد، والاستهلاك هو الاستفادة والاستمتاع بالقديم وبما هو منتج فعلا. وفي واقع الحياة إن أردت أن تكون مجتمعا مستهلكا فأنت لن تبدع وسوف تستهلك إبداعات الآخرين وتعيش عليها، وستبقى تشدك الجاذبية الدونية نحو الأسفل، وستبقى عالة على المجتمعات المنتجة، تعيش تحت رحمتها وعطفها، وقد تنتهي مواردك المالية يوما ما. بينما إن عقدت العزم على أن تصبح مجتمعا مبدعا منتجا فأنت حتما ستكون في مصاف الأمم المتقدمة، وستصل -كمجتمع- إلى عالم الفضاء والبحث في الآفاق وفي أسرار الكون، وستكون أهدافك شامخة، ورؤاك تتخطى حدود الواقع وحدود الكرة الأرضية. وستتجه ثقافة تلك الأمة إلى علو الهمة بعيدا عن ثقافة الاستهلاك.. إلى ثقافة الإنتاج والعطاء، وتفعيل القدرات، واستثمار المواهب والخيرات.

وخذ مثلا كوريا الجنوبية، التي لم تكن قبل ثلاثين عاما شيئا يذكر، واليوم أصبحت تصدر التكنولوجيا إلى كل دول العالم، فكل العالم اليوم يعيش على إنتاجها واختراعاتها، وهي تسابق الزمن بسرعة العواصف لا النسائم. وخذ مثلا الصين، التي عمت بضائعها وطغت على أسواق العالم فكأنها احتلت العالم اقتصاديا، وتسعى إلى أن تصبح الدولة الأقوى في العالم في غضون سنوات، وهذا متوقع في ظل هذا الإنتاج، فلا غرابة في طموحاتها. وانظر إلى ماليزيا، التي أصبحت تقدم السياحة والتكنولوجيا والتعليم والاختراعات نموذجا يحتذى، على الرغم من قلة الإمكانات. وكذا سنغافورة وإندونيسيا واليابان وألمانيا... فكل هذه الدول اختارت أن تكون منتجة مبدعة لا مستهلكة تابعة. بينما تأمّل المجتمعات العربية في وقتنا الحالي تجد أن حجم مشترياتها واستيراداتها يتضاعف عاما بعد عام (بمليارات الدولارات) مما بات يثقل كاهل ميزانياتها، دولا وأفرادا، في مقابل نومها العميق البعيد عن أي إنتاج إبداعي يكتسح العالم ويدعم اقتصادها!

إن الاستهلاك في شعوب أمتنا العربية أصبح داء عضالا متفشيا، خصوصا في الدول النفطية الغنية، حيث تعوّد أبناؤها على الشراء، سواء كانت السلع ضرورية أو غير ضرورية، مما جعلها أكثر دول العالم استهلاكا للسلع الترفيهية والكمالية الباهظة الثمن.. وأكثرها إنفاقا على ذلك من ميزانياتها بدلا من استثمارها في مشاريع إنتاجية تنموية!

وهذا السلوك الترفي الاستهلاكي هو في الحقيقة داء فتاك في الأمة، لأنه مبدد للأموال والثروات والطاقات في غير موضعها. والأسوأ هو تعود الأطفال عليه، حيث ينشأ الطفل منذ الصغر وهو يشاهد هذا السلوك التبذيري في الأسواق والمطاعم والأسفار والبيوت... من قبل الأقارب والوالدين اللذين يعتبران القدوة الأولى والأخيرة في حياة الطفل، فيكتسب ذلك السلوك، وينشأ عليه وكأنه سلوك قويم.

ومن جانب آخر، باتت المظاهر الاجتماعية في تلك الدول العربية تلعب دورا مهما في هذا الجانب، حيث أصبح التنافس الاجتماعي في شراء السلع ذات الماركات العالمية الغالية الثمن هو الهدف الأول والأهم لدى بعض الأسر والأفراد والمجتمعات، فتنفق تلك الدول عشرات المليارات من الدولارات على توفير تلك الأسواق ذات البضائع العالمية! فتحولت مجتمعاتنا إلى مجتمعات استهلاكية ترفية بما تحمله الكلمة من معنى، وبما يتناقض مع تعاليم الإسلام في عدم الإسراف والتبذير. والسؤال: من المستفيد الأول والأخير من عملية الاستهلاك المستمر وهدر الأموال؟ أهو شعوبنا العربية، أم شعوب الدول المتقدمة المصنعة لتلك البضائع والمصدرة لها، فيقوى اقتصادها ويضعف في المقابل اقتصادنا؟!

إن الإبداع الحقيقي الذي ينافس

في سوق الإنتاج العالمي ولخير البشر هو ما يستحق التحية والتقدير ورفع القبعة احتراما، حيث يعمل على تقوية الأمة ودعمها، وأخذ مكان لها بين الأمم والشعوب، ويعمل على صيانة مستقبل أبنائها والمضي بهم قدما في عالم التقدم والقوة والسبق، فلا تعود أمة مهددة بالانقراض أو الاحتلال أو التبعية الفكرية والثقافية أو الإذلال والتهميش، لأن أخطر ما يكون في المجتمع الاستهلاكي لا البرجوازية الفارهة والعيش الزائف فحسب؛ بل استهلاك واستيراد قيم الآخر وثقافته بكل ما تحمل من غث وثمين، وهذا ما فرضته العولمة علينا اليوم حينما استهلكنا مع التكنولوجيا قيم وسلوكيات وثقافة وأفكار الآخرين الذين لا ينتمون إلينا بصلة!

تساؤلات بين الإبداع والاستهلاك

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه: أين أمتنا العربية من هذا الإبداع الذي يبعدنا عن وصمة المجتمعات الاستهلاكية؟ هل السبب العقول المهجرة التي لم تجد بصيص أمل لها في الدول العربية بينما وجدت كل الترحيب والتكريم في الدول الغربية؟ أم الأموال الضائعة وقضايا الفساد وسوء استغلال الموارد وإهدار خيرات البلاد العربية؟ أم هو سوء التخطيط والإدارة؟ أم نقصان الإخلاص والعمل الجاد؟ أم التعليم الهزيل في مدارسنا وجامعاتنا الذي ينمي قدرات الحفظ الأصم لا قدرات التفكير والإبداع؟ أم هو الكسل والخنوع وتعود الاعتماد على الآخر؟ أم الاستسلام لمعتقدات أن الآخرين أفضل وأن لا قدرات عربية نملكها؟ أم هو الاستمتاع بما ينتجه الآخر من دون أدنى تعب؟ أم هي الطاقات المهدرة والشباب التائه؟ أم هو الانشغال بالهموم الفردية والمصالح الشخصية بعيدا عن مصالح الأمة والإخلاص لها؟ أم هي الأهداف والرؤى غير الواضحة وغير المتفق عليها والتي من المفترض أن تهدف إلى رقي الأمة والمضي قدما بها؟ أم هو البعد عن تعاليم الدين الإسلامي الحقيقية التي تحث على العمل والإنتاج والإبداع: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة التوبة :١٠٥). «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» (رواه البيهقي/ السلسلة الصحيحة)؟ أم هو كل هذا معا؟

إن التحديات في المرحلة الحالية والظروف الاقتصادية التي تمر بها الكثير من الدول العربية، ومتطلبات الأجيال القادمة... تتطلب إعادة النظر في سلوكياتنا الاقتصادية على كافة الأصعدة والمستويات الدولية والاجتماعية والفردية.

متطلبات الإبداع المنتج

ولكي تصل أمتنا العربية والإسلامية إلى الإبداع، ونعود، كما كنا، إلى مقدمة الأمم المنتجة التي تصدر اختراعاتها ومنتجاتها للعالم (في العصور الذهبية حتى نهايات القرن التاسع عشر) فإننا نحتاج إلى ما يلي:

- قلب صادق مخلص؛ من كل فرد، ومن كل مسؤول، ومن كل موظف وعامل. فقد فقدنا الإخلاص في العمل والشعور برقابة الله تعالى، ولم يعد هناك متقن للعمل، إلا من رحم ربي!
- عقول مفكرة؛ نحتاج إلى عقول أبنائنا المخلصة الموهوبة المبدعة التي تعمل لمصلحة الوطن لا لمصالحها الشخصية.
- استرجاع الأدمغة المهجرة في الخارج، والحفاظ على الحالية بشتى الطرق.
- التوعية المجتمعية، لتصحيح ثقافة الشعب من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج من خلال دور التعليم ودور الإعلام بشتى وسائله.
- تنمية سلوكيات ومفاهيم الوعي الاستهلاكي السليم لدى أطفالنا منذ الصغر، وإدراجها في مناهج التعليم المدرسي.
- وضع خطط واستراتيجيات اقتصادية قويمة تهدف إلى البناء والتعمير والإنتاج من خلال مخططين استراتيجيين ذوي خبرة في التنمية الاقتصادية.
- التركيز على التعليم التقني والمهني لتعليم المهن وتشجيعها في مجتمعاتنا العربية، حيث تقود لوفرة الصناعات.
- تعزيز وتشجيع المشروعات الإنتاجية، سواء على مستوى الدولة أو الأفراد، لتفعيل نهج الاقتصاد الإنتاجي التنموي لا النهج الاستهلاكي.
- تشجيع الأفراد على الادخار والاستثمار في مشاريع مفيدة تنموية وصناعات محلية.
- تصحيح مسيرة التعليم من قبل المعلمين والقائمين على التربية ، فلا بد من التعليم القائم على الإبداع، وتعليم التفكير، وحل المشكلات، والتعاون، وتنمية القيادة، والحرية.
- بناء الثقة ودعمها في قدرات أبنائنا ومواهبهم وقدراتهم على الابتكار والإنتاج.
- توفير الأمن والأمان والحرية والديموقراطية للشعوب لكي تنتج وتبدع وتعمل عقولها في الإبداعات.
- تشجيع وتعليم الاقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام في الزهد والبعد عن كل مظاهر الترف والإسراف والتبذير، ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ (الإسراء:٢٧). والتذكير بالهدف من الحياة وهو العمل للآخرة.

منظومة المتاع والزينة والزخرف:

بين منطق الاستخلاف.. وشهوة الاستهلاك

د.هبة رءوف عزت
استاذة جامعية-مصر

يحتاج المرء أن يعيد النظر في معاني المفاهيم ودلالاتها وخرائطها بمنهج القرآن ولفظه كي يستقيم منهجه، لذلك فالنظر في مفهوم الاستهلاك وثقافته وروابطه وشبكاته هو فرع عن أصل، هو «رؤية الحياة».

لعلها: زينة إلى أمد.. فمنذ بدء استقرار آدم وحواء في الأرض كان المتاع لهم زينة.. وأمد. والناظر في كتاب الله يرى معنى المتاع يدور بين المادة والزمن، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(البقرة:٣٦).

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(هود:٣).

والآيات كثيرة في هذا السياق.

لم يحرم الله متاع الحياة الدنيا ولا زينتها، لكنها لن تكون أبدا خالصة من منغصات العيش، فتلك سمة زينة الحياة الآخرة.

وتدور معاني المتاع والزينة مع الشهوات، المال والنساء والبنين، والخيل المسومة والأنعام والحرث، ينفق الإنسان عمره في استهلاك المتع، ويمتعه الله.. إلى أجل.

ولكي نفهم عمق نظر الإسلام لعلاقة الإنسان بكل ذلك، لابد أن ننظر في فلسفة الجسد والنسل والمال والحياة والزمن، وندرك أن استقامة تلك المقاصد لا يتم إلا بميزان الآخرة ويوم القيامة.

وفي قصص القرآن حديث عن نماذج غلب فيها الطغيان على الإحسان، في مثال قارون، وأخرى غلب فيها الطغيان على العمران، كما في نموذج فرعون، وثالثة غلبت فيها الشهوة على العرفان، كما في قصة يحيى، وغيرها من الخرائط التي نفهم من خلالها كيف يتم بناء تصور شامل لعلاقة الإنسان بذاته وبغيره وبالعالم.

ثقافة الاستهلاك التي تنامت في عالمنا الإسلامي لتدخل في تفاصيله هي امتداد لثقافة المترفين التي أودت بأمم فأهلكتها، وهي صيغة من صيغ ثقافة الزخرف التي حذر منها القرآن.. زخرف البنيان وزخرف البيان.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:٢٤-٢٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١١٢).

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

والحق أن ثقافة المتاع والمتعة والزخرف والترف، لا يمكن فهمها بمعزل عن مفهوم القوة ورؤية المجتمع لمفهوم الخيرية، ومفهوم السعادة وتعريف الحياة الطيبة، فحين يكون مفهوم القوة مقترنا بالخيرية يتوازن مفهوم النفع والخير الخاص مع النفع والخير العام.. وتسود عقلية التفكير بصيغة الجمع (كما في حديث: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»(صححه الألباني)، فتكتسب القوة مقوماتها من الذات والصفات الفردية والمجتمعية، لا مما يمتلكه البشر من سلع ومتاع. وليس في ذلك حض على التجرد والتخلي عن كسب المعايش ولا عمارة الأرض، بل هو وعي بميزان المصالح وفهم لمهمة الأمانة والشهود. لذلك فرؤية الإسلام للمال والمتاع لا تنفك عن منظومة للعدالة تقوم بإصلاح حال النفس وحال المجتمع.. وترى تلك الموازين الدقيقة والمقاصد الواضحة لأحكام الشرع التي تؤسس نفوسا سوية وأمة قوية.

مراكمة الثورة

ولعل أبرز الأيديولوجيات المعاصرة التي انتقدت مراكمة الثروة باعتبارها سبيلا للبغي على الحقوق الاجتماعية هي الماركسية، فمفهوم فائض القيمة وطبقا للتحليل الماركسي فإن السلعة التي يتم إنتاجها؛ بينها وبين المادة الخام فائض في القيمة، أي السعر، وهو الفارق بين قيمتها قبل العمل وقيمتها بعده، ومن هنا يأتي الربح، فإن وجد وسيط بين العامل وحصوله على كامل قيمة الفائض فسيكون هذا الوسيط هو صاحب العمل الرأسمالي الذي يستولي على النصيب الأكبر من فائض القيمة، ويعطي الفتات للعامل الذي يستحق الفائض كله، ومن هنا المطالبة بالعلاقة المباشرة بين العامل وأجره، وتحريره من أبنية الاستغلال التي تجني الربح وتشاطره الأجر دون حق.

هذا تبسيط يكاد يكون مخلا لنظرية ضخمة استفاض ماركس في شرحها في كتابه العمدة «رأس المال»، وغيره مما كتب.. لكنه لا مجال للبيان هنا لضيق المساحة.

قدم ماركس رؤيته للمجتمع المثالي كمجتمع شيوعي تختفي فيه الدرجات والطبقات، فلم ينتبه للدرس الذي تعلمه أفلاطون حين اقترح نفس الحل في دائرة النخبة السياسية، ثم وجد أن نزعات الإنسان الفطرية تتعارض مع تلك الحياة المشاعية. فلا مقاصد تحفظ، ولا غرائز تتفهم، ولا حدود تضع ولا مصالح تحفظ وتصون.

أما الليبرالية فقدمت نظريات فائض القوة التي انبنت عليها مفاهيم التوسع والاحتلال والاستغلال، لذا يقال «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» لأنه يعمم الاستغلال عالميا، مستغلا فرط القوة العسكرية مقابل الحاجة الاقتصادية، بما يؤدي لاستغلال واستعباد الشعوب الأخرى. هذا يتم تحت غطاء دور الرجل الأبيض في نشر المدنية بين البرابرة، ولما تهاوى هذا المنطق صار يتم تحت شعارات نشر الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وهي قيم محترمة لكنها تفقد جوهرها على يد قوى تطيح بها مقابل الزخرف -قولا وعملا.

ولعل أبرز من كتب في مطلع الألفية منظرا لفرط القوة وفائضها كان ريتشارد هاس، أستاذ العلاقات الدولية ومستشار الأمن القومي الأميركي، والذي تولى لفترة رئاسة مجلس العلاقات الخارجية حين كتب أن أميركا لديها فائض قوة لابد أن تمارسه في العالم، كان يتحدث يومها عن النفوذ.. والناتج كان باختصار حربي أفغانستان.. والعراق، واستمرار صرف بعض القوة في دعم الكيان الصهيوني.

الفائض

ما يلفت النظر هو أن الفائض كمفهوم هو علاقة أيضا بين عنصر حقيقي والموقف من توزيعه، أي حين يكون هناك فائض يصبح السؤال: كيف يتم توزيعه وفي أي اتجاه: فائض القيمة كيف نقسمه؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدالة الاجتماعية وسلطة الدولة، وفائض القوة كيف نحسن استغلاله ونتحكم فيه كي لا يتغول؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدل السياسي والدولي ومنطق القانون الدولي.

فائض الوهم

لكن هناك فوائض أخرى لم نلتفت لها تسري في الحياة اليومية للشعوب، تكرس ثقافة الاستهلاك وامتلاك المتاع وتعتبره مصدرا للرضا والسعادة والمكانة، وهذا هو: فائض الوهم.

بل الوهم الأكبر هو محض حب التملك.. فقد صرنا نشتري حتى دون أن نستهلك!

فلسفة

هنا يغدو فهم فلسفة الثروة مهما، لكن الأهم منه هو فهم منطق التواصي بالحق والتواصي بالصبر والمرحمة، والنموذج النبوي الذي قام على العطاء والتخفف من أحمال الدنيا، وعينه على الآخرة. لا رهبانية ولا قارونية. فالضغط الاجتماعي والولع بالشكل والمباهاة بالمتاع، هو ثقافة مجتمع يمكن تغييرها ويمكن تكريسها، والإغراء الإعلاني الذي يلح عليك أن تشتري وأن تستدين لتملك، حتى وإن لم تكن تستطيع هو البوابة لمنظومة الربا المعاصرة بكل تفاصيلها.

وبين فائض القيمة وفائض القوة وفائض الوهم السياسي والاستهلاكي، تدور رحى معركة العودة للإنسانية التي افتقدناها، إنسانية تمنح فائض القيمة توزيعا عادلا في قنوات الحياة الطيبة ودروب المجتمع المتكافل، وتمنح فائض القوة مصارف النصرة للمستضعفين وليس زيادة عدد المستكبرين، وتخترق دخان فائض الوهم الذي يملأ فراغات الفعل كي نتحرك لسد الاحتياجات الأساسية، برؤية مجتمعية.

وفلسفة الفائض في القرآن تتأسس على الفضل، فالفائض في الإسلام ليس نتاج استغلال، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء ببركة في الرزق، يستتبعها فضل بين العباد، تواصيا بالخير وقياما بالاستخلاف - فضل أمرنا الله به في كل معاملاتنا - من الديون، للطلاق، للتواصي بالإحسان والحض على توجيه الفائض للخير: إنفاقا مما جعلنا مستخلفين فيه، من فضل مال أو جهد، ونهوضا بما جعلنا مستأمنين عليه من فضل قوة، وحضا على عدل أمرنا الله به ننفق في الأمر بمعروفه والنهي عن منكره، فضل الوقت فلا يغدو وقت فراغ أبدا، أو صدقة هي حق الله في المال بعد الزكاة، بإنفاق فائض المال على المحتاج، تفكيرا بصيغة الجمع وزهدا في التباهي بثوب الشهرة وموبايل الشهرة وسيارة الشهرة وأثاث الشهرة، وعبورا لفجوة الوهم الاستهلاكي بتحري الإنفاق فيما نحتاج.. ويلزم.. ويصلح.

الفوائض يقابلها فوارغ، أما الفضل فشكر للنعمة، ودوران مع المقاصد ودفع للمفاسد... ودرء للوهم، وقيام بالشهادة.

طبائع

طبائع الاستهلاك، وطبائع الاستبداد، فوائض الثروة والقوة والوهم، لها انعكاساتها في السياسة والاقتصاد، فالاستبداد يتحرك في فراغ يخلقه تراجع الناس عن ممارسة حقوقهم والدفاع عنها، فيملأ بالقوة مساحات الاجتماع والسياسة، لا يكتفي بالحكم والجبروت، بل يخلق ثقافة تستخف بالقوم فيطيعونه.. كما ذكر القرآن.

من هنا كان من أهم الكتب التي رصدت هذا التوازي بين نظم الاستبداد وثقافة الشعوب المستبد بها كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي، الذي توفي رحمه الله مع مطلع القرن العشرين. وقد رصد أنواع الاستبداد التي تسري في الأمم، منها استبداد القوي بالضعيف، واستبداد الجهل على العلم، والنفس على العقل. ورصد كيف يمكن أن يستخدم الدين كغطاء للاستبداد، فقد وجد في التاريخ أن البعض استبد حتى كاد يزعم الألوهية، لذا أول خطوة لإصلاح السياسة تغيير الوعي، وإتاحة المعرفة وسبل العلم، فالاستبداد يرتع حيث يستشري الجهل ويتطلع الناس لقارون.. يا ليت لنا مثل ما أوتي. وقد ربط الكواكبي بين الاستبداد والمال، وخلق نخب حول الساسة، فالمترفون قد يكونون أعداء الاستبداد فكرا، لكنهم أعوانه عملا، فالمال يذل الغني طمعا في الحفاظ عليه، وهو يذل الفقير طمعا في تحصيله. واعتبر الكواكبي التربية مفتاح الاستبداد، فمن ينشأ على الخضوع والهوان في المجتمع يسهل عليه تقبل الهوان في السياسة. ورأى الحل في الأخلاق والتربية وبث الوعي، ثم التغيير في الأنظمة كي تتحقق الحرية عبر آليات الشورى الدستورية.

نقاط التلاقي

ونحن نرى في واقعنا شرقا وغربا كيف تنتشر طبائع الاستهلاك المباشرة، وتغمر الأسواق مساحات الاجتماع، وتضحى هي نقاط التلاقي الأساسية بين الناس ومحور حياتهم اليومية، السوق صار هو المجال العام، لا ليشهد الناس منافع لهم، بل ليدوروا حول ذواتهم المحدودة، ويشبعوا نهمهم وشهواتهم، فينصرفون بذلك عن التمدن والعمران، وتحصيل الحقوق بالنضال و«الدفع»، ويركنون إلى التسوق و«الدفع».. ولو بالدين الآجل. وحين تكتمل حلقات طبائع الاستبداد وطبائع الاستهلاك، وتتلاقى مع ثلاثية فائض القوة والثروة والوهم التي ذكرتها، يكون الحال هو ما نراه في الواقع العربي اليوم، من تردي في الأحوال وغياب لهمة التغيير وانصراف للشأن الفردي وانشغال بما هو شخصي.

في عالم الاستهلاك كل شيء له تاريخ صلاحية، حتى العلاقات الإنسانية تصبح خاضعة للمنطق الاستهلاكي، هكذا رصد سيجموند باومان أحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين في كتابيه: «الحداثة السائلة» و«الحب السائل» -كل شيء قابل للاستهلاك والاستبدال: من السلعة للجسد للعمل للإعلام للصداقة... وغيرها.

الاستهلاك ليس سلوكا فرديا، إنه منظومة كاملة، والتغيير يبدأ من فك تلك الحلقات واحدة بعد الأخرى. من هنا يبدأ الإصلاح.

الإسراف.. الجذور والمسار والثمار

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

قال الجرجاني في التعريفات: «الإسراف: هو إنفاق المال الكثير في العرض الخسيس، وقيل: هو تجاوز الحد في النفقة، وقيل: هو أن يأكل الرجل ما لا يحل له أو يأكل مما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة».

الجذور

ليست عوائد الإسراف، أو الثقافة الاستهلاكية، إلا ابنا من أبناء الحضارة الغربية المادية، وهذا الموضوع هو بحد ذاته دليل على أن إصلاح العقيدة (التي هي رؤية شاملة للإنسان والكون والحياة)، هو مبدأ كل إصلاح، وأن فساد العقيدة هو مبدأ كل فساد.

حين سارت الحضارة الغربية في مسار العلمانية وتقديس المادية وإزاحة كل «ما وراء الطبيعة» كان طبيعيا أن ينفجر النهر الفياض من الشهوات واللذائذ، وأن يعب المرء من الحياة ما استطاع بكل ما استطاع، فخلاصة الحياة في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي -فيلسوف العدمية الشهير- القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت» (١).

وهنا.. صارت اللذة هي الإله الجديد الذي تعبده البشرية في محراب المادية!

وذلك أساس فارق وخلاف جوهري بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للطبيعة، فارق بين «الاستخلاف في الأرض» الذي هو بمعنى المسؤولية والرعاية للأمانة والوديعة، والتي سيعقبها حساب وجزاء في اليوم الآخر، وبين معنى «الامتلاك الكامل» الذي تطرحه النظرة المادية العلمانية التي لا ترى في الكون إلا أنه «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظف

وتصنع وتستهلك وتولد منها الطاقة، من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان» (٢)، وهو ما جعل الطبيعة في نهاية الأمر مجرد «مخزن للثروات ومستودع للنفايات» (٣) كما قال الفيلسوف الفرنسي الشهير رجاء جارودي.

المسار

لقد انطلق قطار الحضارة المادية يبتغي الوصول لسعادة الإنسان وإشباع حاجاته، ومازال كلما وقف في محطة محققا نصرا علميا ومزيدا من التحكم في الأدوات ليشبع حاجة ولذة، انفتحت له محطات جديدة ولذائذ أخرى، ثم كانت المفاجأة:

«لم ينتج عن هذا زيادة التحكم في الذات الإنسانية أو في الواقع الموضوع، بل على العكس، فمع ظهور الإنسان الطبيعي (المادي) وتحديد المنفعة واللذة باعتبارهما الهدف الأساسي للوجود الإنساني، ترجم هذا نفسه إلى الاستهلاكية، وتصور أن مزيدا من السلع فيه مزيد من المنفعة واللذة، وقد تسارعت وتائر هذه الاستهلاكية تسارعا مذهلا، وبعد أن كانت الحاجة هي أم الاختراع أصبح الاختراع هو الذي يولد الحاجة، فوجد الإنسان نفسه محاطا بسلع وأجهزة ليس متأكدا تماما أنه يريدها (والسلعة مثل المادة، شيء يتحرك بلا هدف أو غاية)، وبدأ الإنسان يشعر أنه لم يعد يملك من أمره شيئا، وأنه يدخل في بحث لا ينتهي عن هدف لم يحدده في عالم ليس من صنعه، تتراكم فيه سلع لا يريدها» (٤).

لقد تحول الاستهلاك نفسه إلى «فلسفة مطلوبة؛ إذ إن تكاثر الإنتاج يقتضي ويريد تكاثرا في الاستهلاك، فيسعى أصحاب الإنتاج أنفسهم إلى خلق نوعيات جديدة للاحتياج عبر الدعاية والإعلان والتطوير المستمر للمنتجات، والبحث عن أسواق جديدة، وتقصير عمر المنتج ليستهلك سريعا؛ ولهذا فإن السيارات الحديثة لا تتمتع بأعمار السيارات القديمة، وكذلك البنايات الحديثة لا تعيش أبدا كما عاشت البنايات الأقدم منها» (٥).

وبهذا صارت الشعوب فريسة لذوي الأموال المترفين وذوي السلطان المتجبرين، فأولئك يتحكمون بالناس عبر تحكمهم بصناعة اهتماماتهم وتلاعبهم بشهواتهم وغرائزهم، حتى إنهم ليبتكرون لهم شهوات وحاجات جديدة تحتاج لإشباع جديد!

وهنا صارت لدينا طبقتان متمايزتان: قلة رأسمالية متحكمة ومهيمنة، وشعوب مستضعفة مستغفلة أقرب إلى القطعان منها إلى الإنسان، تساق إلى الموت وهي لا تشعر، وقد تذبح وهي لا تبصر.

الثمار

على عكس ما توقع الجميع، لقد جاءت المادية بنتائج كارثية في حياة البشر.. إن الفكر المادي المهيمن جعل حتى التفسيرات التي تبدو «علمية» ذات تطبيقات في غاية الخطورة، يقول د.عبدالوهاب المسيري: «في هذا السياق يبرز دارون كواحد ممن ساهم في التنظير للصراع والدموية بمقولته عن البقاء للأقوى أو للأصلح، حتى إن فرويد تساءل عن حكمة الدعوة إلى فضائل مستحيلة، مثل كبح جماح الرغبات الجنسية والعدوانية، بل إنه يتحدث -في لقطة متوحشة حقيقية- عن «فضل» اليهود على المدنية، فقد انتشروا في أرجاء العالم، ومن ثم اتجه إليهم عدوان الشعوب التي عاشوا بينها، فأتاحوا لتلك الشعوب فرصة التنفيس عن طاقة العدوان» (٦).

لقد صار الإنسان الذي اعتاد الإسراف خطرا على الإنسانية وعلى الكون من حوله، حتى بالمنظور المادي نفسه، ولعله يكفي -في هذا الصدد- أن نعرف أن نصف المواد العضوية التي تلقى في الماء وتلوثه في مصر هي أغذية ومشروبات، بحسب تقرير البنك الدولي لعام ٢٠٠٧م (٧). لقد غرقت الإنسانية فيما يسميه جان بيليت -وهو من أبرز علماء البيئة- بـ«مجتمع النفايات»، ويرمز لها بنهر له منبع، وهو الاقتصاد الذي يضخ عددا رهيبا من السلع والمنتجات لتلبية حاجات الاستهلاك المتزايدة، وله أيضا مصب وهو تراكم النفايات بعد انتهاء الاستهلاك، وهذا ما ينتج ثلاث مشكلات: مشكلة الطاقة، ومشكلة الموارد الأولية، ومشكلة تلوث البيئة (٨).

إن الثقافة الاستهلاكية هي ما تجعل المرء يمتلك عددا من الهواتف والأجهزة الإلكترونية، لكنه لا يستعملها إلا في اللعب أو ما لا يفيد، يمتلك عددا من السيارات لكنه لا يهوى إلا أن يسابق ويتقافز ويتمطى بها، وربما ليحصل على قلوب العذارى كما أوحى إليه الإعلام، يأكل في المطاعم الأميركية طعاما لا غذاء فيه، بل هو مشحون بالأمراض ليس إلا، لأن ارتياد هذه المطاعم يشعره بالنشوة التي تكونت عنده عبر الإعلانات الشهوانية. إنها حالة من التيه المختلط بالنشوة التي تصنع القوم الغافلين.

قال رسول الله ﷺ «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»(رواه النسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني).

هوامش

١- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٣٩.
٢- د. عبدالوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٠.
٣- رجاء جارودي، وعود الإسلام، ص٢٠.
٤- د. عبدالوهاب المسيري، العلمانية تحت المجهر، ص١٣٣.
٥- جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٤٨، ٥٠، ٥٦.
٦-د. عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٨/ ٣٢٩.
٧- تقرير البنك الدولي للعام ٢٠٠٧م (ب).
٨- جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٥٩.

اقتصاد الأسرة: ضوابط شرعية وآداب مرعية

د. حسين شحاتة
خبير استشاري في المعاملات الشرعية

يجب أن تكون التربية الإسلامية للأولاد شاملة ومتوازنة حتى ينشأ الطفل نشأة صالحة، إذ لا يقتصر الأمر على العقيدة والأخلاق فقط، بل أيضا في السلوكات المنضبطة بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، ومنها السلوك الاقتصادي في الإنفاق والكسب والادخار والاستثمار، وكذلك في وقت الرخاء والكساد، وفي المكره والمنشط، وفي السلم والحرب.

وهذا المنهج التربوي الشامل يعد الطفل منذ نعومة أظافره على أن الإسلام دين شامل، وفيه اقتصاد وسياسة وإدارة وتربية ونحو ذلك، وفي الدراسة التي بين أيدينا سوف نركز على الجوانب التربوية الإسلامية لأولادنا في مجال المعاملات الاقتصادية: المشروع الواجب أن يكون، والمنهي عنه شرعا.

● وجوب التربية الاقتصادية الإسلامية للأولاد:

لقد تضمنت الشريعة الإسلامية أسس التربية الاقتصادية بصفة عامة، ويلزم تطبيقها على الفرد والأسرة والدولة والمجتمع، كما يجب تطبيقها على الصغير والكبير حسب الأحوال، ومن ثم يجب أن نربي النشء على هذه الأسس، ولا نتهاون فيها بدعوى أن هؤلاء مازالوا أطفالا صغارا، فالتربية في الصغر كالنقش على الحجر، ومن شب على شيء شاب عليه، ولقد اهتم سلفنا الصالح بذلك، بل كانوا يدربون الأولاد منذ صغرهم على كيفية الكسب وكيفية الإنفاق، وكيفية إدارة الأعمال، فكانوا يؤسسون النشء على القيم الإيمانية والأخلاقية، وفوق هذا الأساس تكون النواحي الأخرى، ومنها الاقتصادية، وكان هناك تفاعل بين هذه النواحي جميعا، بما تكون حصيلته الشخصية الإسلامية المتكاملة إيمانيا وسلوكيا واقتصاديا، وهذا ما سوف نوضحه في الصفحات التالية.

● التربية الإيمانية للأولاد وأثرها على سلوكهم الاقتصادي:

يجب أن نغرس في معتقدات أبنائنا منذ الصغر بعض المفاهيم الإيمانية ذات الطابع الاقتصادي، منها على سبيل المثال:

- أن المال الذي معنا ملك لله، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي رزقنا إياه، لذلك يجب أن نحب الله ونعبده لأنه

صاحب هذا المال.
- أن هناك ملائكة تراقب تصرفاتنا ومنها الاقتصادية والمالية، ولذلك يجب أن نتجنب أن تسجل الملائكة في سجلاتنا شيئا لا يرضاه الله.
- أن هناك آخرة سوف نقف فيها أمام الله سبحانه وتعالى ليحاسبنا عن هذا المال، من أين اكتسب وفيما أنفق؟
وهذه المفاهيم الإيمانية الاقتصادية تنمي عند الأولاد منذ الصغر: الرقابة الذاتية، والخشية من الله والخوف من المساءلة في الآخرة... فإذا شب الولد على هذه القيم وطبقها في جوانب حياته كان فردا مستقيما منضبطا بشرع الله في كل معاملاته، ومنها الاقتصادية، ويعتمد عليه فيما بعد لإدارة اقتصاد بيته واقتصاد بلده على أسس إيمانية.

● التربية الأخلاقية للأولاد وأثرها على سلوكهم الاقتصادي:
يجب أن ننمي عند الأولاد منذ الصغر الأخلاق الفاضلة، ونبرز لهم آثارها الاقتصادية على سلوكهم، ومن هذه القيم: الصدق والأمانة، والاعتدال والقناعة، والوفاء، وحسن المعاملة، والسماحة والبشاشة وطلاقه الوجه، كما نحذرهم من السلوكات المنهي عنها شرعا، ومنها: الإسراف والتبذير، والإنفاق الترفي والبذخي، وتقليد الغير فيما نهي الله عنه، والغش والتدليس، وكل صور الاعتداء على أموال الناس.
كما يجب أن نفهم أولادنا أن الالتزام بهذه القيم جزء من الدين، وأنه عبادة وطاعة لله سبحانه وتعالى، وأن من يلتزم بالأوامر ويتجنب ما نهي الله عنه يكون له ثواب، ومن لم يلتزم فإنه يناله من الله العقاب.
كما يجب أن نفهم أولادنا بأن الالتزام بالأخلاق الفاضلة له أثر مباشر في تحقيق البركة في الأرزاق، وتحقيق الأمن النفسي، والرضا الذاتي، بالإضافة إلى الثواب العظيم المدخر لنا يوم القيامة، كما يجب أن يؤمنوا إيمانا راسخا أنه لا يمكن الفصل بين الأخلاق والاقتصاد.

● التربية السلوكية الاقتصادية الإسلامية للأولاد (الواجب شرعا):
سوف ينجم عن التربية الإيمانية والتربية الأخلاقية لأولادنا سلوكات اقتصادية سليمة تحقق البركة والرضا والإشباع المادي والمعنوي، وزيادة الأرزاق، ويمكن تلخيص هذه السلوكات في الآتي:
- الاعتدال في النفقات وتجنب الإسراف والتقتير، ولذلك يجب أن نعرف الأبناء ما هو الاعتدال، وحدوده في المصروفات المختلفة، ومن ناحية أخرى عند تقدير المصروفات الشخصية للأولاد، يجب عدم المغالاة فيها فوق الاعتدال، حتى لا نشجعهم على الإسراف، والذي يقود إلى مفاسد الأخلاق ثم الانحراف.
- الإنفاق حسب السعة والمقدرة، ففي وقت الرخاء ندرب الأولاد على الادخار للمستقبل، ونزودهم بالوسائل والأساليب المشجعة على ذلك، ومن ناحية أخرى يجب أن نربيهم على القناعة والتقشف وقت الأزمات، ونبين لهم أن هذا كله بقدر الله سبحانه وتعالى، ونقص عليهم كيف كان سلوك رسول الله ﷺ وقت الأزمات.
- ادخار الفائض لوقت الحاجة والفقر، من الأهمية أن نربي أولادنا على أن الله سبحانه وتعالى هو الباسط والمقدر للأرزاق، أحيانا يكون هناك سعة في الرزق، وأحيانا يكون هناك ضيق في الرزق، وتأسيسا على ذلك يجب على الأولاد عدم الإسراف وقت السعة، ويجب عليهم الادخار لوقت الحاجة.
- استثمار المدخرات وفق شرع الله عزوجل، بعيدا عن الربا والخبائث، من الأهمية أن نفهم أولادنا منذ الصغر أن فوائد البنوك والمصارف والقروض هي عين الربا المحرم شرعا، وأن البديل هو استثمار الأموال عن طريق المصارف الإسلامية وأن من يتعامل بالربا ملعون من الله ورسوله، ويمحق الله رزقه ويعلن عليه الحرب.
- ترتيب النفقات وفق الأولويات الإسلامية، وهي الضروريات فالحاجيات فالتحسينات، فعندما يطلب الولد شيئا في مجال الكماليات، وهو في نفس الوقت محتاج إلى شيء آخر في مجال الضروريات.. فإننا حينها نعطي الأولوية للضروريات ثم يلي ذلك الحاجيات فالكماليات، ونشرح له المبرر لذلك.
- الصبر والتقشف وعدم الضجر وقت الأزمات، يجب أن نفهم أولادنا أن الله سبحانه وتعالى له حكمة في تضييق الأرزاق، ومنها التربية على الصبر والرضا والقناعة، كما يجب أن نعطي لهم النماذج في صورة قصص من حياة الرسول ﷺ والصحابة.. ماذا كانوا يفعلون وقت الأزمات.. إن هذا النوع من التربية يعد الأولاد منذ صغرهم على التضحية والجهاد.
- الكسب الحلال الطيب، يجب أن ينشأ الولد الصغير على الكسب الحلال الطيب من عمل يده خلال فترات الإجازات، وهذا يتطلب من والديه وإخوته الكبار تدريبه على بعض الأعمال التي تناسب سنه، ويتعلم مهنة، سواء مهنة والده أو أي مهنة أخرى، كما يجب أن نفهمه بأن العمل عبادة وشرف وقيمة، واليد العليا خير من اليد السفلى، فإن تعويد الطفل على الكسب منذ الصغر يعالج مشكلة البطالة عند الكبر.
- الشورى في أمور البيت، ومنها المالية، يجب أن نربي أولادنا منذ الصغر على كيفية المساهمة بآرائهم في النفقات، ونشعرهم بالمسؤولية، بل ننصح بأن ندربهم على كيفية إدارة ميزانية البيت.
إن تربية الأولاد على هذه السلوكات الاقتصادية الإسلامية يقود إلى إعداد أجيال قادرة على إدارة اقتصاد البيت والشركة والمؤسسة والدولة، على أسس الاقتصاد الإسلامي الذي يهدف إلى تحقيق الخير في الدنيا ولآخرة.

● سلوكات اقتصادية منهي عنها شرعا:
إن من يراقب سلوكات بعض أولادنا الاقتصادية يجد أن بعضها بل

معظمها منهي عنه شرعا، وللأسف لا نهتم بها، أو لا نعبأ بذلك، بل نجد بعض الآباء يزكون تلك السلبيات من باب العاطفة والتدليل.. وتكون من أخطر أبواب المفاسد عقديا وأخلاقيا وسلوكيا على الأولاد في الحاضر والمستقبل.

لذلك فإنه من الأهمية أن نربي أولادنا على ضرورة تجنب هذه السلوكات السيئة ويكون الباعث والحافز والدافع على تجنبها نابعا من ذواتهم، وهو عبادة الله وطاعته، وحبا وامتثالا لرسوله ﷺ، وكذلك حبا للوالدين، ومن بين هذه السلوكات المنهي عنها شرعا ما يلي:

– سلوك الإسراف: وهو الإنفاق فوق الحد المعتدل المباح شرعا، فأحيانا نجد بعض الآباء يعطون الأولاد من المصروفات ما يزيد عن الاعتدال والقوام، فيجعل الولد يسرف، ويعتاد الإسراف... بل وينشأ على الإسراف، وفي هذا إثم على الوالدين، ولا يجوز أن تطغى العاطفة والحب والتدليل على شرع الله، بل يجب أن يربى الأولاد على أن الله سبحانه وتعالى لا يحب المسرفين، وأن هؤلاء المسرفين هم أصحب النار، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١)، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(غافر:٤٣)، والواقع العملي الذي نعيشه نجد فيه أن معظم الأولاد المنحرفين كانوا في صغرهم من المسرفين، وأن آباءهم هم السبب في ذلك، بل قلدوا آباءهم.

– سلوك التبذير: ويقصد به الإنفاق على المحرمات والخبائث التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، مثل الإنفاق على السجاير ونحوها، وشراء الأشرطة المخلة بالآداب، والإنفاق على شرب الخمور والمخدرات والمسكرات، وشراء الأفلام السينمائية السيئة ذات الطابع الجنسي.. ولعب القمار والميسر، وممارسة البغاء.. وكل صور الفواحش، ما ظهر منها وما بطن... يجب أن نفهم أولادنا بأن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن التبذير بكافة صوره، كما ورد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾(الإسراء:٢٦-٢٧)، كما حذر رسول الله ﷺ من التبذير فقال: «وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(متفق عليه).

إن من يتدبر أحوال الأولاد الفاسدين يجدهم من المبذرين فعلا، ويصاحبون قرناء الشيطان في المقاهي والنوادي، وعلى قارعات الطرق، بل إن معظم حوادث سيارات الشباب من المفسدين.

يجب على الآباء أن لا تأخذهم رأفة أو عاطفة في منع أولادهم عن سلوك التبذير، وإن لم يفعلوا فسوف يصيبهم عاقبة ذلك من الشرور والمصائب والذنوب.

– سلوك الترف والبذخ: ويقصد به الإنفاق من أجل التظاهر والتعاظم والمباهاة والتعالي.. حتى يقال: إن ابن فلان يلبس كذا.. ويركب كذا.. إن هذه تربية فاسدة للأولاد تقود إلى الانحراف والبعد عن طريق الله العظيم المتعال، إن تربية الأولاد على الترف والبذخ والتدليل يكون سببا إلى الفسوق والعصيان وتدمير حياتهم وحياة أسرهم، بل وتدمير المجتمع، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء:١٦)، ولقد نهى رسول الله ﷺ عن الترف والبذخ والمظهرية والتدليل، فقال: «إياكم والمخيلة، ولا تلام على كفاف»(رواه ابن ماجه).

والأدهى والأمر أن نجد الوالد يعاني من عجز في ميزانية البيت، ويقترض ليترف أولاده، تحت دعوى العاطفة والحب.. فهذا السلوك خاطئ شرعا، ولا يجوز أن نرضي الأولاد في معصية الله عز وجل.

– سلوك التقليد المخالف لشرع الله: من السلبيات المنتشرة ولاسيما بين أولادنا هو التقليد الأعمى للعادات والتقاليد المستوردة من المجتمعات غير الإسلامية، وتتعارض مع قيمنا الإيمانية والأخلاقية، هي مخططة لأولادنا لطمس هويتهم الإسلامية، بل نجد بعض الآباء يتفاخرون بهذا السلوك المنهي عنه شرعا، والذي يقود في النهاية إلى البعد عن سنة رسول الله ﷺ، وقد حذرنا منها فقال: «لتتّبعن سنة من كان قبلكم باعا بباع، وذراعا بذراع، وشبرا بشبر، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه، قالوا: يا رسول الله اليهود، والنّصارى؟ قال: فمن إذن»(رواه ابن ماجه).

يجب على الآباء تفهيم الأولاد منذ النشأة على أن تقليد اليهود والنصارى في عاداتهم التي تخالف شرع الله فيها إثم ومعصية، ويجب ألّا تتغلب العاطفة الجياشة والحنان على الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، وأن نقنعهم بأن المسألة ليست سهلة بل خطيرة.. ولابد أن نربي أولادنا على الهوية الإسلامية والاعتزاز بها.

– سلوك اتباع هوى النفس: أحيانا يصل تدليل الأولاد إلى درجة أن كل ما يطلبونه يجاب فورا، حتى لو كان ذلك على حساب الضروريات والحاجيات: «وليس كل ما تشتهيه النفس يشترى»، بل نجد أحيانا بعض الآباء يقومون بالاقتراض لشراء كماليات وترفيات لأولادهم، من باب العاطفة والحنان.. ويشب الأولاد على ذلك السلوك السيئ، ويكون من مضاعفاته الوقوع في مشاكل الاقتراض والتعامل بالربا وأحيانا السرقة والرشوة.

يجب على الآباء كبح هوى نفوس أولادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالأدلة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ويمكنهم الاستعانة بقصص أولاد الصحابة رضوان الله

عليهم، كيف كانوا متقشفين يعيشون على الأسودين، وليكن لهم في بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء الأسوة الحسنة، والتي كانت تدير الرحى من أجل الدقيق، ورفض رسول الله أن يعطيها خادما.

– سلوك عدم القناعة: يجب أن نربي أولادنا على القناعة والرضا بما قسمه الله سبحانه وتعالى من رزق، والإيمان الراسخ بأن الله سبحانه وتعالى هو مقدر الأرزاق، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(هود:٦)، ولقد أشاد الرسول ﷺ بالقناعة فقال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه»(رواه مسلم)، وقال: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»(رواه البخاري).

ففي وقت الأزمات وضيق الحال يجب أن نقنع أولادنا بأن هذا من قدر الله، ولابد من الصبر والتحمل، لا أن نكلف أنفسنا ما لا نطيق، فقد قال الله عزوجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق:٧) وقال ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا»(رواه الطبراني).

وعلى الأولاد الراشدين ألا يحملوا آباءهم ما لا يطيقون، وأن لا يصيبهم الضجر والصخب بسبب ضيق الرزق، بل يجب عليهم الالتزام بشرع الله سبحانه وتعالى في المكره والمنشط، وفي السراء والضراء، وفي الرخاء والكساد، فالله سبحانه وتعالى هو مقدر الأرزاق، وكان سيدنا محمد ﷺ القدوة الحسنة في ذلك.. فكان يمر الهلال تلو الهلال ولا يوقد في بيته نار، وكان يعيش على الأسودين، كما أنه حوصر حصارا اقتصاديا في شعب مكة ثلاث سنوات، ولم يستسلم ولم يضجر هو ومن آمنوا معه، فعن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل يلتوي ما يجد دقلا يملأ به بطنه»(رواه مسلم).

يجب أن نربي أولادنا على القناعة والرضا وقت الأزمات، فهذا من موجبات التربية الجهادية التي ننشدها.

● وجوب تعليم أولادنا الآداب السلوكية الاقتصادية الإسلامية:

إن من يتصفح ما يدرس لأولادنا في المدارس والمعاهد والكليات الاقتصادية يجده بعيدا كل البعد عن التربية الاقتصادية الإسلامية المستمدة من مصادر الشريعة الإسلامية، بل يدرس لهم السلوك الاقتصادي الأميركي والسلوك الاقتصادي الاشتراكي.. وليس هناك أي إشارة إلى السلوك الاقتصادي الإسلامي..وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا أولادنا بعيدين كل البعد عن إسلامنا، وهذا ما نعانيه الآن من انحرافات إيمانية وأخلاقية وسلوكية واقتصادية، ولقد محقت البركة من كل شيء، لقد شاع في معاملاتنا كل الموبقات الاقتصادية ومنها: الغش والربا والرشوة والسرقة، والإسراف والتبذير والإنفاق الترفي، والقروض بفائدة، وأكل أموال الناس بالباطل.. ومن الأسباب الرئيسية لذلك هو أن أولادنا قد تربوا تربية اقتصادية غير إسلامية، ونهلوا من الشرق والغرب المفاهيم الاقتصادية الخاطئة التي تخالف عقيدتنا وأخلاقنا.

لذلك يجب على الآباء أن يعوضوا ويعالجوا الخلل في التعليم الاقتصادي الإسلامي بالاهتمام بأولادهم في البيت، ويجب أن يكون السلوك الاقتصادي للأب وللأم مشروعا، مطابقا لأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، وأن يورثوا هذا السلوك لأولادهم، فهم مسؤولون عنهم أمام الله عز وجل.

كما يجب على الخطباء والوعاظ في المساجد أن يهتموا بالدعوة إلى الالتزام بالسلوك الاقتصادي الإسلامي، باعتباره جزءا من سلوك المسلم القويم، وبهذا ينصلح الفرد والبيت، وهذا يقود إلى إصلاح المجتمع، كما يجب ربط المفاهيم والتعاليم بالأفعال والأعمال، وأن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

● وصايا اقتصادية إسلامية:

● أن تؤمن بأن المال الذي بأيدينا ملك لله سبحانه وتعالى والبشر مستخلفون فيه، وأن الرزق بيد الله، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها.

● أن تؤمن بأن هناك محاسبة أخروية يحاسبنا الله سبحانه وتعالى عن المال من أين اكتسب وفيما أنفق.

● أن تعمل في مجال الحلال الطيب حتى يكون كسبك حلالا طيبا، وأن تؤمن بأن العمل عبادة وشرف وقيمة، واليد العليا خير من اليد السفلى.

● أن تلتزم بشرع الله في جميع معاملاتك، يبارك الله لك في عملك ورزقك وعمرك، فالدين المعاملة.

● اتق الله وتجنب المعاملات المنهي عنها شرعا، مثل الإسراف والتبذير والإنفاق الترفي وتقليد الغير، فيما نهى الله عنه، والتقتير والربا، حتى لا تحرم البركات.

● تجنب التعامل مع أعداء الدين المحاربين، فالتعامل معهم خيانة للدين وللوطن، واحرص أن تتعامل مع المؤمنين، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض.

● أن تتقن الأخذ بالأسباب لجلب الأرزاق، مع حسن التعامل مع الناس، وصدق التوكل على الله، يرزقك الله من حيث لا تحتسب.

● أد زكاة مالك، فهي فريضة شرعية، وضرورة اجتماعية، وحاجة إنسانية، وطهرة للقلب والمال والمجتمع، وما نقص مال من صدقة.

● طهر مالك من الحرام، حتى تلقى الله سبحانه وتعالى طاهرا زكيا وقد غفر لك.

● أكثر من الدعاء والاستغفار، لأنهما من موجبات البركة في الأرزاق.

رئيس مجلس المؤسسة العربية للقيم المجتمعية:

نسعى إلى نشر القيم الإيجابية في العالم

د. زهير المزيدي

حوار: نشوة صالح

رأى رئيس مجلس إدارة المؤسسة العربية للقيم المجتمعية في الكويت د. زهير المزيدي، أن الحاجة ملحة للغاية لتضافر جميع الجهود لمعالجة الظواهر المجتمعية السلبية التي تظهر في العالم العربي، مشيرا إلى أن المؤسسة، التي يترأس إدارتها، تهتم بجانب دعم القيم الإيجابية في المجتمعات العربية، لافتا إلى أن المؤسسة لها أفرع في العديد من الدول العربية والغربية.

وقال د. المزيدي لـ«الوعي الإسلامي» إنه يجب تحصين الشباب العربي من أي ظواهر سلبية لا تتفق مع العادات والتقاليد الإسلامية، مطالبا الشباب العربي بضرورة الاطلاع على كل الأفكار، الإسلامية والليبرالية؛ ليصل الشاب إلى مبتغاه عن حجة واقتناع، خصوصا أن الإسلام يأمرنا بالعقل والتفكر.

وذكر د. المزيدي أنه يجب الاستفادة من كل القيم السائدة في العالم المعاصر من دون التركيز على قيم بعينها. والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

● بداية.. نود أن تعطينا لمحة عن المؤسسة العربية للقيم المجتمعية؟

– المؤسسة العربية للقيم المجتمعية وقفها غير ربحي، تأسست عام ٢٠٠٨، وتعمل على نطاق دولي، ومقرها دولة الكويت. ولدى المؤسسة منهج فريد في تفعيل القيم وممارستها مكون من سبعة كتب، وتم اعتماد المنهج في أكثر من ١٧٠ جامعة ومؤسسة تعليمية حول العالم. ولدى المؤسسة أفرع في الكويت واليمن والبحرين والإمارات وماليزيا وتركيا ولبنان وبريطانيا وأمريكا. وجار تفعيل فروع أخرى.

● وما الحكمة من التركيز على جوانب القيم الاجتماعية؟

– الحكمة من تركيزنا على جوانب القيم المجتمعية أن المجتمعات في حاجة دائما إلى عناية، خصوصا أن المجتمعات تصاب ببعض الأمراض، وبالتالي تأتي الحاجة إلى علاج هذه الأمراض، ومن هنا جاءت فكرة التركيز على القيم المجتمعية؛ للإسهام في علاج أي ظواهر سلبية تعاني منها المجتمعات العربية.

● وهل أجريتم دراسات ميدانية توضح مدى تأثر المجتمعات العربية ببعض الظواهر السلبية؟

– المؤسسة في العام ٢٠٠٧ أجرت دراسة ميدانية على مستوى دول مجلس التعاون الخليجي، وكان السؤال الأبرز المطروح فيها: هل هناك خلل قيمي في هذه المجتمعات؟ ومع شديد الأسف، كانت النتائج مخيفة ومزعجة جدا، حيث أكدت وجود ظواهر سلبية عديدة، مثل: التدخين وانتشار المخدرات، على الرغم من أن هذه المجتمعات إسلامية ترفض هذه القيم الدخيلة.

● برأيكم كيف يمكن حماية قيم الشباب العربي من التيارات الفكرية الغربية التي تغزوه في عقر داره؟

– لا بد أن نقر أولا بأنه من الصعب أن ننأى بأنفسنا عن المجتمعات المتحضرة، خصوصا في هذا العصر المفتوح بعضه على بعض. والمطلوب حتى نحصن شبابنا من أي أفكار هدامة لا تتوافق مع معتقداتنا هو بناء الشخصية العربية بالصورة الصحيحة، حتى تستطيع أن تفرز كل ما يدخل في مجتمعاتنا، بحيث يُستفاد من الإنجازات والاكتشافات العلمية في المجتمعات الأوروبية، وفي الوقت نفسه تُرفض الأفكار الشاذة التي لا تتفق نهائيا مع عاداتنا وتقاليدنا وديننا، فمثلا: الحرية لا تعني أن يخرج الإنسان من بيته بلا ملابس ويدعي أن هذه هي الحرية. ولذا،

لا بد من الاستجابة إلى كل ما ينفعنا، ورفض ما لا يتفق معنا، مثل الشذوذ الجنسي وغيره من الأمور المرفوضة، دينا وعرفا، في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

● هل تركزون في برامجكم على القيم المجتمعية المبنية على الأسس الإسلامية فقط أم تستفيدون من آراء المفكرين من الدول الأجنبية الأخرى؟

– نحن نستفيد من القيم الإيجابية من كل المفكرين، سواء علماء الإسلام أو غيرهم من أهل الديانات الأخرى، لأن هناك قيما إيجابية مشتركة لكل البشر، فالمسلم له قيمه التي تحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، ولليهودي والمسيحي والهندوسي والبوذي قيمه الإيجابية. ولذلك، لا بد من الاستفادة من منظومة القيم الشاملة، لأن فعل الخيرات ليس مقصورا على المسلمين فقط، فأحيانا نجد أهل الديانات الأخرى يسارعون في إغاثة وتقديم الخير للشعوب التي تتعرض إلى الزلازل أو إلى طغيان البحور. ولذلك، نحن نستفيد من كل القيم من كل البشر من دون التركيز على دين معين.

● أترى ضرورة أن يتم اكتشاف الأبناء الذين يتمتعون بالمواهب الإبداعية في عالمنا العربي؟

– هذا هو المطلوب، فمثلا أديسون كان يعاني من خلل تعليمي، وطُرد من التعليم أكثر من مرة، وهو الشخص نفسه الذي أضاء الدنيا بالمصابيح! ومن أجل الاهتمام بأصحاب الإبداعات فنحن في المؤسسة العربية للقيم المجتمعية تعاقدنا مع مركز صباح الأحمد للموهبة والإبداع، خصوصا أن هذا المركز يولي أهمية كبرى بالأطفال والشباب والكبار المبدعين والموهوبين. ولذلك، تم اعتماد برامجنا مع برامج هذا المركز من أجل تنمية مهارات المبدعين والموهوبين.

● الصراعات الليبرالية– الإسلامية في محيط الأمة العربية هل أشغلت رجال الدعوة الإسلامية عن دورهم الأساسي في تعزيز الأخلاق والقيم لدى الشباب العربي؟

– أنا مع البحث والنقاش والاطلاع على كل الأفكار، سواء الإسلامية أو الليبرالية، لأن الإنسان لا بد أن يصل إلى الحقيقة عن فكر وعقل ويقين، لأن هناك كثيرا من الأمثلة في القرآن الكريم تطلب من المسلم أن يعتمد على عقله، مثل: «أفلا تعقلون؟» «أفلا تتفكرون؟».

● انتشرت الثورة المعلوماتية في العصر الراهن، خصوصا الإنترنت بما تتضمنه من مواقع إيجابية وسلبية.. فهل سلبياتها أقوى من إيجابياتها؟ وكيف يمكن أن نحصن الشباب العربي من الوقوع في فخ المواقع غير الأخلاقية؟

– أنا ضد غلق الإنترنت، أو أن «يتعنت» الأب ويمنع كل وسائل الثورة المعلوماتية عن أولاده؛ خوفا من أن يطلعوا على المواقع الإباحية، وأرى أن الأفضل من ذلك أن يربي الأب أولاده على القيم التي تدفع الابن من تلقاء نفسه إلى رفض كل ما يتعارض مع قيمه وأخلاقه ودينه.

● بما أن المؤسسة العربية للقيم المجتمعية لها أفرع في الدول العربية والأجنبية، فهل يمكن أن تكون هذه الأفرع حلقة وصل لنشر القيم المجتمعية بقوة في هذه الدول؟

– نحن نتعامل مع هذه الدول عن طريق تحفيزهم للإسلام بأسلوب هادئ، فمثلا نقول لهم إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليس الإرهاب، ونبين لهم كيف أن الإسلام يعلمنا كيف نتقرب إلى الله الخالق بالحسنى بعيدا عن التطرف والمغالاة.

● إلى أي مدى يمكن أن تؤدي الأسرة دورا في تعزيز قيم وأخلاقيات الأطفال؟ وهل للتفكك الأسري دور في ضياع الأبناء في متاهات الانحرافات السلوكية؟

– طبعا، الأسرة نواة المجتمع، حيث يتم من خلالها غرس القيم. ولذلك، فللوالدين الدور الكبير في تنشئة أولادهم، فالأب إذا لم يهتم بأولاده فمن الطبيعي أن أولاده سوف يتعرضون إلى سلوكيات انحرافية نتيجة غياب دور الأب، أو الأم، أو كليهما معا.

● خطبة الجمعة والبرامج الدينية كيف يمكن الاستفادة من هذه الجوانب في تقوية الوازع الديني لدى الأجيال الصاعدة؟

– وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تقوم بجهود مشكورة وملموسة، ومع هذا فنحن نأمل منها أن تخطو خطوات أخرى إلى الإمام، منها تطوير الخطاب الديني وتطوير أداء خطيب الجمعة. ولا بد في هذا الجانب من أن يتعرف رجل الدين على جميع مشاكل المجتمع لتتسنى له معالجتها من خلال دروس المسجد، مع ضرورة ألا تقتصر خطبة الجمعة على أعمال الصلاة والصيام والحج فقط، فإذا كانت هذه الأمور مهمة للغاية فإن على خطيب المسجد في الوقت نفسه أن يسعى إلى حل مشاكل الشباب بالطرق التي يفهمها الشباب في هذا العصر.

● هل مشاهدة الأطفال في العصر الراهن لمشاهد القتل والترويع في مختلف الفضائيات يمكن أن تجنح بهم نحو العنف؟

– يجب أن تتضافر كل الجهود من أجل حماية أبنائنا من أي مؤثرات تدفعهم نحو السلوكيات العدوانية، خصوصا أن مشاهد العنف تلعب دورا كبيرا في جنوح الأبناء نحو الجريمة، ويجب على الأسرة هنا إبعاد أطفالها عن مشاهد العنف هذه حتى لا ترتسم في مخيلاتهم.

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الإنتاج الثقافي على يد المتطوعين

إعداد : علاء عبدالفتاح

في عام ١٩١٤ ميلادية، زار أحد طلاب مدرسة الحقوق الخديوية زميله طالب مدرسة المعلمين العليا في بيته في حي البغالة في القاهرة.. تحدثا عن مشروع ثقافي مشترك.. عن شمعة يشعلانها بدلا من أن يلعنا الظلام. سأل طالب الحقوق طالب المعلمين: «ماذا ترى في أن نؤلف جمعية لخدمة العلم والتعليم؟». بعد عشرين عاما اجتمع الزميلان يوسف الجندي ومحمد فريد أبو حديد مع من شاركوهما وأسسوا ما يسمى بـ«لجنة التأليف والترجمة والنشر»، ومنهم أحمد أمين (الذي تم انتخابه رئيسا للجنة) وعبدالحميد العبادي ومحمد كامل سليم وغيرهم، تلك اللجنة التي قدمت للعالم العربي والإسلامي كتبا مهمة، منها على سبيل المثال: تاريخ الأدب العربي للزيات وفلسفة ابن خلدون لطه حسين وابن الخياط وترجمات مبادئ الفلسفة وعلم الأخلاق وكتاب الأخلاق وآلام فارتر وغيرها.

والآن بعد مضي قرن من الزمان، نتوقف عند هذه المبادرة التاريخية المنتجة، كي نستقي من تاريخنا الحديث معنى يشجعنا الآن على مثل هذا العمل الذي تم بجهود ذاتية وإخلاص ودأب ودقة، فأسفر عن مطبعة ومئات الكتب، التي اعتمد عليها آلاف الباحثين في استكمال أبحاثهم، بينما تخرج الملايين من الطلاب على تلك المناهج والعلوم والمعارف.

ويذكر أحمد أمين، رئيس اللجنة من ١٩١٤ حتى وفاته ١٩٥٤، في مقدمة كتيب أصدرته اللجنة بمناسبة مرور عشرين عاما على نشاطها، أنه في سنة ١٩١٣ كان في مدرسة المعلمين العليا، بدرب الجماميز، طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه. وقد نبتت هذه الفكرة عندهم على إثر حرب البلقان، ومطالعتهم كتبا تثير هذه المعاني في النفوس، مثل «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» للكواكبي.

المؤسسون

ويضيف أمين أسماء المؤسسين الأوائل خلال سرده فيقول: وهناك في «زاوية البقلي» في أحد اجتماعاتهم اعتزموا تكوين لجان منهم للقيام بأعمال مختلفة، أحدها «للتأليف والترجمة والنشر»، وهذا هو السبب في تسميتها «لجنة» لا جمعية ولا غيرها.

وفي هذه الأثناء، اتصلوا ببعض إخوانهم في مدرسة الحقوق فساهموهم هذه الأفكار، وتطوعوا للعمل وبذل الجهد في تنفيذها. وكان من أظهر أفراد هذه الجماعة، وأول الداعين إلى هذه الأفكار، وأشدهم حماسة ونشاطا، الطلبة: محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبدالسلام الكرداني، ومحمد عبدالواحد خلاف، وأحمد زكي، وحسن مختار رسمي، ويوسف أحمد الجندي، ومحمد فريد أبوحديد، ومحمد عبدالباري. ويوضح التطور الثاني للجنة الحديثة التكوين (وهنا نلاحظ اختلافا يسيرا بين التفاصيل هنا والتفاصيل التي ذكرها محمد فريد أبوحديد سابقا)، فيقول: فلما تخرج أكثر هؤلاء في مدرستي المعلمين والحقوق سنة ١٩١٤ وسنة

الدكتور أحمد زكي
أستاذ الكيمياء ووكيل كلية العلوم

أحمد بك أمين
المستشار بمحكمة النقض والإبرام

الدكتور عبد الوهاب عزام
مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري
أستاذ القانون المدني بكلية الحقوق
بالجامعة المصرية سابقاً

محمود تيمور
الكاتب القصصي

١٩١٥، عقدوا النية على أن يتموا رجالا ما بدأوا به طلبة. واتصل بهم وقتذاك بعض إخوانهم ممن يميلون ميلهم ويشعرون شعورهم، ومن هؤلاء: محمد كامل سليم، وأمين مرسي قنديل، وعبدالحميد العبادي، ومحمد بدران، وعبدالحميد فهمي، ومحمد صبري أبوعلم وأحمد أمين.

أول المؤلفات

وكان أول ما عملوا أن عهدوا إلى الأستاذين أحمد زكي وأحمد عبدالسلام الكرداني تأليف كتاب في الكيمياء للمدارس الثانوية، وإلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي تأليف كتاب في الطبيعة، وإلى الأستاذين محمد خلف وعبدالحميد فهمي تأليف كتاب في الحساب، وإلى الأستاذين محمد كامل سليم ومحمد بدران تأليف كتاب في الجغرافيا. وقد نفذت كل المشروعات ما عدا الثاني منها.

الميزانية ١٠ قروش

اجتمع الأعضاء سنة ١٩١٥ في المدرسة الإعدادية في العباسية، لأن كثيرا من أعضاء اللجنة كانوا مدرسين فيها، فقرأوا القانون، وأدخلوا عليه بعض التعديلات، وانتخبوا أعضاء مجلس الإدارة، وبدأ الأعضاء يدفع كل منهم عشرة قروش في الشهر، ثم جعلت مالية اللجنة أسهما، كل سهم ثمنه جنيه، وهذا بدء التكوين المالي للجنة، ولم يكن يزيد عدد الأعضاء إذ ذاك عن خمسة عشر عضوا.

ولما أنشئت نقابة المعلمين استأذنتها اللجنة في أن تجتمع فيها، فأذنت. وكانت الجمعية العمومية لها تنعقد في إحدى المدارس الأهلية، كالإعدادية ووادي النيل.

واللجنة لم تكن تستطيع أن تستأجر مكانا تخزن فيه كتبها، فكان كل مؤلف يخزن كتابه في بيته، ويبيع منه بالطلب، ويعمل حسابه بنفسه ويقدمه إلى اللجنة.

بعد سنوات سعت اللجنة لدى وزارة المعارف لكي تمنحها مبلغا من المال للاستعانة به في تأليف الكتب القيمة وترجمتها ونشرها، وقد نجحت خلال ٢٠ عاما في أن تخرج للناس نحو ستين كتابا بين مؤلف ومترجم ومنشور، تسد كلها حاجات الثقافة في أطوار التعليم المختلفة، كما أنها تغتبط بثباتها في مركزها وحصرها نفسها في الدائرة التي رسمتها لنفسها من أول أمرها، فلم تتدخل في مجالات دينية، ولم تغامر في نواح سياسية، إيمانا منها بأن الثقافة ونشرها وسيلة من أكبر الوسائل لرقي الأمة، ومن أكبر عوامل الإسراع في نهضتها.

ثم يحدثنا أحمد أمين بأن اللجنة بدأت مرحلة أخرى من مراحلها، بدايتها تكوين مطبعة مستقلة لها، تساعدها على تحقيق غرضها، فيزيد نتاجها، ويتضاعف مجهودها. وقد أسست -فعلا- المطبعة، وبدأت تخرج الكتب التي ترى اللجنة نشرها، وهذا -بلا شك- تتطلب من اللجنة بذل مجهود أكبر في التأليف والترجمة.

المؤلف المجهول

يقول د. محمد عوض محمد: إذا طالعنا أسماء الكتب التي أخرجتها اللجنة، فإن الكثرة العظمى من كتبها لا تكاد تسترد نفقات طبعها إلا بعد زمن غير قصير. وكثير منها يتناول موضوعات علمية دقيقة لا يهتم بها غير طبقة محدودة من القراء، وكثير من هذه الكتب لمؤلفين لم تنشر لهم كتب من قبل.

إن السنة الحميدة التي استنتها اللجنة أن تعامل الناشئ والمؤلف الشهير معاملة واحدة، وأن تكيل لهما بمكيال واحد. لقد جُعلت اللجنة كعبة المؤلف المجهول، وعماده الذي يستند

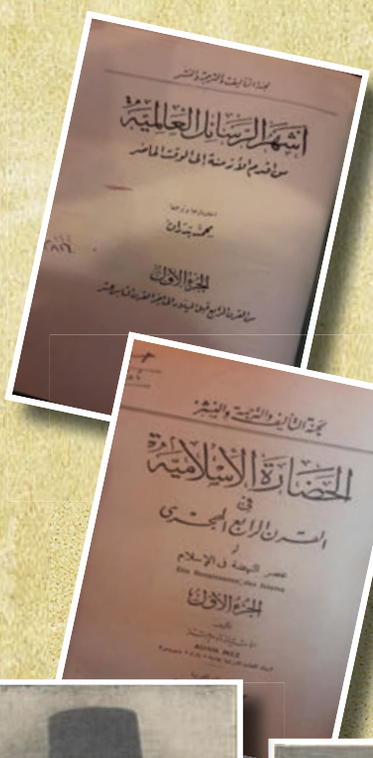

محمد عبد الواحد خلاف
مدير إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية

الشيخ أمين الخولي
مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

إليه لكي يظهر من تحت تلك الغمرات التي تطغى عليه، وإن علمه بوجود اللجنة وباستعدادها لمساعدته يحفزه إلى العمل وإلى الكتابة والتأليف، وهو موقن أن في هذا العالم الجائر ركنا سيلقى منه النصفة والمعونة.

كتب الفلسفة

ويذكر أحمد حسين الطماوي في مقال له تحت عنوان «لجنة التأليف والترجمة والنشر... نموذج جاد للعمل الجمعي بين المثقفين»، كيف أن اللجنة اهتمت بكتب الفلسفة، ترجمة وتأليفا، مثل كتاب «قصة الفلسفة الحديثة» لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، و«تاريخ الفلسفة الغربية» لبرتراند راسل، الذي ترجمه زكي نجيب محمود، ويعرض فيه لأفكار كبار الفلاسفة، ويتمهر مؤلفه في ربط هذه الأفكار بعضها ببعض، و«تاريخ الفلسفة في الإسلام» وهو من تأليف ديبور، وترجمة د. محمد عبدالهادي أبوريدة، ويتناول تاريخ الفلسفة بإيجاز، ويبين الأطوار التي مرت بها، وأشهر الفلاسفة المسلمين، وكتاب «إبراهيم بن سيار النظام» وهو من تأليف أبوريدة، ويشرح فيه آراء النظام في الفلسفة الكلامية، ونشأة الفكر العقلي عند العرب، وكتاب «المدخل إلى الفلسفة» وهو من تأليف ازفلد كوليه، وترجمة د. أبوالعلا عفيفي، وهو عبارة عن مقدمة وافية، تعرف القارئ بالفلسفة، ومجالاتها، ومشكلاتها في متباين الأزمنة، وكتاب «محاورات أفلاطون»، وهناك كتب أخرى في هذا المجال.

«قصة الحضارة»

ويضيف الطماوي: من كتب التاريخ «قصة الحضارة» الذي وضعه ول ديورانت، وترجمه عديدون، منهم محمد بدران ود. زكي نجيب محمود. والكتاب يتناول في أجزائه الكثير من العلوم والآداب، والأخلاق، والإصلاح الديني في أوروبا. وكتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين»، وهو من تأليف حافظ وهبة، الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية، ويتناول قضايا عديدة، منها الحالة الاجتماعية لبلاد العرب، والدعوة الوهابية ونشأتها، وآل سعود وتاريخهم... وغير ذلك. وكتاب «رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة»، وهو كتاب تراثي من تأليف ابن الفراء، وتحقيق صلاح الدين المنجد الذي ألحق به بحثا عن الدبلوماسية في الإسلام. وكتاب «السودان في قرن» من تأليف مكي شبيكة، المدرس في كلية غردون في الخرطوم، ويعرض تاريخ السودان من سنة ١٨١٩- ١٩١٩. وكتاب «فتح العرب لمصر» الذي ترجمه محمد فريد أبوحديد، وطبع أكثر من مرة.

كتب التراث

وإلى جانب ذلك، قامت اللجنة ببعث مجموعة من كتب التراث، وسهلت النظر فيها بالشروح والتحقيقات، مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، الذي حققه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، ويقع في عدة أجزاء. وكان أحمد أمين يفضل هذا الكتاب على كتاب «الأغاني». و«ديوان المتنبي»، الذي

حققه عبدالوهاب عزام. و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي، والذي حققه شيخ المحققين عبدالسلام هارون، ووازن فيه بين شرح المرزوقي وشرح التبريزي، وفسر الغامض من أبياته، وعرف بشعراء الحماسة، وعين الشعراء المجهولين الذين لم يذكر أبو تمام أسماءهم.

الكتب الأدبية

ويستطرد الطماوي: إذا انتقلنا إلى كتب الأدب التي أصدرتها اللجنة، ألفيناها كثيرة، ونذكر منها «قصة الأدب في العالم» ويقع في ثلاثة أجزاء، وهو من تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، وعرضا فيه نماذج من الآداب العالمية القديمة والحديثة، مثل: الأدب الفرعوني، وآداب من الصين والهند وفارس واليونان والرومان والإنجليز، إلى جانب الأدب العربي في العصور الوسطى. وكان أحمد أمين يرى أن العرب أخطأوا عندما لم يترجموا الأدب إلى جانب الفلسفة، ولما كان أحمد أمين يرغب في أن يكون عندنا كتاب في الأدب اليوناني، وآخر في الأدب الروماني، وغيرهما في الأدب الألماني إلى آخره، وعندما لم توجد هذه الكتب رأى أن يقدم كتابا شاملا يعرض فيه لمختلف الآداب العالمية. وقد نهض العرب بعد هذا الكتاب، ووضعوا كتبا في الآداب العالمية، وترجموا كثيرا من النصوص الإبداعية، والأعمال النقدية والفنية. ومن الكتب الأدبية والنقدية واللغوية الأخرى كتاب «قواعد النقد الأدبي» الذي وضعه ابركرومبي وترجمه د. محمد عوض محمد، وكتاب «في

الأدب الجاهلي» لطه حسين، وهو تعديل لكتاب «في الشعر الجاهلي» الذي أحدث جدلا عارما عام ١٩٢٦، ومسرحية «فاوست» وهي من روائع جوتة، وترجمها محمد عوض محمد، وقدم لها طه حسين، وتتناول مشكلة الشر، وكتاب «الاشتقاق والتعريب» من تأليف عبدالقادر المغربي، ويدور الكلام فيه حول تكاثر ألفاظ اللغة بالاشتقاق والتعريب، وكتاب «دفاع عن الأدب» لجورج ديهامل، وترجمه وعلق عليه تعليقات كثيرة محمد مندور.

ومن كتب علم النفس «خلاصة علم النفس» للدكتور أحمد فؤاد الأهواني، وكتاب «الطفل في المدرسة الابتدائية» من تأليف سوزان ايزكس وترجمة محمد مختار المتولي، ويعنى بالطفل ونشاطه الذهني، ووجوب الاهتمام بتربيته وهو في مرحلة التعليم الابتدائي، وكيفية قياس الفروق بين الأطفال والتعرف على ميولهم وترقيتها، كما يتناول أخطاء الأطفال في التفكير، وكيفية تلافيها.

ولم تهمل اللجنة كتب العلوم، فقد أصدرت منها كتاب «من أسرار الفطرة»، وهو في الطبيعة، من تأليف اندراد وترجمة محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبدالسلام الكرداني، وهما من أعضاء اللجنة القدامى، ومتخصصان في العلوم الطبيعية، وسبق أن اللجنة في بداية عهدها قد كلفتهما بوضع كتابين في الكيمياء والطبيعة.

ومن الكتب الأخرى كتاب «التثقيف الذاتي» لسلامة موسى، ويتناول قضايا عدة، منها كيف يستطيع الإنسان أن يثقف نفسه بنفسه، ووسائل هذا التثقيف، وكتاب «فيض الخاطر» لأحمد أمين، وهو عشرة أجزاء، ويضم مقالات أحمد أمين المتناثرة، وكتاب «ساعات السحر» للدكتور أحمد زكي، ويعرض لموضوعات شتى في شؤون الحياة، ويسجل فيه خواطره التي كانت تعن له وقت السحر، كذلك طبعت ديوان «حافظ إبراهيم» بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، و«ديوان أحمد الزين» وغير ذلك كثير.

وكانت اللجنة متعاونة مع غيرها من لجان العلم، وتطبع كتب غيرها، مثل كتاب «تراث الإسلام»، ويقع في جزأين، وهو فصول طويلة عن الأدب الإسلامي والفلسفة والإلهيات والعمارة الإسلامية وغيرها، وضعها أجانب وترجمها مصريون عديدون، وتكفلت بالكتاب «لجنة الجامعيين لنشر العلم».

وعلى غرار هذا يمكن التعرف على مئات الكتب التي صدرت عن اللجنة، وعندما توفي أحمد أمين عام ١٩٥٤، واصلت اللجنة رسالتها.

وقد ساهمت الكتب المترجمة في ازدهار حركة الترجمة العلمية، وأفرزت جيلا جديدا من المترجمين مثل محمد بدران وزكي نجيب محمود وعلي أدهم، وأطلعت القارئ على كثير من كتب الغرب التي ترجمت لأول مرة، وقامت بدور في النهضة والاستنارة، إلى جانب أنها درس مهم في محاولة تعريب المصطلح الأجنبي، وتقريب المصطلح المستعصي على التعريب إلى أن نهتدي إلى كلمة دقيقة تقابله، عدا فوائد الترجمة الأخرى، ومنها التعارف بين الشعوب.

كتب اللجنة في الدول العربية

ويلفت الطحاوي إلى أن هذه الكتب النفيسة التي ذكرنا بعض عناوينها عمت فوائدها على عدد من الدول العربية، فقد أودعت اللجنة قدرا منها في المكتبات، مثل المكتبة العصرية ببغداد، بالوكالة العامة بالعراق، وتطلب من محمد حلمي. وفي فلسطين وشرق الأردن، كانت هذه الكتب تطلب من الوكالة العامة للجنة التأليف والترجمة والنشر.

ولم تقتصر خدمات أعضاء اللجنة على لجنتهم، وإنما امتدت إلى مجلة «الرسالة» لتعينها وتعزز موقفها، ويقول أحمد حسن الزيات في «الرسالة» (أول سبتمبر ١٩٥٢): «كان يظاهرني على تفاؤلي الأولون من لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد».

الثقافة

ومن أهم أعمال اللجنة وإصداراتها مجلة «الثقافة» الأسبوعية التي نافست مجلة «الرسالة» أربع عشرة سنة، وظهر عددها الأول في ٣ يناير ١٩٣٩، وصاحب امتيازها أحمد أمين، أما رئيس تحريرها فهو محمد عبدالواحد خلاف.

وهناك أسماء كثيرة، هذه الإشارات السريعة لا تغني عن دراسات مطولة عنها، وقد تولى تحريرها زكي نجيب محمود فترة، ومحمد فريد أبوحديد فترة أخرى، وتواصل عطاؤها إلى أن صدر آخر أعدادها في ٢٣ فبراير عام ١٩٥٣. ولكن اللجنة استمرت في نشر الكتب المؤلفة والمترجمة.

أحمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

محمد فريد أبو حديد
وكيل مدرسة الليبة الثانوية

الدكتور طه حسين
عميد كلية الآداب سابقاً

محمد احمد الغمراوى
مدرس الكيمياء بكلية الطب

بين حقائق التاريخ وأكاذيب المستشرقين

الفتوحات الإسلامية

مصطفى يعقوب
باحث دراسات تاريخية

لقد كانت الفتوحات الإسلامية مثلا حيا لقصر نظر المستشرقين وسوء قصدهم حيال الإسلام. وعلى الرغم من ذلك الكم الهائل من المراكز والمؤسسات العلمية التي تعنى بدراسة الإسلام في الغرب، فإنها قد وقعت فريسة لتلك النظرة العدائية حيال الإسلام وأهله. ومن هذا المنطلق، يجب أن تكون دراسة الإسلام مجردة من الهوى وعلى أسس من الموضوعية والحيدة، وقراءة الوثائق التاريخية قراءة خالية من التعصب العرقي والمذهبي.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول إلى الاستشراق، وهو الدافع الديني. وهؤلاء -يقصد المستشرقين- كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه ليثبتوا للغرب المسيحي أن الإسلام -وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين- دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج ولصوص وسفاكو دماء».

ولأن هؤلاء المستشرقين هم جند مجندة لخدمة دينهم وأوطانهم، فقد كان من الطبيعي أن يصدوا سبيل شعوبهم عن ميزة أو حسنة عن الإسلام وأهله؛ خشية أن يقع أهل ملتهم في أسر هذا الدين الذي دانت به ممالك العالم القديم طواعية واختيارا، بل وأصبح في قلب أوروبا. وفي هذا يقول الدكتور إسحق موسى الحسيني: «إن الهدف الديني هو مقصد المستشرقين الأوائل في القرون الوسطى بوجه خاص، وهذا يعلل كونهم من اللاهوتيين في الغالب. فقد أرادوا من دراسة الإسلام أن يدفعوا عن بني دينهم الاستسلام لهذا الدين الجديد الذي ذاع ذيوعا سريعا في البلدان التي كان معظم سكانها يدينون بالمسيحية».

وقد تبارت مؤلفات المستشرقين على اختلاف مذاهبهم، العرقية والدينية، في الطعن في الإسلام كعقيدة، وعلى العرب كأمة. ولعل الدليل الحي على ذلك هو دائرة المعارف الإسلامية بكل ما فيها من مطاعن وأكاذيب ومغالطات، والتي تولى تحريرها جمهرة كبيرة من المستشرقين. غير أن

مترجمي الدائرة قد هالهم هذا الكم الكبير من المطاعن والأكاذيب والمغالطات، فأوكلوا إلى عدد من علماء المسلمين الرد والتعقيب على ما ذكره المستشرقون في هذه الدائرة. غير أن القراءة العابرة لمواد الدائرة سوف تكشف عن أن مواضع التعليق والتعقيب أكثر ما تسود في تلك المواد التي تتعلق بكل ما يمت إلى الإسلام كشريعة بصلة.

ففي مادة «الله» -على سبيل المثال- التي كتبها المستشرق الإنجليزي ماكدونالد MacDonald، بلغت التعليقات والتعقيبات من الكثرة حدا غير مألوف بأقلام نفر من علماء المسلمين، ولم تكن هذه الكثرة سوى درء مطاعن هذا المستشرق.

يقول الأستاذ أحمد محمد شاكر عن هذه التعقيبات «وقد تكفل الكاتبون الكرام والعلماء الكرام بنقد كثير من أخطاء الكاتب، وبيان وجه الحق فيما عمد إلى العدول به عن وجهه الصحيح فجزاهم الله أحسن الجزاء. وبقي مما هاجم به الكاتب الشريعة الإسلامية أن عمد إلى أساس من أقوى دعائمها -وهو الأحاديث النبوية- يحاول هدمه بالتشكيك فيه.

وقد كان الرأي تأخير هذا الرد ليكتب في موضعه، عند الكلام على الحديث، ولكن رأى إخواني أن أبادر بالكتابة في هذه المناسبة، احتياطا من الأثر السيئ لكتابة الكاتب عند نشر أقواله باللغة العربية، وذيوع آرائه بين أبناء العروبة في مختلف الأقطار الإسلامية».

وهكذا شاءت أهواء هؤلاء المستشرقين، وسوء نيتهم حيال الإسلام والمسلمين، أن يختلقوا الأكاذيب لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، محاولين، جهد طاقتهم، أن يجردوا الإسلام والمسلمين من كل فضيلة أو ميزة. غير أن أمرا واحدا قد استعصى على التبرير أو التفسير فلم يملكوا حياله سوى التسليم المطلق من البعض، وكابر البعض الآخر، فكذب وادعى واختلق ما شاء له الاختلاق فلم يقنع أحدا بدعواه. وهذا الأمر الواحد الذي وقف أمامه المستشرقون طويلا هو الفتوحات الإسلامية.

والحقيقة أن فريقا من مؤرخي الغرب قد رأوا في تلك الفتوحات خروجا على قوانين التاريخ.. فها هو شعب غارق في البداوة، لا قبل له بالفنون العسكرية، ولا يملك جيشا منظما، بل كل ما يملكه عقيدة قد رسخت في وجدانه، يخرج من صحرائه ليقاتل في سبيل الله ويفتح البلاد، بلدا إثر بلد، بل ومن العجيب في الأمر أن الكثير من البلاد قد فتحت صلحا من دون قتال، لتدخل شعوبها في دين الله أفواجا. ولم يملك هذا الفريق من المؤرخين سوى التسليم المطلق بقدرة هذا الدين في نفوس العرب.

وعلى سبيل المثال يقول هـ. ج. ويلز H. G. Wells: «لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي، لأمكنه أن يستنتج بحق أنه لن تنقضي قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول. أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك المتكهن للخطأ فهي تجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينيه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم، حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة من الرحل، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة لم ينشئ شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة.

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مدة قرن واحد حافل بالأبهة والفخامة، مدوا في أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين، ومنحوا العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم».

ولأن الفتوحات الإسلامية كانت خروجا على حركة التاريخ، إذ لم يمض سوى أقل من قرن من الزمان حتى وسع ملكها قارات العالم القديم من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، فليس من العجيب أن يصف ويلز هذه الفتوحات بقوله: «إنها أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري». أما ول ديورانت W. Durant فيصفها في كتابه الشهير «قصة الحضارة» بأنها «أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله».

ولقد عز على جمهرة كبيرة من المستشرقين والمؤرخين أن يجدوا في المسلمين فضيلة من الفضائل، وهي الإيمان المطلق بالإسلام، والاجتماع على كلمة الحق التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ، فأرادوا أن يسلبوا المسلمين هذه الفضيلة، فلم يجدوا في جعبتهم سوى أن يفسروا الفتوحات الإسلامية تفسيرا غاية في الغرابة من دون سند من منطق أو عقلانية. ويتلخص هذا التفسير في أن العرب بعد إسلامهم قد ضاقت الأرزاق عليهم لجدب بلادهم فأغاروا على ما جاورهم من البلاد!

يقول المستشرق الألماني يوسف هل J. Hell: «إن السبب في ميل الشعب العربي إلى الهجرة هو جفاف بلادهم. وقد اقترن هذا الجفاف بظهور الإسلام مما أدى إلى ذلك الانقلاب في التاريخ العالمي». ولم

يكتف يوسف هل بهذا التلميح، بل أكده في صراحة لا موارية فيها فاستطرد قائلا: «وإذا كانت بلاد العرب قد غزت نفسها -يقصد بذلك حروب الردة- فإن ذلك جر عليها الضنك الذي تجلبه الحروب عادة، حيث استنفدت موارد البلاد الضئيلة بطبيعتها، فرأى البدو أن قطعانهم قد هلكت، على حين وجد أهل المدن أن حقولهم قد خربت وتجارتهم قد بارت. ولذلك ظهر الآن الحافز الذي كان يدوي منذ زمن بعيد مناديا بعبور شبه جزيرة العرب والنزول في البلاد المغرية التي تجاورها».

وعلى الرغم من أن ول ديورانت قد أثنى على الحضارة الإسلامية، ورأى أن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) من أزهى عصور العلم في تاريخ البشرية، فإنه قد أخطأ أشد الخطأ في تفسير الفتوحات الإسلامية. ولعله كان مدفوعا بآراء من سبقوه من المؤرخين، فزعم أن من أسباب الفتوحات الإسلامية انهيار نظم الري في جزيرة العرب «فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار. ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح».

أما ستانلي لينبول S. Lane-Poole، وهو مستشرق إنجليزي، فقد غالى في تقدير العامل الاقتصادي، إذ جعل من المغانم الدافع الأساسي للغزو، على حد زعمه. ولم ينس، كغالبية المستشرقين، أن يغمز بصورة مستترة من الخلق العربي فيقول: «وما أكثر ما طمع -يقصد بذلك العربي- في البلاد الغنية التي تحيط ببلاده المجدبة، إلا أنه كان يحتاج إلى أمرين يحفزانه إلى التوسع في الفتح، هما: الوحدة الوطنية والدافع القوي، حتى جاءه بهما محمد النبي العظيم، فجمع شمل العشائر المتنافسة المتناحرة وألّف بينها، وجاءهم بدين يقاتلون من أجله. على أننا مع ذلك لا نستطيع أن نزعم أن الدين كان السبب الأساسي لفتوحات العرب الساحقة، مهما كانت دعوته قوية ملزمة. كان هناك حافز أكثر وضوحا، هو الشهوة الجامحة الطبيعية للحصول على المغانم، فقد كانت أمامهم امبراطوريتا الفرس والروم الغنيتان اللتان شاختا، ولم تقو إحداهما على أن تبدي من المقاومة سوى أقصرها وأفشلها. ووجد بدو الصحراء أنفسهم في مدى عشرين عاما سادة على الممتلكات الواسعة التي كانت من قبل تحت إمرة قيصر وكسرى... الخ».

حقائق وشواهد

تلك كانت بعض الآراء التي راجت لدى جمهرة المستشرقين والمؤرخين. وهي آراء يغلب عليها الطابع العدائي حيال الإسلام والمسلمين، والقراءة الظالمة للتاريخ الإسلامي. غير أن هناك عددا من الحقائق والشواهد التي غابت -قصدا- عن هؤلاء المستشرقين والمؤرخين، والتي تبين فساد الأساس الذي بنيت عليه تلك الآراء.

أولا - إذا كانت جزيرة العرب، في مجملها، لم تكن في خيرات الشام أو فارس أو مصر، فليس معنى هذا أن العربي قد جال في فكره غزوها طمعا واستلابا لخيراتها، بل على العكس تماما فقد ألف العربي الحياة في هذه الصحراء بكل ما فيها من جفاف وجدب، طواعية واختيارا، لا عن إجبار وإكراه، ليس هذا فحسب، بل بلغت ألفة العربي لتلك البيئة الجافة حد الافتتان بها لا الهجرة منها. وتزخر كتب التراث بالشواهد والأقاصيص الدالة على هذا الافتتان وتلك الألفة اللذين لا نظير لهما بين الإنسان وبيئته. فهل نذكر قول ذلك الأعرابي الذي قيل له: كيف تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟! يمشي أحدنا ميلا، ويرفض عرقا، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى.

ولعلنا نذكر قول ذلك الأعرابي الذي دخل الحضر فاشتاق إلى باديته عازفا عن ترف الحضر ومباهجه قائلا:

لعمري لنور الأقحوان بحائل
ونور الخزامى من ألاء وعرفج
أحب إلينا يا حميد بن مالك
من الورد والخيري ودهن البنفسج
وأكل يرابيع وضب وأرنب
أحب إلينا من سماني وتدرج

ولعلنا نذكر أيضا ذلك الشاعر الذي رحل إلى بغداد وكانت وقتها حاضرة الدنيا، فتشوق إلى باديته فأنشد يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق علي دروب
فإن شفائي نظرة إن نظرتها
إلى أحد والحرتان قريب

وللدلالة على مدى حب العربي، رجلا كان أم امرأة، لبيئته الصحراوية، وهي، كما هو معروف، بيئة قاسية على أهلها، تلك الأبيات التي سارت مسرى

الأمثال، وهي أبيات قالتها ميسون الكلبية، وقد تزوجها معاوية رضي الله عنه، وهو خليفة المسلمين في ذاك الوقت، لكنها حنت إلى باديتها:

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلي من قصر منيف
وأصوات الرياح بكل فج
أحب إلي من نقر الدفوف
وكلب يتبع الأظعان صعب
أحب إلي من هر أليف

هذا هو حال الأعرابي الذي لا يرضى بغير بيئته الصحراوية بديلا، رغم قلة خيراتها، ويغزو بلادا لمجرد الطمع في خيراتها. إذن لم يترك الأعرابي صحراءه عن جفوة لقلة عطائها، أو رغبة في الاستيلاء على خيرات غيره، وإنما تركها مقاتلا في سبيل الله وفي سبيل نشر راية الإسلام.

ثانيا - من المحقق أن العرب الفاتحين لو كان همهم من الفتح مجرد الحصول على الغنائم والأسلاب، لكان الخلفاء أوفر الناس ثروة وثراء، غير أن شواهد التاريخ تثبت عكس ذلك تماما، فلم يملك المستشرقون والمؤرخون سوى الاعتراف بهذا الأمر. يقول المستشرق الفرنسي الشهير ل. سيديو edillot S: «وأوائل الخلفاء هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلم يسكرهم سلطانهم، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء، بل ظلوا أوفياء لحياة الزهد الورع التي كان محمد قدوة لهم فيها. فسار عمر ابن الخطاب إلى القدس ليتسلمها فسافر من المدينة إلى فلسطين من غير حاشية أو حرس، وتوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوى ثوب وعبد وجمل، وكان علي يتصدق على الفقراء في كل جمعة بما عنده من النقود...الخ».

إذن فالعامل الاقتصادي كسبب للفتوح الإسلامية، إنما هو محض افتراء لا سند له من شاهد أو

المستشرقون لم يتخيلوا مدى رسوخ الإسلام في أفئدة المسلمين

دليل.

ثالثا - من الثابت أن الغالبية العظمى من المستشرقين قد عز عليهم أن يكون صدق العقيدة هو الدافع الرئيسي في الفتوح الإسلامية، فوجدوا ضالتهم في العامل الاقتصادي. فمن أغرب الآراء، وأشدها مجافاة للحقيقة، قول ستانلي لينبول، في تأكيده على أهمية العامل الاقتصادي، عن الخلفاء الأمويين إنهم: «كانوا مسلمين متهاونين، أدركوا أنه كلما اعتنق شخص الإسلام كان هذا معناه خسارة في ضريبة الرؤوس -يقصد الجزية- ولهذا تركوا الشعوب المحكومة تتمتع بحرية عقيدتها ووجهوا اهتمامهم لجباية الضرائب».

وأغلب الظن أن سوء القصد هو الذي أملى على هذا المستشرق ذلك الرأي البالغ التهافت، لأن الإسلام قد أباح حرية العقيدة كما ورد في آيات شتى كقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦). أما ما يدعيه عن خسارة الخلفاء الأمويين للجزية كلما اعتنق شخص الإسلام، فهو محض افتراء على هؤلاء الخلفاء، إذ إنه لم يقرأ التاريخ الإسلامي على وجهه الصحيح، بل أخذ من هذا التاريخ ما يوافق رأيه، ثم فسره على هواه. ولعله يشير إلى ما حدث من بعض الولاة في العصر الأموي، فقد ورد في «البداية والنهاية» لابن كثير قوله: «وعزل عمر بن عبدالعزيز الجراح بن عبدالله، عن إمرة خراسان بعد سنة وخمسة أشهر، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ويقول: أنتم إنما تسلمون فرارا منها. فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية، فكتب إليه عمر: إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا».

إذن فهذا المستشرق كاذب في دعواه، كما كذبه في ذلك مستشرق آخر قد أنصف خلفاء المسلمين، يقول المستشرق الفرنسي سيديو في معرض حديثه عما قام به الخلفاء حيال مصر: «كان الخليفة ينفق معظم الجباية على الأعمال النافعة للبلاد، فأمر بإنشاء قناة القلزم القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، وأنجزت بفضل تلك الحكومة الصالحة مشاريع عظيمة فأعادت مصر شبابها في زمن قصير».

رابعا - من الواضح أن العامل الديني كان بعيدا عن أذهان هؤلاء المستشرقين، الذين لم يتخيلوا مدى رسوخ الإسلام في بداياته، في أفئدة المسلمين ونفوسهم، وكيف جعل هذا الدين من قبائل العرب المتنافرة والمتناحرة والتي كان يحارب بعضها بعضا لأوهى الأسباب، أمة واحدة، كأنها قلب رجل واحد، تدين بعقيدة واحدة. ومن بين الأقاصيص الكثيرة في كتب التاريخ التي تفسر الفتوحات الإسلامية عبر صدق إسلام العرب الأوائل وشدة بلائهم في سبيل نصرة الإسلام، سوف نختار واحدة منها، وهي قصة أبي محجن الثقفي أثناء وقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي حبسه لأنه كان يقول شعرا في الخمر. جاء في «مروج الذهب» للمسعودي: «كان أبو محجن الثقفي محبوسا في أسفل القصر، فسمع

وقع الحديد وشدة البأس، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف. فصعد إلى سعد يستشفعه ويسأله أن يخلي عنه ليخرج، فزجره سعد ورده. فنظر إلى سلمى بنت حفصة، زوجة سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ فقالت: وما ذاك؟ تخلين عني وتعيريني البلقاء -يقصد فرس سعد- ولله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في القيد. فقالت: وما أنا وذلك؟ فرجع يرسف في قيده وهو يقول:

كفى حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا
وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد فأغلقت
مصاريع من دوني تصم المناديا
فلله عهد لا أخيس بعهده
لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، فاقتاد بلقاء سعد وركبها، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيرين منهم. وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم، لا يبدو له فارس إلا هتكه، ووقف بإزاء قلب المشركين ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه، وحمل عن المسلمين الحرب، فتعجب الناس منه وقالوا: من هذا الفارس الذي لم نره في يومنا؟ وأبو محجن كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم. وجعل سعد يفكر ويقول: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، فلما انتصف الليل تحاجز الناس وتراجعت الفرس على أعقابها، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ورد البلقاء إلى مربطها وعاد في محبسه ووضع رجله في القيد».

فهذا رجل دائم السكر، لكن عز عليه ألا يقاتل في سبيل الله، فكيف يكون الأمر بمن لم يشرب الخمر قط؟! هذه قصة من ألوف القصص التي تزخر بها كتب التاريخ، لعلها تسقط العامل الاقتصادي من آراء المستشرقين.

خامسا - وفي سياق هذا الإطار نسوق قصة ذات دلالة ومغزى كبيرين، وبطل هذه القصة هو الدكتور عمر فروخ عندما كان مبعوثا في ألمانيا لنيل أطروحة الدكتوراه، والذي نسوق على لسانه الراوية التالية: «وسألني يوسف هل J.Hell -وهو المستشرق الألماني الذي أشرف على أطروحة الدكتوراه- عن الموضوع الذي كنت أفكر فيه لرسالتي. كنت يومذاك (١٩٣٥) في عنفوان الشباب فقلت له: مدى القومية العربية - عظمة الشاعر المتنبي - أثر العرب في الثقافة العالمية... وأشباه ذلك. استمع إلي بصبر فلما سكتُ قال لي: احتفظ بهذه الموضوعات. فإذا أنت رجعت إلى بيروت فاكتبها وانشرها في الجرائد. ثم قال لي: هنالك موضوع مهم ما زلت أعرضه على الطلاب الألمان الراغبين في الاستشراق منذ عشرين عاما، فلم أجد الهمة عند أحد لمتابعته، مع أن نفرا منهم بدأ بتجميع مواده ثم تخلى عن الاستمرار فيه، إنه موضوع يحتاج إلى رجل عربي سريع المضي في المصادر العربية. هذا الموضوع هو المشكلة التالية:

يرى نفر من المستشرقين أن الإسلام لم يستقر في نفوس المسلمين إلا في العصر العباسي (قياسا على أن النصرانية لم تبدأ في الانتشار بين الناس إلا في القرن الرابع الميلادي). فهل تستطيع أنت أن تعالج هذا الموضوع وتضع هذه المشكلة على أحد جانبيها؟

بدأت العمل وجمعت عشرة آلاف بيت شعر مؤرخة بالسنوات، منذ السنة الأولى للهجرة (٦٢٢م) إلى موت الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م).

دخل في رسالتي أربعمئة بيت من تلك الأبيات، دلت، بجزم ووضوح، أن تعاليم الإسلام كانت تستقر في نفوس المسلمين (ونطاق الرسالة كان منذ الهجرة) في الوقت الذي كانت تلك التعاليم تفرض عليهم أو ينزل فيها وحي».

وإذا كان لهذه الرواية أكثر من دلالة تتعلق بنظرة المستشرقين حيال الإسلام، وحيرتهم الشديدة حيال سرعة انتشاره في عقود قليلة من الزمان، فإن الدلالة التي يمكن الخروج بها في إطار ما توهموا عن أسباب الفتوحات الإسلامية، هي أن الفتوحات الإسلامية إنما كانت بغرض الطمع في خيرات الأمم المجاورة، لأن الإسلام بدأ ضعيفا، كما حاول يوسف هل أن يرسخ هذا المفهوم الخبيث في ذهن الطالب -وقتها- عمر فروخ. غير أن الطالب النجيب أبى أن يساير أستاذه فيما أراد، بل وأطاح بفكرته من أساسها، ليظل نشر الإسلام هو الدافع الأساسي في الفتوحات الإسلامية.

طرق واستراتيجيات القضاء على مسببات الأزمات في العالم من منظور قرآني:

التأصيل الإسلامي لعلم الأزمات

محمد سرور الحريري
كاتب إداري وباحث علمي

لقد قمت بتثبيت وتدوين علمي وذلك كتأصيل إسلامي شرعي لعلم إدارة الأزمات، وقمت بوضع مقارنة علمية لكل المعلومات الخاصة بإدارة الأزمات وما يقابلها ويوافقها من معلومات صحيحة ثابتة في الشريعة الإسلامية، خصوصا من مصدرين راسخين في جذورهما العلمية، حيث يمكن للباحث والقارئ الاعتماد عليهما كأسس علمية قوية، فيمكن الاستناد إليهما، حيث إنهما يعتبران من أصدق المصادر وأفضلها وأقواها، وهذان المصدران هما:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

في البداية، سأقدم العمل الذي قمت به مستندا إلى القرآن الكريم في التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات، وهذه هي الآيات الكريمة التي لها دلالة واضحة وعلاقة قوية ونظير ظاهر، وذلك لأني قمت بعمل مقارنة علمية لكل المعلومات الخاصة بإدارة الأزمات، والتي لها جذور وأصول وقواعد إسلامية شرعية.

إدارة الأزمات في القرآن الكريم

١ - إن تاريخ الحياة منذ بدء الخلق على هذه الأرض إلى يومنا هذا تاريخ مؤسف وصعب وشديد للأسف. ومن الواجب على الإنسان المسلم أن يشق طريقه في هذه الحياة وهو يعلم علم اليقين أن هذه الحياة ممتلئة بالأشواك والمخاطر. لقد تأصلت أزمة البلاء والابتلاء والامتحان وتثبتت كقانون إلهي لا بد أن يمضي على كل البشر، فقد قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣). إن أزمة البلاء وأزمة الابتلاء وأزمة وقوع الفتن والمصائب للبشر ما دامت الحياة مستمرة وما دام هذا الإنسان يعيش على هذه الأرض فلا بد من حصول الأزمات والابتلاءات، وذلك سُنّة إلهية كونية قائمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ و١٥٦).

٢ - أزمة تفضيل بعض الناس على بعض، واختلاف طبقات الناس وتفاوت درجاتهم الإدارية والوظيفية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأنعام:١٦٥).

٣ - أزمة الاعتداء على الناس والأشخاص المسالمين وغير المعتدين، وحرمة التعرض بالإيذاء للناس المسالمين، حتى ولو كانوا من الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠).

٤ - البحث عن الطرق السلمية في حل الأزمات والكوارث والمشكلات، واللجوء إلى السلام وإلى الصلح والعفو بدلا من القتال والمعارك غير المجدية، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الأنفال:٦١).

٥ - النهي عن الفساد والإفساد في الأرض، وتحذير الناس من انتشار الفساد، وتطبيق قانون صارم وشديد على المفسدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة:٣٣ و٣٤).

وقال الله تعالى ناهيا عن ممارسة الفساد في الأرض ومحرما له: ﴿..وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ (البقرة:٦٠).

٦ - الاحتياط والاستعداد والتخطيط والتجهيز والتهيؤ لمواجهة الأزمات، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ (الأنفال:٦٠).

٧ - النهي عن نقض المعاهدات، فهو يشكل أزمة ومصيبة وكارثة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (البقرة:٢٧). وقال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ (البقرة:١٧٧). وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة:١). وقال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النحل:٩١).

٨ - الأمر بالعدل ووجوب الحكم بالعدل وحرمة الظلم فإن الظلم سبب

لظهور الأزمات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠).

٩ - التثبت من الأخبار والتأكد من المعلومات وعدم التسرع في اتخاذ القرارات، فإن العجلة سبب للوقوع في الأزمات، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ (الحجرات:٦).

١٠ - حرمة شهادة الزور والنهي عن الشهادة الكاذبة الآثمة، فإن شهادة الزور تسبب ظهور الكثير من الأزمات، وتعطي معلومات كاذبة وغير صحيحة للآخرين، وبالتالي لا تستطيع الجهات المسؤولة اتخاذ القرارات الصحيحة، بل تزيدها هذه الشهادات الكاذبة وهذه المعلومات غير الصحيحة تخبطا، وتزيد الموقف حدة وصعوبة. وبالتالي كانت شهادة الكذب وشهادة الظلم وشهادة الزور حراقا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢). وقال الله تعالى محذرا من شهادة الزور: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ (الحج:٣٠). وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ (المائدة:١٠٦).

١١ - الحث على عدم الملل وعدم النكوص وعدم اليأس في البحث عن الحلول، والحث على مداومة البحث والجد والعمل على الخروج من الأزمات والمآزق، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ (آل عمران:١٣٧-١٤٠).

١٢ - الإشادة والحث على استخدام الحكمة الإدارية في القضاء على الأزمات، قال الله تعالى: ﴿...وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ...﴾ (البقرة:٢٣١). وقال الله تعالى مشجعا على البحث عن الحكمة وتطبيقها في علاج الأمور وحل الأزمات: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة:٢٦٩).

١٣ - الحث على استعمال الفكر واستخدام العقل وتحريك الذهن وإعمال العقل في التفكير الإبداعي للبحث عن الحلول المناسبة للخروج من الأزمات، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤). وقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٢٤٢). وقال الله تعالى ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران:١٩٠).

١٤ - الحث على العمل، والتشجيع على الاجتهاد في البحث عن الحلول، والأمر بالجد والاجتهاد للتخلص من الأزمات بكل الطرق الممكنة، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

١٥ - التعاون مع الآخرين في تخطي عقباتهم، ولحل مشكلاتهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة:٢).

١٦ - حرمة أكل الأموال بالباطل، والتحذير من هضم حقوق الناس المالية، والتحذير من أخذ الأموال غصبا وعنوة، قال الله تعالى ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء:٢). وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء:٢٩).

١٧ - الحث على مزاولة الصناعة، وذلك للعمل بالصناعة، والقيام على الأمور قياما كاملا من دون تواكل للتخلص من الأزمات التي يتسبب فيها العمال الذين يحبون استغلال الأوضاع، فقال الله تعالى لنبيه نوح آمرا له بالعمل في صناعة السفينة: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ...﴾ (هود:٣٧).

١٨ - الحث على العمل وعلى إعمار الأرض وبنائها، وذلك للعمل على التخلص من أزمات البطالة والتعطل عن العمل وللقضاء على مشكلة الفراغ، قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٤). وقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ (الروم:٩). وقال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥).

١٩ – مزاولة مهنة التجارة، والعمل على كسب الرزق، والأمر بالسعي في الأرض للتخلص من الأزمات المالية، قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥).

٢٠ – الدين والقرض، وحزم أمور المداينة والاستدانة وربطها بقانون معين يعمل على حل أزمات الديون، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ...﴾ (البقرة:٢٨٢).

٢١ – عملية الكيل بالميزان وممارسة عملية البيع والشراء قال الله تعالى: ﴿ ... فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ...﴾ (الأعراف:٨٥).

٢٢ – اتباع نظام المكافأة، وتشجيع نظام التحفيز، والتشجيع على الإخلاص في العمل للتخلص من أزمات الفتور وللتخلص من قلة الإنتاج، قال الله تعالى حاكيا قصة يوسف عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾. (يوسف:٧١ و٧٢).

٢٣ – توضيح قانون الشركة، وصياغة قانون الشراكة، وإقامة الشركات، فقد قال الله تعالى: ﴿ ... فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ...﴾ (النساء:١٢). وقال الله تعالى ﴿ ... وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ...﴾ (الإسراء:٦٤).

٢٤ – اتباع الشهادة الصادقة وإحضار الشهود والتثبت من الشهود: قال الله تعالى: ﴿ ... وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ...﴾ (البقرة:٢٨٢).

٢٥ – اتباع نظام المشاورة واستخدام مبدأ الشورى للمساعدة على التفكير في التوصل إلى الحل السليم للقضاء على الأزمات، قال الله تعالى: ﴿ ... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ (الشورى:٣٨).

٢٦ – الحث على إصلاح الأخطاء الإدارية والعملية، والمبادرة في الإصلاح بين الآخرين، قال الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٤).

٢٧ – أداء الأمانة: فمن المهمات الإدارية والمصاحبة للأخلاق الإدارية القيام بتوصيل الأمانات وأدائها على أكمل وجه من دون نقص أو غش، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٨).

٢٨ – أخذ الأمور بجدية، وترك اللعب والتسويف، والبعد عن الاستهتار، فإن وقت حل الأزمات محسوب بالثواني، فلا مجال للعب أو التسويف، قال الله تعالى موجها كلامه إلى نبيه الكريم يحيى عليه السلام: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم:١٢).

٢٩ – الاحتياط المالي المسبق، وعدم الإسراف، أو التبذير في الموارد المالية المتاحة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١). وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ ...﴾ (الإسراء:٢٧).

٣٠ – النهي عن السرقة والغش والخداع، مع الأمر بعدم خيانة الأمانات، فالخيانة سبب لظهور الكثير من الأزمات، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٢٧).

٣١ – الحث على التفكير الإبداعي للبحث عن حل للمشكلات، والحث على عدم التقليد الأعمى في الأمور الخاطئة، بل الإبداع والابتكار والتجديد ونبذ التخلف الفكري، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٦٨).

٣٢ – بيان أن سبب ظهور الأزمات وانتشارها وظهور الفساد في كل مكان، إنما هو ذنوب العباد وخراب ضمائر الناس، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١).

٣٣ – النهي عن اليأس والقنوط، وحرمة اليأس والتخاذل والكسل، فإن هذه أمور تقود إلى أزمات

عنيفة، والواجب هو السعي إلى التخلص منها، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ (هود:٩). وقال الله شارحا وموضحا قول نبيه يعقوب لأولاده: ﴿... وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

٣٤ – الدعوة إلى الابتكار والتجديد والإبداع، والنهي عن التقليد الأعمى في اتباع العادات والتقاليد السيئة والمتخلفة وغير المجدية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة:١٠٤).

٣٥ – النهي عن التجسس واستراق الأخبار، والنهي عن تأويل الكلام تأويلا فاسدا على غير محمله، وحرمة تفسير كلام الآخرين تفسيرا ظنيا (من الظن الآثم ومن الأوهام الخاطئة)، فإن ذلك يزيد من شدة الأزمات ويخلق الصعوبات والمشكلات والمعوقات قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ...﴾ (الحجرات:١٢).

٣٦ – النهي عن الحسد التنافسي، والتحذير منه ومن التباغض، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾. (النساء:٥٤).

٣٧ – بيان أن حصول الموت هو أزمة ومصيبة، قال الله تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (المائدة:١٠٦).

٣٨ – الإفصاح عن حدوث مصيبة ووقوع الأزمة والمحنة والابتلاء والخسارة في الأموال وفي التجارة ووقوع فقدان في النفوس البشرية، قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾ (آل عمران:١٨٦).

٣٩ – حرمة ممارسة الربا، والنهي عن استخدام نظام الربا في البنوك والمصارف، فإن ذلك سبب لظهور العديد من الأزمات المالية والتجارية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٨ و٢٧٩).

٤٠ – اتباع نظام القرض والدين والمداينة والاستدانة، وبيان مشروعية الرهان، وإقرار الرهن في المعاملات المالية والتجارية لحل المشكلات التجارية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ...﴾ (البقرة:٢٨٢). وقوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ...﴾ (البقرة:٢٨٣).

٤١ – الأمر بإحضار الشهود عند التبايع وأثناء المبايعة للتخلص من أزمات الغش والكذب والسرقة، قال الله تعالى: ﴿... وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ...﴾ (البقرة:٢٨٢).

٤٢ – التحذير من ممارسة المؤامرات الخبيثة التي تكون سببا للأزمات، قال الله تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ...﴾ (فاطر:١٠).

٤٣ – تحقيق نظام المشاورة الإدارية والإشادة باستخدام مبدأ الشورى، وذلك لأن الشورى مع الموظفين والاستماع إلى آراء الآخرين يساعدان كثيرا في التخلص من المشكلات، كما يساهمان في التوصل بسرعة إلى الأسباب الداعية لظهور الأزمات ومعرفتها ومعرفة طرق علاجها، وكذلك استعمال التشاور وتحقيق نظام المشاورة وعقد مجلس للشورى داخل المؤسسة الإدارية للتشاور مع الموظفين وأخذ آرائهم ولمراجعة الأمور ولاتخاذ القرارات الإدارية الصحيحة وذلك بالتشاور معهم، قال الله تعالى: ﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ (الشورى:٣٨). وقال الله تعالى مخاطبا نبيه العظيم محمد ﷺ يبين له كيف يتعامل مع أصحابه المسلمين ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ...﴾ (آل عمران:١٥٩).

٤٤ – الحث على ذكر المهارات العلمية، وإظهار الخبرات العملية والقدرات عند التقدم للوظيفة، ويكون ذلك أثناء المقابلة الإدارية مع المسؤولين والمديرين، وكذلك حث الإسلام على إظهار المؤهلات العلمية المطلوبة والتعريف بها ليشغل الإنسان وظيفة معينة، فقد قال الله تعالى شارحا وموضحا ومبينا حال نبيه يوسف عليه السلام لما أظهر خبرته وعلمه ومؤهلاته ليشغل منصبا في الدولة، فيقوم برعاية أمور وشؤون الدولة في أموالها وممتلكاتها، أي كما يسمى الآن في عصرنا هذا وزير المالية، فقد قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥).

إعجاز الخلية الحية

د. عبدالرحمن عبداللطيف النمر
طبيب بشري

حين يسترخي الإنسان على شاطئ البحر ويرمي بصره إلى تلك الصفحة الزرقاء المنبسطة أمامه إلى الأفق، ويطلق العنان لأفكاره لتعانق الموج المتكسر عند أقدامه أو لتسبح مع الموجات البعيدة، فسرعان ما يستحوذ عليه جمال المنظر وعظمة الخلقة.. ثم لا تلبث أفكاره أن تغوص إلى لجة اليم وراء الأسرار والعجائب التي يضمها البحر في طياته! ولا تكاد هذه «السباحة الفكرية» أن تنتهي حتى تكون جوانح النفس قد امتلأت عجبا من براعة الصنعة وعظمة الخلقة، وفاضت تسبيحا بجلال الخالق وإبداع المصور.

وإذا نحن سبحنا فكريا في تركيب الإنسان، فسوف نصطاد من العجائب ما لا يقل شأنا ولا ينقص جمالا عن فرائد البحر ودرر اليم. وحسبنا أن نغوص إلى أصغر شيء في جسم الإنسان -إلى الخلية الحية- لنرى من دلائل الإعجاز وآيات الإبداع ما يأخذ بمعاقد اللب ومجامع النفس!

تعريف الخلية

الخلية الحية هي الوحدة التركيبية الوظيفية التي يتكون منها جسم الإنسان. فجميع الأعضاء والأجهزة في جسم الإنسان تتكون من خلايا، ونشاط تلك الخلايا والأعمال الحيوية التي تقوم بها، هو في الحقيقة الأساس لنشاط وعمل الأعضاء والأجهزة المختلفة في الجسم، وعلى الرغم من اختلاف مكونات ووظيفة الخلايا من عضو أو جهاز في الجسم إلى آخر، فإن التركيب الأساسي واحد لجميع الخلايا!

هذا وتطلق كلمة «بروتوبلازم» على المواد المختلفة التي منها تتكون الخلية الحية التي توصف بأنها في حالة ديناميكية مستمرة، بمعنى أن الأنشطة الحيوية فيها لا تتوقف.

ويمكن تعريف الخلية الحية من الناحية التركيبية بأنها وحدة نشطة منظمة من البروتوبلازم. وينقسم البروتوبلازم إلى جزأين متكاملين، يعتمد كل منهما على الآخر، هما «النواة» أو الجزء المركزي، و«السائل الخلوي» أو الجزء المحيط. ويحيط بهذين الجزأين (أو بالخلية) «غشاء الخلية».

غشاء الخلية

غشاء الخلية Cell Membrane جزء مهم من الخلية الحية، يحيط بكل مادتها ويلزم لحياتها. إذ لو تهتك غشاء الخلية يتحلل البروتوبلازم في ثوان معدودة!

وأمكن دراسة تركيب غشاء الخلية بواسطة المجهر الإلكتروني، فاتضح أن سمكه (ثخانته) يتراوح بين سبعة إلى عشرة نانومتر (٧-١٠نم) (١). وهذا الغشاء المتناهي في الرقة يتكون من طبقتين من البروتين تفصل بينهما طبقة من الدهون! أي أن سمك غشاء الخلية، على ضآلته المتناهية، يتكون من طبقة خارجية من البروتين، ثم طبقة وسطى من الدهون، ثم طبقة داخلية من البروتين!

البروتين في غشاء الخلية نوع خاص من البروتين: إذ لا يذوب في الماء من ناحية، وله خواص كهربائية من ناحية ثانية! لهذه الخصائص الكهربائية دور مهم في تنظيم دخول المواد والعناصر إلى الخلية وخروجها منها!.

كذلك أظهرت دراسة غشاء الخلية بالمجهر الإلكتروني وجود ثقوب دقيقة (Pores) متعددة. وتسمح هذه الثقوب بمرور جزيئات (٢) يصل قطرها إلى ثمانية أنجستروم (٣). ويكون مرور الجزيئات من وإلى الخلية عبر الغشاء. أما الماء والجزيئات الأصغر قطرا فإنها تمر بسهولة نسبية عبر غشاء الخلية.

ويحيط بغشاء الخلية طبقة واقية غير حية تسمى «المحفظة» Pellicle. وتفرز

كل خلية طبقة المحفظة الواقية، والتي تتكون بصفة أساسية من السكريات المتعددة (أو ما يمكن تسميته «نشا»). وتختص طبقة المحفظة بالمحافظة على شكل الخلية، وبوقاية الخلية من الإصابات الميكانيكية. ومما يدل على أن المحفظة طبقة غير حية أن إزالتها (بالتشريح الدقيق تحت المجهر) لا تؤدي إلى توقف نشاط الخلية ولا إلى تحللها وموتها -كما هو الحال عند إزالة غشاء الخلية. وإنما تفقد الخلية شكلها وتصبح أكثر عرضة للإصابات الميكانيكية عند إزالة طبقة المحفظة.

النواة

النواة «nucleus» كتلة من البروتوبلازم دائرية الشكل، تقع في مركز الخلية، وتتحكم في (أو توجه) التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الخلية، كما تتحكم في تكاثر (أو انقسام) الخلية.

تبدأ كل خلية وجودها بنواة في مركزها. إلا أن بعض أنواع الخلايا يفقد نواته عندما يصل إلى مرحلة النضج -مثال ذلك خلايا الدم الحمراء-. وهناك أنواع قليلة من الخلايا تحتوي على أكثر من نواة واحدة -مثال ذلك الخلية المولدة لصفائح الدم وهي نوع من خلايا الدم، يختص بوقف النزيف، وذلك باشتراكه في تكوين ما يسمى «الجلطة».

السائل الخلوي

البروتوبلازم خارج النواة يطلق عليه «السائل الخلوي» (أو «سائل الخلية» أو «السيتوبلازم») «cytoplasm». ويعتبر سائل الخلية منطقة العمل، وكذلك مكان التخزين، في الخلية الحية.

تأملات

يتراوح قطر الخلية الحية بين واحد إلى مائة مايكرومتر (٤) (١-١٠٠ مايكرومتر). ولتقريب ذلك إلى الأذهان، فإن المليمتر (٥) الواحد (الذي نراه على المسطرة) يساوي مجموع أقطار مائة إلى ألف (١٠٠-١٠٠٠) خلية!

فتأمل الإعجاز في الخلقة والإبداع في الصنعة: في حيز ضئيل متناه في الصغر تحتشد تلك التراكيب العجيبة النابضة بالحياة! وكل جزئية أو تركيب يعمل في دأب لا يعرف الفتور، ونشاط لا يتسرب إليه الملل! ويأتلف عمل المجموع في تناسق بديع، فلا اضطراب ولا نشوز!

ثم تأمل التكامل العجيب في تركيب الخلية: ففيها مصانع الغذاء ومراكز الطاقة وشبكة المواصلات، بل ومركز للتجميع والتعبئة والتخزين! وحتى بوابات الخلية تثير العجب: فلا شيء يدخل إلى الخلية، ولا شيء يخرج منها إلا وفق نظام محكم!

وتأمل كيف تتمكن تلك المصانع العجيبة في الخلية الحية من إنتاج عشرات المواد ذات التركيب الكيميائي المعقد، مع أن مساحة المصنع الواحد أصغر من مساحة النقطة المستعملة في الكتابة بحوالي مليون مرة!

وأعجب من ذلك كله أن هذه الخلية التي لا تراها العين المجردة (أي دون الاستعانة بآلة تكبير مثل المجهر) هي الأصل الذي منه تكون الإنسان! فكل إنسان ينبثق من خلية واحدة هي البويضة المخصبة. فهل دار في خلد الإنسان يوما أنه في أول تكوينه كان شيئا غير منظور؟!

ومن الناس من يقول إن الصدفة خلقته وأن العشوائية أوجدته! فهل يعقل أن تكون هذه الصنعة البديعة مجرد صدفة؟! وهل يعقل أن يكون هذا التكوين المحكم مجرد خبط عشواء؟! وإذا كان الأمر كذلك، فهل يكون مقبولا في الأفهام أن تكرر الصدفة نفسها ملايين الملايين المرات من غير زيوغ أو حيود أو نشوز؟! ليست هذه الصنعة البديعة صدفة ولا خبط عشواء. بل إنها خلق محكم معجز: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

والنسق واحد لا يتغير: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾(الملك:٣).

ذلك أن التركيب الأساسي للخلية الحية واحد عند جميع البشر.

والماء هو أصل الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠).

وأنت ترى الخلية الحية وقد تكونت في معظمها من الماء؛ فيكون الماء أصل خلقة الإنسان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾(الفرقان:٥٤).

وحيث أننا لا نرى في الكون دليلا واحدا على تعدد النسق واختلاف أصول الخلق، دل ذلك دلالة يقين على أن الخالق واحد. ولو تعدد الخالق لتعدد النسق ولاختلفت أصول الخلق: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(المؤمنون:٩١).

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الجمال في الخلقة واضح جلي، والإبداع في الصنعة بين غير خفي. وليس وراء هذا الإعجاز مطلب لطالب، ولا بعد الحق مذهب لراغب: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾(لقمان:١١).

وفيما وصفنا من بديع صنع الله آيات وعبر ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

الهوامش

(١) نانومتر «Nanometer»: (ويكتب اختصارا بالحرفين «ن م») هو جزء من ألف مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوي (١٠-٩ متر).

(٢) الجزيء «Molecule»: هو أصغر مقدار من أي مادة تظهر فيه خصائصها. الجمع: جزيئات.

(٣) أنجستروم «Angstrom»: وحدة لقياس الأبعاد المتناهية في الدقة تساوي جزءا واحدا من عشرة آلاف مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد، أي (١٠-١٠ متر) وتكتب اختصارا هكذا (Å).

(٤) مايكرومتر «micrometer»: جزء من مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوي (١٠-٦ متر).

(٥) ملليمتر «millimeter»: جزء من ألف جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوي (١٠-٣ متر). ويكتب اختصارا (مم). «millimeter».

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢١)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

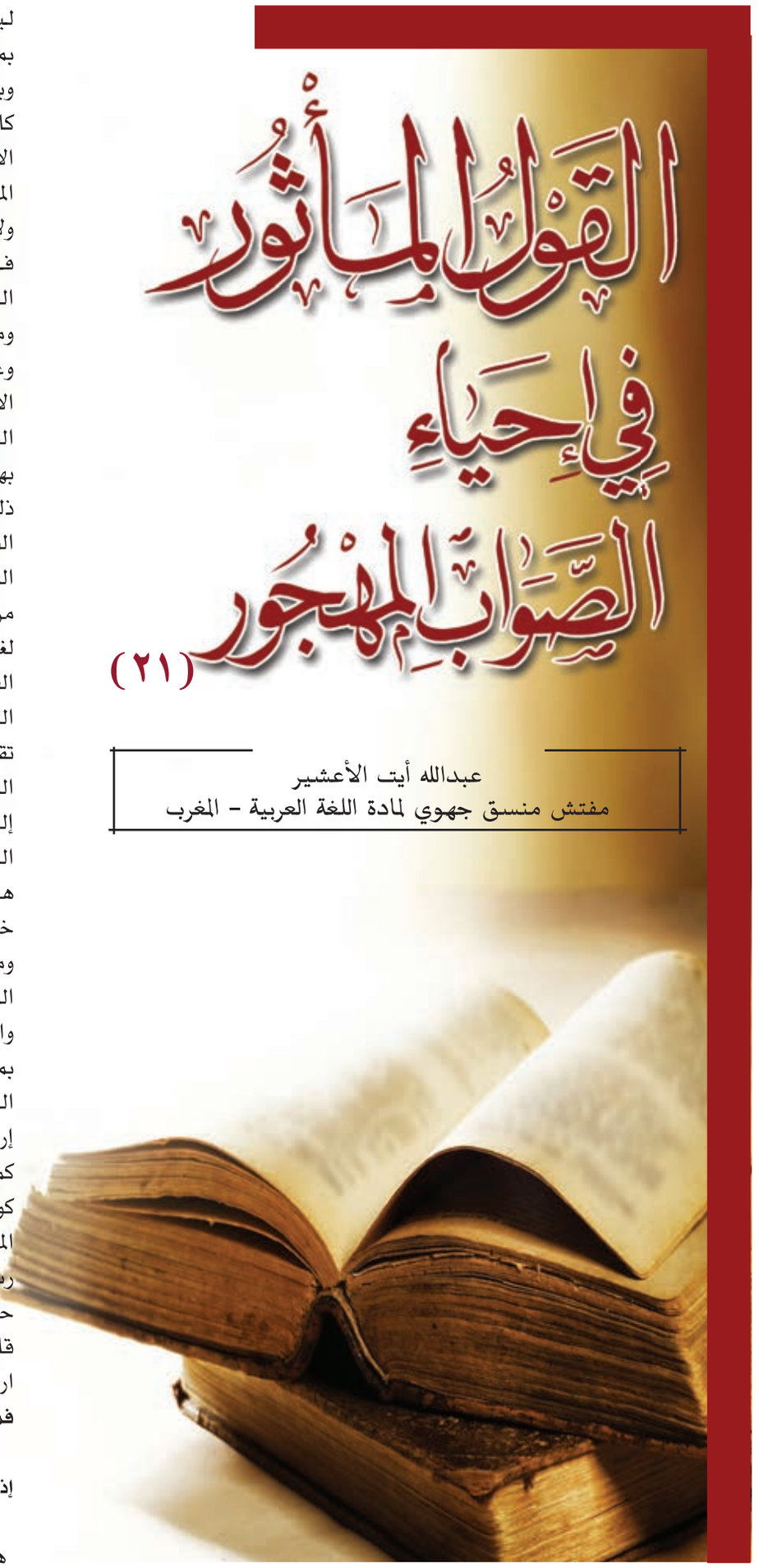

ليس يخفى على من شدا المعرفة بمحورية اللغة في وجود الأمم وبقائها، أن اللغة العربية الفصحى كامنة في العرب كمون الماء في باطن الأرض، وأنها هي اللغة الوحيدة المؤهلة لإيصالهم إلى كعبة آمالهم، ولاسيما بعد أن وفر لها القرآن الكريم في صدر الإسلام، والشعر العربي البليغ طيلة القرون الهجرية الأولى، ومستقطرات أفكار ناقلي ومترجمي وعلماء ونطاسيي بيت الحكمة الأفذاذ، الأساس المكين القادر على الوفاء بكل الحاجات؛ لذلك فإن كمالها وارتباطها بهذه المصادر حتم لازم، لا يتمارى في ذلك إلا من يغالب بضوئه الباهت نور الشمس الساطع. وآية ذلك أن جميع اللغات المنطوقة والمكتوبة تمكن أهلها من التعبير بصورة ما عن مرادهم، لكن لغتنا العربية الفصحى هي الوحيدة التي تتيح لنا أكثر من عبارة عن المعنى الواحد، بكيفية دقيقة لا غلو فيها ولا تقصير، لذا يجب أن تقف في سوق اللغات العالمية كالطود الشامخ بالنسبة إلى الأراضي المنبسطة. هذا الانتماء الديني والحضاري والفني والتقني، هو الإكسير الذي حافظ عليها، عندما خلد أهلها إلى النوم قرونا طويلة، ومن ثمة فإن أحسن تهيئة لها، هي البداءة بربط دنيا العرب بالأصول والينابيع الثرة التي ضمنت لها الحياة بملتقطات من الألفاظ والعبارات الكافية الشافية التي لم تدع لذي إربة في القول علما ولا فنا إلا أزالت كمه ونثرت درره وجواهره، ناهيك عن كونها اللغة الوحيدة التي تضيف لدنيا المسلمين حبل الاتصال والتواصل مع رب العالمين دون تبديل ولا تغيير، كما حدث للغات الكتب السماوية الأخرى. قال الشاعر أكرم جميل قنبس موضحا ارتباطها بالقرآن:

فمن رام أن يحيا بغير وصالها
كمن رام أن يحيا بغير صلاة
إذا كنت أبليت الغرام بوصلها
فإني لقرآني نذرت حياتي

هذا ما شهد به الأبناء البررة، وما

شهد به الأعداء المنصفون على شاكلة المستشرق الفرنسي «لويس ماسينيون» الذي يثبت أن العرب يمكن أن «يفاخروا الأمم الأخرى بما في أيديهم من جوامع الكلم، التي تحمل من سموق الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له عند الأمم» (١). والمؤرخ الفرنسي «إرنست رينان» الذي يؤكد أن العربية الفصحى فاقت غيرها من اللغات «بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وجودة نظام مبانيها...لا نعلم ما يماثلها، لأنها بدت للباحثين كاملة من دون تدرج، واستمرت محافظة على كمالها وكيانها من أي شائبة» (٢). هذا هو كمال الرأي المحصد، وسداد النظر الثاقب الذي يخرس شقاشق المتقولين، ويطفئ لهيب كل ملتهب سعى معاجزا في آلائها. فهل يرضينا اليوم أن تبقى جواهرها النيرات تحت غطاء يخفيها عن الأنظار، وهل يعد حجة وبرهانا ما تنعت به الفصحى اليوم من عجز وتقصير من لدن أعدائها المزورين عنها؛ الذين أخذوا نغبة من معارف العولمة، أو علينا أن نعد هذه الآراء الفطيرة التي يرمون بها لغتنا من جوالب الأوهام، وليست من انتجاث الأفهام؟ وهل يغنينا ما أنتجه الأسلاف، نكتفي به ونتماهى معه من دون أن نسعى إلى صناعة الوجود اللغوي العربي الحديث الذي يدخلنا إلى أندية العولمة من دون أن نطوي كشحنا عما أورده المبرزون الأوائل، ولا نجعل المجتمع العربي المعاصر، وما يمور به من أحداث ووقائع دبر آذاننا؟

أحسن إجابة عن هذه الأسئلة التي تترى، تبدأ من ضرورة تدبير خطة عربية محكمة تنهض بتكوين عقل عروبي مكين، يعي هويته، ولا يتقوقع فيها عندما يروم بناء أفكار مبتكرة، قوامها تأسيس مشروع وجودي عربي تمثل العربية الفصحى عقله الكلي ومخه النقاخ؛ وتكون فيه ألفاظنا وكلماتنا دقيقة سليمة معبرة أوفى تعبير عن أفكارنا، من دون السعي إلى إلباس العربية ثوبا مضرجا، ولا المبالغة في النطق بالغريب الوحشي وعقمي الكلام. لاشك أن هذه الخطة البزلاء تبدأ بحب الفصحى، وإعلان الولاء لكل ما هو عربي، والارتباط بمصادرها طبقا لقاعدة «كل من تعلق بمحفوظ فهو محفوظ» وتربية النشء على تعليم وتعلم الفصحى بالشواهد المندرجة في النصوص، لأنها هي التي تيسر التعلم، وتضفي عليه متعة الحياة وأجواء الحبور الضامنة لزيادة الفاعلية في أثناء دروس اللغة؛ التي تؤمن لهم الطرائق الممكنة للقول الماتع، الذي ينجيهم من التقادع في اللحن كما يتقادع الفراش في النار، ويكتب لهم الامتلاء والضلاعة منها، فيعرفون كيف يعيشون في الفصحى وبالفصحى، ويميزون بين العلوي من الكلام فيودعونه ما يطرسون، والسوقي العامي فلا يتفوهون به رغبة منهم في بلوغ الكمال والجمال. وقديما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الجمال في الرجل؟ فقال: «فصاحة لسانه». بل إن الأصمعي يروي أنه دخل يوما على هارون الرشيد، فقال له: «يا أصمعي، ما أحسن ما مر بك في تقويم اللسان؟» فقلت: أوصى بعض العرب بنيه فقال: «يا بني أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة فيتجمل فيها، فيستعير من أخيه دابته، ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه» (٣). ولذلك قال يحيى بن خالد: «ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحا عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني» (٤). فأين هذا من كلام المعاصرين الذين طارت الفصاحة عن ألسنتهم كما طارت جرادة العيار، على هذه الشاكلة التي تظهر أنهم لا يميزون بين: «الغلط والخطأ والخطء» حيث إن الغلط هو أن يخطئ المرء وجه الصواب، أو هو وضع الشيء في غير موضعه، والخطأ نقيض الصواب، ولذلك قالت العرب في المثل: «مع الخواطئ سهم صائب» وهو مثل للذي يكثر الخطأ، ثم يأتي في بعض الأحيان بالصواب.

والمخطئ: من أراد الصواب فصار إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ (النساء:٩٢)، ثم قال في الآية الموالية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾(النساء:٩٣). فثبت بالدليل المخرس أن فعل «أخطأ» والاسم «الخطأ» غير متعمدين؛ والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي؛ من فعل خطئ يخطأ خطأ وخطأة، والمصدر الخطء وهو الذنب والإثم كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾(الإسراء:٣١). يتضح من هذه الشواهد أن الانتفاع بالدقة في وضع كل لفظة في مكانها، وتنزيلها المنزلة اللائقة بها من كمال الفصاحة، ولذلك لا نقول: أخطيت في المسألة، كما لا نقول: أخطأت متعمدا، بل نقول: اجتهدت فأخطأت، وغلطت في ترتيب الحجج، وارتكبت الخطيئة، وتعمدت الخطء. وقانا الله من أن نأتي مثل هذه الذنوب والمنكرات التي لن نجد يوم الدين من يحمل عنا خطاياها.

هذا بعض ما ثبت لي في هذه الألفاظ، وقد مررت ببعض مثالب استعمالها ألطف من مرور الوسن بالأجفان. أرجو ألا أحيد في ما أطرس عن محجة السداد، وأن تمكنني مناهز الفرص من حفظ موارد الفصحى، حتى تكتسي حلل الإتقان، إذا لم أبلغ بها حلة الإحكام.

الهوامش:

١و٢- نحو النهوض باللغة العربية د. محمد بلاسي. مجلة اللسان العربي. عدد مزدوج ٦٣و٦٤. ص ٣٢٧ و٣٢٨ محرم ١٤٣١ هـ ديسمبر ٢٠٠٩م، مكتب تنسيق التعريب. الرباط.

٣- المعجم في بقية الأشياء مع ذيل أسماء بقية الأشياء. أبوهلال العسكري. دراسة وتحقيق أحمد عبدالتواب عوض. ص ٥٧ و٥٨. دار الفضيلة.

٤- المستطرف في كل فن مستظرف. شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي. المجلد الأول ص٦٦ طبعة منقحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان.

قراءة في رواية «ساق البامبو»...
عندما تفقد الإنسانية نقطة البداية

محمد أبو السعود الخياري
باحث وناقد أدبي

نجحت رواية ساق البامبو (٢٠١٢) للروائي الكويتي الشاب سعود السنعوسي في الفوز بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) في نسختها الخامسة للعام ٢٠١٣.

ومن بعد النجاح النقدي لرواية السنعوسي، والذي وضعها في مقدمة الروايات العربية في ٢٠١٢، جاء النجاح الجماهيري الواسع؛ لتقرأ الرواية خارج حدود الكويت، ويصبح السنعوسي -الذي تخطى عقده الثالث بعام واحد فقط- حديث المثقفين في الوطن العربي.

ولعل أهم ما يلفت النظر في رواية الروائي الشاب هو الجدية في التناول، والجرأة في الطرح، حيث بدت الرواية سيرا حثيثا في اتجاه وحيد هو الانتصار لقيمة المساواة والإنصاف للإنسان. وظهر الراوي يصدع بأقوال لم تكن من قبل بالتي يمكن الحديث فيها.

جائزة البوكر... فأل الخير أم اكتئاب النجاح؟

حاز برناردشو على جائزة نوبل في الآداب، لكنه رفضها قائلا: «إن جائزة نوبل تشبه طوق النجاة الذي يلقى لأحد الأشخاص بعد أن يكون هذا الشخص قد وصل إلى الشاطئ».

أمر البوكر مع السنعوسي مختلف، فلقد ألقي إليه طوق البوكر وهو لا يزال بجوار الشاطئ؛ لم تبتل سوى قدميه.

قبل إنجاز البوكر لم يكن سعود السنعوسي قد قدم إلى الرواية سوى رواية وحيدة هي «سجين المرايا» عام ٢٠١٠، وانتظرت بضع سنوات قبل أن يصدر الراوي طبعتها الثانية، بعد أن حققت «ساق البامبو» الجائزة، لتظهر «المرايا» حاملة تنويها تجاريا «للروائي الحائز على جائزة البوكر ٢٠١٣». وللحقيقة، فإن هذا التوقيت المبكر جدا، الذي صادف النجاح في قمته، إنما قد يمثل شركا نفسيا لصاحبه، حيث قد «حقق ما لم يحققه الأوائل» (هكذا عبرت الشاعرة الكويتية سعدية مفرح)، فما الدافعية التي ستساعد السنعوسي في مشواره التالي مع الرواية؟ وهل ستصبح «ساق البامبو» العقدة التي يتضاءل إبداع السنعوسي التالي أمامها مهما أجاد، لأنها تفوقت على الجميع بقوة البوكر؟

من جانب مغاير، قد تكون البوكر المبكرة فأل خير وقوة نفسية مضافة إلى الأديب، ولا سيما أنه قد توازى مع الجائزة تكريم مادي وأدبي كبير، كما صار السنعوسي أشهر الأدباء الخليجيين تقريبا، وكلها محفزات لتحقيق إنجاز أكبر، أو على الأقل لإثبات الجدارة بالجائزة، وأنها لم تكن هبة الصدفة.

الإنسانية في مواجهة رياح القبيلة

يأتي عنوان «ساق البامبو» دالا، منذ البداية، على الرسالة السياسية في الخطاب الروائي. والراوي يبدو ودودا لدرجة كبيرة عندما يقدم تفسيرا للعلاقة بين ساق البامبو (الخيزران) ومحنة بطل الرواية (عيسى)، الذي ينتمي إلى الكويت عبر والده ذي الأسرة العريقة الغنية، بينما تبدو الشوكة المنغرسة في قلبه وتفرض الشتات على مصيره ممثلة في القوس الآخر الذي يحاصر حياته (أمه الخادمة الفلبينية). وهو وإن كانت نطفته قد وضعت في الكويت بين ثري وخادمته، إلا أن طفولته قد كانت بائسة شهدتها أحراش الفلبين، بعد أن اضطرت الأم إلى أن تأتي به أهلها. وتحت تأثير حكايات أمه بدت الكويت في أفق الصغير وأحلامه الجنة التي يمتلك فيها نصيبا؛ فهي بلده وبلد أبيه.

يقول عيسى لنفسه: «لو كنت مثل شجرة البامبو، لا انتماء لها. نقتطع جزءا من ساقها... نغرسه بلا جذور في أي أرض... لا تلبث الساق طويلا حتى تنبت لها

جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في أرض جديدة.. بلا ماض.. بلا ذاكرة.. لا يلتفت إلى اختلاف الناس حول تسميته... كاوايان في الفلبين... خيزران في الكويت... أو بامبو في أماكن أخرى» (الرواية ص٩٤).

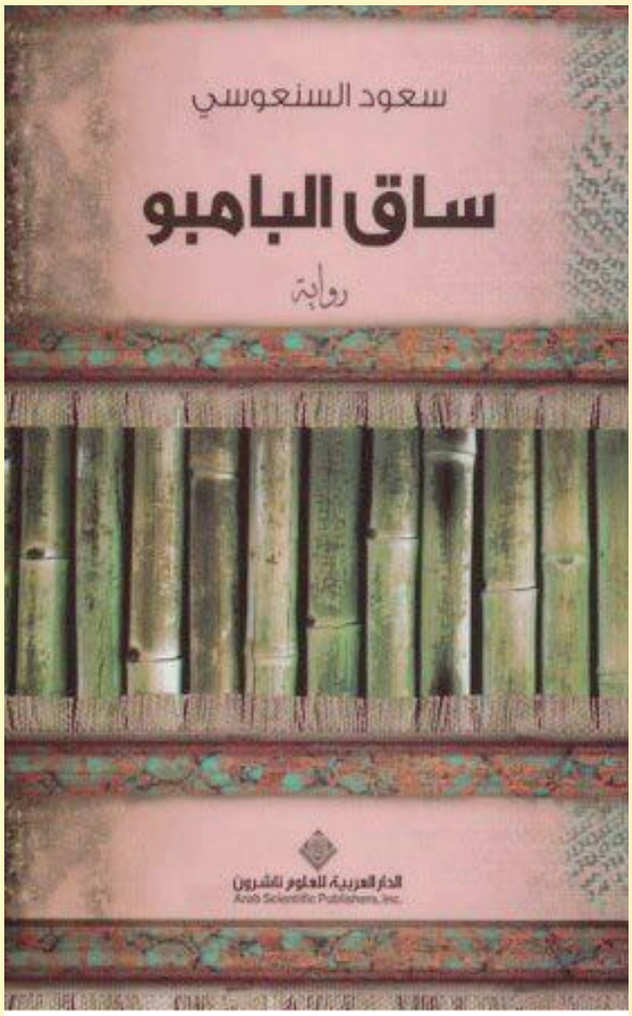

شجرة المفارقة... جذورها في الكويت وثمارها في الفلبين!

خرج عيسى إلى الدنيا بعد زواج أبيه السري بالخادمة، ولم ينجح ممكن الواقع في هزيمة مستحيل التقاليد. فالزواج السري كشفته العائلة الثرية، وأرغمت الخادمة (الأم) على المغادرة، وعجز زوجها (راشد الطاروف) عن حماية حريته، أو زوجته، أو ولده. وأخذ عيسى من الأطراف فرقتهم؛ حتى أضحى التناقض يشطر حياته شطرين؛ فهو «عيسى» وهو «هوزيه»، وهو لا يكاد يدري ديانته: أمسيحي كأمه أم مسلم كأبيه؟ يقول عيسى «كنت أمام إبراهيم أجلس، كان صامتا كما كنت أنا أيضا. في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع، في أذني اليسرى قرع أجراس الكنيسة. في أنفي رائحة بخور المعابد البوذية تستقر. انصرفت عن الأصوات والرائحة والتفت إلى نبضات قلبي المطمئنة، فعرفت أن الله هنا» (الرواية ص ٣٠٠).

والوطن إشكالية أخرى: أهو موطن الفقر والأم والنشأة والواقع، أم موطن الثراء والأب والمستقبل والحلم؟ وهو يبدو متأملا في أسى وبؤس ذلك المصير الذي أورثه له أبوه، بل يفعله كثير من أشباه أبيه بمن هن مثل أمه. يقول هوزيه عن مأساته: «تتحول الفتيات هناك إلى مناديل ورقية يتمخط بها الرجال الغرباء... يرمونها أرضا... يرحلون ثم تنبت في تلك المناديل كائنات مجهولة الآباء، نعرف بعضهم بالشكل أحيانا، والبعض الآخر لا يجد حرجا في الاعتراف بذلك، لكنني الوحيد الذي كان يملك ما يميزه عن أولئك مجهولي الآباء... وعدا كان قد قطعه والدي لوالدتي بأن يعيدني إلى حيث يجب أن أكون، إلى الوطن الذي أنجبه وينتمي إليه؛ لأنتمي إليه أنا أيضا، أعيش كما يعيش كل من يحمل جنسيته، ولأنعم برغد العيش، وأحيا بسلام طيلة العمر» (الرواية ص ١٨).

وفي لغة سردية سهلة واضحة، وبنية سردية تقليدية تمتد زمنيا في اتجاه واحد؛ يتناول السرد حياة عيسى عبر خمسة فصول: تبدأ من «عيسى قبل الميلاد»، ثم «عيسى بعد الميلاد»، ثم «عيسى التيه الأول»، فـ«عيسى التيه الثاني»، والفصل الخامس «عيسى على هامش الوطن»، وختام أخير تحت عنوان «عيسى... إلى الوراء يلتفت».

أحضان العائلة الكبيرة... وأشواك الازدراء

يفلح عيسى في العودة إلى فردوس المخيلة (الكويت) بمساعدة صديق والده، وهو الحدث الذي جاء بعد أن فقد والده (راشد الطاروف) حياته في الغزو العراقي للكويت، وكانت صدمته الأخرى في رفض جدته استقباله في منزل العائلة. وأبدت الجدة بعض اللين ليصبح «هوزيه» داخل البيت لكن في غرفة بملحق البيت كالخدم. وتكشف الرواية عن حب تكنه الجدة للحفيد ذي الوجه الفلبيني (ويبدو أن هذه كانت مأساته الحقيقية... وجهه الذي يفضحه أو بالأحرى يفضح الأسرة العريقة)، هذا الحب بعثه في نفس الجدة صوت هوزيه المطابق لصوت ابنها الفقيد، وهو لحسن الحظ أو لسوئه، الوحيد في ذرية الطاروف الذي جاء ذكرا.

ومع مرور الأيام رقت الجدة للحفيد تدريجيا، وساعد على تطور العلاقة ظهور أخت لهوزيه من أبيه، هي «خولة»، مثلت طوق النجاة له، فقد كانت الجسر الذي التقى فوقه الحفيد وجدته. وانفرجت قليلا أحواله، إلا أنه في كل الأحوال كان معزولا عن الأسرة، لا يسمح له بحضور حفلاتهم، كما يقضي وقته ومناسباته وحيدا. وبدت النبتة غير قادرة على الثبات في التربة الجديدة القديمة مهما طال الزمن ومهما ارتوت بالماء.

لكن الأحداث التالية كانت تحمل له بؤسا، كما بدأت. فقد انتشر الخبر الذي حرصت الأسرة وكافحت من أجل

إخفائه، وعرف الناس بأمر حفيدهم «الفلبيني»؛ ليواجه هوزيه مصير الطرد من جديد، وأبدى مقاومة يائسة، ومحاولة للتمسك بوطن لم يشعر يوما أنه وطنه، حيث أقام فترة يعمل ويسكن مع صديقه حتى استسلم في النهاية.

وفي حيلة لبث مفهوم الديمومة لمشكلة عيسى، يقيم السرد لوحة بانورامية عند نهايته، عندما ينجب عيسى ولدا بملامح عربية من زوجته الفلبينية، ويسميه «راشد». وفي مباراة كرة قدم بين الفلبين والكويت في الفلبين تجلى تمزق الهوية وانشطارها لدى عيسى عند كل هدف يحرزه أحد الفريقين في الآخر، بينما كان يصرخ راشد الصغير فرحا مع هدف الفلبين «اقشعر بدني. رعشة تسللت من أعماقي إلى أطرافي ما إن شرع لاعبو المنتخب الكويتي بترديد النشيد الوطني: وطني الكويت سلمت للمجد... وعلى جبينك طالع السعد. وجدتني أترنم بلحن النشيد، ثم انطلقت أصوات من حولي ما إن انتقلت الكاميرا إلى لاعبي المنتخب الفلبيني يرددون: وطني الحبيب... لؤلؤة الشرق... توهج الفؤاد... مهد الشجاعة» (الرواية ص ٣٩٥).

ثمار وسط أعواد البامبو

وهكذا تبدو رواية «ساق البامبو» علامة دالة وفارقة من جهات عدة:

– فقد أكدت حقيقة مهمة، هي أن إبداع الشباب فيه أصالة فنية، وعمق فكري، وجدية في تناول قضايا مجاوزة للوطن، تتسع لتلامس هموم الإنسان؛ لأنه إنسان فقط ليس غير.

– تناول القيم والقضايا الجادة كقيمة المساواة بين الناس، وقيمة التمسك بالهوية وما تؤكده من انتماء وحب للوطن... إنما هي أمور تجذب جمهور القراء، وتحقق نسب توزيع ومبيعات عالية جدا، وهو أمر أكدته رواية السنعوسي التي تخطت حاجز الطبعات العشر خلال عام واحد، هو ٢٠١٣. وهكذا سقطت النظرية القائلة بأن جمهور القراء وأرقام التوزيع العالية إنما هي حكر على الأدب الذي يحتفي بأمور تخاطب الغرائز، أو تكرس جهدها للتسلية والترفيه.

– القراء العرب، ولا سيما الشباب، مقبلون على القراءة، ورغم انتشار الثقافة الإلكترونية من هواتف ذكية وحواسيب لوحية وغيرها، إلا أن القراءة البسيطة الجادة هي القوة الحقيقية والمستقرة، وهو أمر أكدته عدة مؤلفات عربية معاصرة غير رواية السنعوسي مثل: كتاب «لا تحزن» للدكتور عائض القرني، ورواية «عزازيل» للدكتور يوسف زيدان... وغيرهما من المؤلفات التي استقبلها جمهور القراء العرب بحفاوة كبيرة.

– يؤكد فن الرواية من جديد أنه هجر دور المسلي والمهرج، أو حتى المؤرخ، إلى مساحة نقدية إصلاحية؛ يبدو الروائي فيها حاملا معول القيم وإذا به يقتحم معبد الكبائر الاجتماعية الحصين ليدك رأس أصنامه الكبرى. السنعوسي طرح أخطر قضايا مجتمعه الخليجي دون وجل، أو تردد. ودعا المجتمع إلى رؤية عيوبه ومواجهة ذاته، وذلك كله من خلال وضع الشاب ابن الخادمة الفلبينية في دائرة التركيز السردي، ومن أجل قضيته مع الهوية وبحثه أو تمسكه بوطن يلفظه رغم أن هذا الوطن هو وطن أبيه.

– القيم الإنسانية العليا هي بالضرورة تبناها الإسلام الحنيف، وليست هناك نصوص إنسانية أقوى وأكثر دلالة على المساواة والمواطنة من تلك الوصايا الخالدة التي شهدتها خطبة الوداع (كلكم لآدم وآدم من تراب)، (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

– أعار الراوي شخصياته ألسنة حكيمة تقطر بالبلاغة وترسل العظات، بيد أن السرد لم يبن الشخصيات لتكون مقنعة لنا بدرجة كافية بأنها قادرة على نثر هذه الحكمة، مما يشي بأن الحكمة إنما أعدت خارج النص ثم دخلت إليه لتنطق بها الشخصيات، ومن ذلك:

– «الحزن مادة عديمة اللون، غير مرئية، يفرزها شخص ما، تنتقل منه إلى كل ما حوله، يرى تأثيرها في كل شيء حوله ولا ترى».

– «الغياب شكل من أشكال الحضور، يغيب البعض وهم حاضرون في أذهاننا أكثر من وقت حضورهم في حياتنا».

– «ليس المؤلم أن يكون للإنسان ثمن بخس، بل الألم كل الألم أن يكون للإنسان ثمن».

– انحاز السنعوسي إلى الفكر الجاد ونبذ القضايا التافهة؛ فالتف حول روايته الشباب، ولم يحرص على مواربة الأنظمة؛ فدعاه أمير الكويت للقائه وقام بتكريمه على الرواية ونجاحها، وكان قبيل هذا التكريم قد فاز بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) للعام ٢٠١٣ على الرغم من أن سيارته الروائية ما زالت في مرحلة «التليين».

فضلك قد جرى

محمد عباس
كاتب مصري

يا رب وحدك من يرى
نفسا تتوق إلى الذرى
تهوى السجود لربها
رب الخلائق والورى
وتراك دوما مانحا
نورا يفيض لمن قرا
تشتاق منك لنظرة
فيها الشفاء لمن درى
يا رب فامنن بالهدى
وارحم فؤادا قد سرى
أضناه ليل دموعه
وسباه رغما عن كرى
وأتاك يحمل ذنبه
بين الدموع لتغفرا
ويلوذ بالرب الذي
خلق الوجود وقدرا
ويقول عبدك قد أتى
بحر الهداية مبحرا
رباه جئتك خاشعا
أرجو اللقاء تطهرا
أجتاز لجة حيرة
بين الذنوب لأعبرا
أنت الغفور لمن أتى
وبذاك فضلك قد جرى

المشترك الإنساني بين الشعوب

منتصر الخطيب
كلية أصول الدين بتطوان - المملكة المغربية

في كتاب «المشترك الإنساني» (نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب) (١)، يطرح الدكتور راغب السرجاني العقيدة كأسمى مشترك إنساني بين جميع الشعوب، منطلقا في إثبات ذلك من أن الإنسان -في نظره- لم يجد نفسه وحيدا في هذه الأرض، بل وجد غيره من البشر يسكن إلى جواره على الكوكب نفسه.

وقد لاحظ الإنسان أنه على الرغم من اتفاقه مع من حوله من البشر في أشياء كثيرة، إلا أنه يختلف عنهم في أشياء كثيرة كذلك، وأن هذا الاختلاف ليس في الشكل والمظهر فقط، ولكن في العادات والسلوك.

فالبيئات التي نشأ فيها البشر مختلفة، والظروف التي ترعرعوا فيها متباينة، وهي سُنّة ماضية؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

وهذا الاختلاف له مزاياه ومنافعه، ولكن في الوقت ذاته يحمل في داخله بذور فتنة، فكثير من البشر لا يقبلون المخالف لهم، وقد ينشأ صراع وصدام لا لشيء إلا لهذا الاختلاف.

كما أن الإنسان كذلك لم يخلق كاملا. ولذا، كان لزاما عليه أن يتعامل مع غيره من البشر الذين يكملون نقصه، وليس لأحد فضل على الآخر، كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿.. وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ..﴾ (الزخرف:٣٢). لذا، كان على الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان أن يسلك طريقين لا ثالث لهما:

الطريق الأول هو طريق الأسوياء؛ وهو سلوك سبيل التعارف على غيره من البشر والتعاون معهم للوصول إلى المصلحة المشتركة بينهم، وهذا الطريق يحقق منافع لا حصر لها.

الطريق الثاني هو طريق الأشقياء؛ وهو سلوك سبيل التصادم فيما بين الشعوب، فتظهر بالتالي التصرفات الأنانية والصلف والغرور في سبيل تحقيق المصلحة الشخصية دون النظر إلى مصالح الآخرين.

ولبناء هذه النظرية عقد المؤلف فصلا لتأصيل البناء الفكري لها، اعتبر فيه أن البشر جميعا إخوة في الحقيقة؛ كلهم لآدم عليه السلام، ومن ثم فالصفات المشتركة بينهم كثيرة ومتعددة. وهذه حقيقة علمية لا يجادل فيها أحد، حتى أولئك الذين ينكرون الأديان السماوية، فهناك ما لا يحصى من المشتركات بين كل البشر. يقول المؤلف بعد عرض تجربته في البحث في المجال الاجتماعي عن المشترك الإنساني: «خرجت من كل ذلك بأن البشر يشتركون بعضهم مع بعض في عدد يصعب حصره من المشتركات، فجمعت ما أستطيعه، ثم اجتهدت في تبويب هذه المشتركات تحت عناوين محددة تجمعها في أطر معروفة، ثم بدأت في تصنيف هذه المشتركات في مجموعات لها سمات معينة، سيكون لها أثر كبير في فهم طبيعة هذه المشتركات وأثرها في التعارف والتواصل.. ومن ثم خرجت بهذه النظرية التي أسميتها المشترك الإنساني» (٢).

ثم قسم المؤلف هذه المشتركات إلى أربع مجموعات؛ وهي: مجموعة المشترك الأسمى، ومجموعة المشتركات الإنسانية العامة، ومجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، وأخيرا مجموعة المشتركات الإنسانية الداعمة.

وما يهمنا هنا هو مجموعة المشترك الأسمى، والتي يقول عنها المؤلف: «وهذه المجموعة لا تضم إلا مشتركا واحدا فقط، وهو «العقيدة». وأنا أحتسب أن هذا المشترك هو أهم ما يميز الإنسان، وأغلى ما يمتلك، وأفضل شيء يعطيه «هوية» معينة، وهو أقوى رباط بين اثنين أو بين شعبين، وهو يتجاوز حدود الزمان والمكان، فيشعر أبناء العقيدة الواحدة بالانتماء إلى أبناء عقيدتهم الذين عاشوا قبلهم بألف عام -مثلا- ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين ينتسبون إلى أعراق مختلفة، ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين يعيشون في أرض بعيدة، أو في ظروف اقتصادية مختلفة تمام الاختلاف.. إنه الرابط الأسمى الذي لا يعلوه رابط، خاصة في الأوساط التي تشهد صحوة

دينية وعودة إلى الأصول..» (٣).

ويعتبر المؤلف أن العقيدة هي أصعب ما يمكن أن يغيره الإنسان، فقد يغير عمله أو بلده أو حتى شكله، لكن لا يقبل بتغيير عقيدته إلا في ظروف ضيقة جدا، وعادة ما يكون هذا بعد تغيير كامل في قناعات الإنسان.. يقول في ذلك: «والعقيدة مشترك بين كل البشر؛ بمعنى أن كل إنسان لا بد أن يكون له عقيدة. نعم، تختلف العقيدة من شعب إلى شعب، لكنها موجودة في كل الأحوال، وليس هناك إنسان بلا عقيدة، حتى الذين ألحدوا وأنكروا وجود إله لهذا الكون يعتقدون ذلك الأمر: أنه لا إله. ولهم تصورات وفلسفات تفسر لهم ما يعتقدونه.. وهم يتعصبون جدا لمعتقدهم هذا، ويشعرون أنهم على حق وغيرهم على باطل.. والحاصل في النهاية أن لكل إنسان -أيا كان هذا الإنسان- عقيدة ودينا حتى لو كانت هذه العقيدة هي اللاعقيدة، وحتى إذا كان هذا الدين هو اللادين..» (٤).

ثم ذهب المؤلف إلى تقسيم عقائد العالم إلى مجموعات حددها في ثلاث؛ ليبين لنا أهمية هذا المشترك الإنساني الأسمى، فهناك مجموعة الأديان السماوية التي تشمل المسلمين والنصارى واليهود، وهي تتفق قبل تحريفها في أن الإله ذات قائم بنفسه ليس كمثله شيء، يتصف بالقدرة والقوة والعلم والإحاطة، ويدبر أمر المخلوقات، ويصرّف شؤون الحياة، وأنه اختار من بين عباده رسلا وأنبياء وأوحى إليهم كتبا تمثل العقيدة الصحيحة، ودعت إلى الأخلاق السامية، وأن الناس مبعوثون بعد الموت لحياة أخرى خالدة، نعيما أو عذابا. والمجموعة الثانية، التي يمكن تسميتها بمجموعة الأديان الوضعية، كالهندوسية والبوذية، وأديان محلية أخرى تؤمن بالإله ولكنها ترى أن هذا الإله يمكن أن يتجسد في الأرواح أو في الظواهر الكونية من شمس وقمر ونجوم ونار وأوثان، كما يمكن أن يتجسد في معان مجردة، كالخير والشر والظلمة والنور. والمجموعة

الثالثة سماها بمجموعة اللادينيين، أو الملاحدة، الذين ينكرون وجود إله بالكلية، ويفسرون الوجود والحياة بتفسيرات مادية تستبعد أي ظواهر مما لا يدركه الحس أو تستند إلى نظريات علمية خاصة.

وانطلاقا من ذلك، طرح الكاتب سؤالا محوريا هو كالآتي: ماذا يمكن أن نفعل بعد أن عرفنا هذا المشترك الأسمى؟. وبين الإجابة بالقول: «إن من الثابت حقا أن تغيير جزئية في العقيدة أمر صعب للغاية، بل المفترض أنه مستحيل.. فأصحاب الأديان -سواء السماوية أو الوضعية- يعتقدون أن هذه العقائد والتشريعات هي من عند الإله. وبالتالي، ليس هناك مجال لتغييرها، ولا نملك ذلك، ولا نقدر عليه. ومن هنا، فليس هناك معنى أن نسعى إلى فكرة الالتقاء في منتصف الطريق، وليس هناك معنى لما يسمى بوحدة الأديان أو دمج الأديان، لأن هذا يعني تكوين عقيدة جديدة لن يرضى عنها الجميع، كما أننا لا نستطيع أن نلتقي في منتصف الطريق مع الذين ينكرون وجود الإله، ويرفضون مبدأ الدين من الأساس، فالذي يؤمن بالإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو البوذية لن يقبل مبادئ الملحد العقائدية، والملحد يرى كل أصحاب الأديان يعيشون في وهم كبير، ومن ثم فالالتقاء في منتصف الطريق -أيضا- مستحيل» (٥).

ولمزيد بيان، طرح المؤلف سؤالا ثانيا هو: فما الحل، هل أصبح الصدام حتميا هكذا؟ ليجيب عنه قائلا: «أبدا.. إن الحل الأمثل هو أن يقنع كل البشر أن العنف والجبر لن يغير من عقيدة إنسان، بل سيقود إلى دمار وخراب، ومن هنا جاء قول الله عزوجل في القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). وجاء كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿..فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ..﴾ (الكهف:٢٩). والذي يعلن عن اعتناق عقيدة معينة تحت سيف القهر ونتيجة ضغوط الإكراه، ليس في الحقيقة معتنقا لهذه العقيدة الإكراهية، إنما يعتقد عقيدته الأصلية في السر، بل لعله ازداد تمسكا بها، وسينقلب لا محالة إلى قنبلة موقوتة تنتظر فرص الانفجار.

إن الحل الأمثل حقيقة أن نلتزم بالتوجيه القرآني العميق، الذي قال فيه الله عزوجل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون:١-٦). ما أعمق هذا التوجيه.. إنه خطاب في منتهى الوضوح..» (٦).

ومن هذا المنطلق، يرى المؤلف أن على معظم أتباع الديانات أن يصلوا بعقيدتهم إلى العالم أجمع، وذلك عن طريق الحوار الهادئ اللطيف الذي يعرض فيه كل طرف بنود عقيدته في سلاسة وبساطة، لأنه لا بديل عن هذا الحوار إلا الحرب والدمار. يقول في ذلك: «إن حروب العقيدة هي أشرس حروب الدنيا وأشدها دموية.. لأن الإنسان ليس عنده مانع أن يفقد حياته في سبيل عقيدته، بل إن الموت في سبيل العقيدة غاية عند كثير

من أتباع الديانات.. وبالتالي فموت بعض الأفراد ليس نهاية الحرب، إنما الحرب لا تتوقف إلا بالفناء.. ولذلك على العقلاء في العالم تجنب الحروب العقائدية قدر ما يستطيعون، فلا يكره أحد أحدا على تغيير دينه، أو تبديل عقيدته، لأن الطرف الذي أُكره سيكون له كامل الحق في الذود عن عقيدته في هذه الحالة، ولن تتوقف الحرب أبدا..» (٧). ويرى المؤلف في نهاية هذا الفصل كنتيجة لذلك أن: «خلاصة حديثنا في مجموعة المشترك الأسمى أن كل البشر لهم تصور عن الإله، وهذا التصور يصبح عقيدة راسخة ليس من السهل التنازل عنها أبدا. وهذه العقيدة يمكن أن تجمع تحتها عشرات العرقيات والأجناس والألوان، ولكنها في الوقت نفسه إذا كانت سببا في صدام فإن هذا الصدام يكون مروعا. ولذلك، يجب عدم المساس مطلقا بعقائد الآخرين..» (٨).

ثم ختم المؤلف هذا الباب -الذي خصصه لبناء نظريته في المشترك الإنساني- بالحديث عن باقي المشتركات الإنسانية ضمن المجموعة الثانية التي يسميها المشتركات الإنسانية العامة؛ وهي الأمور التي يشترك في أصولها وفروعها كل الناس، ويمكن اعتبارها ميدانا فسيحا للتعارف والتلاقي، وتشمل هذه المشتركات: الاحتياجات الأساسية، والعقل، والأخلاق، والتملك، والكرامة، والحرية، والعلم، والعمل. ثم المجموعة الثالثة التي يسميها المشتركات الإنسانية الخاصة، والتي اعتبرها مشتركات موجودة في كل أمة ويقدرها كل إنسان، إلا أن بينها وبين سابقتها اختلافات فرعية؛ ويمثل لها بمشترك الثقافة، واللغة، والأرض، والعرق، والقانون، والتاريخ، والعادات والتقاليد، والأخلاق.. ثم ذكر المجموعة الأخيرة، وهي مجموعة المشتركات الإنسانية الداعمة؛ وهي التي تحسّن من مستوى الحياة وتسعد الإنسان، وقد أجملها في ثلاثة مجالات: الفن والسياحة والرياضة؛ فالفن حوار مع المواهب والإبداعات والأنماط الثقافية والاجتماعية والحضارية للشعوب المختلفة، والسياحة حوار مع التاريخ والجذور والماضي العريق للشعوب القديمة، وهي كذلك حوار مع الحاضر والحداثة والتقنية والتقدم التكنولوجي للشعوب الحديثة، والرياضة شيء يعلن عن نفسه في حياة الإنسان فطريا، سواء في الجانب الصحي أو في الجانب النفسي الروحي. وهذه المشتركات الداعمة مساحات مفتوحة للتعليم والتعلم؛ يأخذ فيها الناس بعضهم من بعض.

ولتفعيل نظرية المشترك الإنساني يطرح المؤلف سؤالا محوريا كذلك هو: كيف السبيل إلى تفعيل نظرية المشترك الإنساني، وتنزيلها إلى واقع الحياة العملي؟

وقد خصص الفصل الأول من الباب الثاني في هذا الكتاب للإجابة عن هذا السؤال، فبيّن أن أبرز آليات التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة هي الحوار، وقام بتجلية معناه وخصائصه، فقال: «ولسنا نعني هنا الحوار التقليدي الذي هو مجرد تبادل الكلمات بين الطرفين، وإنما نقصد الحوار الإيجابي المثمر الهادف إلى تحقيق نتائج عملية متمثلة في المصلحة المشتركة، حتى لو كانت هذه المصلحة مجرد المعرفة بالشعوب الأخرى..» (٩). ويتضح دور الحوار في ظل نظرية المشترك الإنساني في جانبه المتعلق بالعقيدة كمشترك أسمى من خلال تعاليم الإسلام التي توصي بأن يكون الحوار مع أي كان.

وهكذا نجد دعوة القرآن الكريم للحوار مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (العنكبوت:٤٦).

وكذلك دعوته للحوار مع المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، فقد حذر القرآن الكريم من التعرض إلى معتقداتهم بسوء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ...﴾ (الأنعام:١٠٨).

ومن هنا نتبين المنهج الإسلامي العام للحوار في أمر العقيدة، والذي يتجلى فيما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (النحل:١٢٥). وأشد الناس احتياجا للحوار هم العلماء والمفكرون كما يقول المؤلف: «فهؤلاء هم العقول التي تتشكل أولا بالحوار والأخذ والرد، ثم إنهم يشكلون العقول والقلوب؛ ويقودونها نحو تفعيل هذه الأفكار في الواقع العملي. ومثل هؤلاء، الذين يمثلون عقل الأمم، إذا لم يكونوا على استعداد للحوار فنحن على شفا عالم تتحدث فيه الأسلحة والقنابل، ولا شيء آخر» (١٠). وهكذا حرص المؤلف على دعوة عقلاء العالم إلى تجنب قيام نزاع له طابع ديني، حتى لا يأخذ الصراع أبعادا خطيرة، لأن إلباس المصالح الفردية والخاصة ثوبا دينيا يجعلنا أمام حروب لا تنتهي. ولهذا تجب مناهضة الاعتداء على الأديان، ومحاربة كل محاولة تسير في طريق إشعال حرب على أساس ديني، انطلاقا من اعتبار أن الإنسانية كتلة واحدة تجمع بينها مشتركات إنسانية متعددة ومتفاوتة من حيث الأهمية، كما رأينا. وأن نضع آليات لتفعيلها على أرض الواقع تجنبا لأي مخاطرة.

الهوامش:

١- كتاب المشترك الإنساني (نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب)، أ. د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى،١٤٣٢هـ-٢٠١١م، مصر.
٢- نفس المصدر، ص ١٤٦.
٣- نفس المصدر، ص ١٤٧.
٤- نفس المصدر، ص ١٤٨.
٥- نفس المصدر، ص ١٤٩.
٦- نفس المصدر، ص ١٤٩ و١٥٠.
٧- نفس المصدر، ص ١٥١.
٨- نفس المصدر، ص ١٥٣.
٩- نفس المصدر، ص ٥٨٨.
١٠- نفس المصدر، ص ٥٩٩.

النور

ادفع فقط أجرة البريد

- في الكويت **1.5 دينار**
- الدول العربية **3 دنانير**
- باقي دول العالم **8 دنانير**

تودع أجرة البريد في حساب المجلة

رقم الحساب المصرفي الدولي:

KW15KFHO 000000000011010074520

أو ترسل في شيك أو حوالة باسم مجلة «النور»
إلى عنوان المجلة المثبت أدناه

مجلة «النور» ص.ب 24989 الصفاة 13110 ـ الكويت

هاتف: 22964236 وفاكس: 22409414

شبكة الإنترنت: WWW.kfh.com

البريد الإلكتروني: alnoormag@kfh.com

كيف يسمو مجتمعنا بالإنسانية؟

أحمد ستریاوان هریادي
كاتب دراسات إسلامية

كم كانت قلوبنا تعشق نوعا فريدا من المجتمع البشري الذي يخلو عن كوادر الأهواء الطائشة، فيجد الاطمئنان مكانه في القلوب، والأمن مستقره في البيوتات! وكم كانت تنشد نمطا وحيدا من المجتمع الذي يسوده شيء يتفق والفطرة السليمة من خضوع للخالق وانقياد لتعاليمه، ويلاءم الطبيعة البشرية من الأخوة والتكامل والتكافل! وكم كانت ترجو طابعا خاصا من المجتمع الذي يلم بأفراده الصدق والحياء والعفاف!

إنما سردنا لك ذلك لشدة ما يعانيه مجتمعنا من الانحطاط الكلي بالإنسانية، عندما نلفت أنظارنا إلى الأوضاع الفردية والاجتماعية، فالإنسان اليوم لا يعرف نفسه أنه إنسان يتسم بالإنسانية المكرمة.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء:٧٠).

ولا يعي أنه يحمل في عنقه مسئولية عجز عن حملها الخلائق أجمعين كما حكاه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب:٧٢).

ولا يفقه أن الكون له تابع مسخر في أداء أمانته وتحقيق رسالته الإنسانية كما صوره تعالى في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية:١٢-١٣)، فيسعى جاهدا إلى تعميره، ويتعاون مع بني نوعه على بناء مجتمع إنساني يسوده الإيمان الحق والخلق الكريم.

لكن الذي ملأ خاطر هذا الإنسان هو تحقيق مطامعه الحيوانية، فيتصرف تصرف الحيوان، يغريه ما يغري الحيوان، وينظر إلى بني نوعه بمنظار المنافسة، وطبيعي أن يعامل منافسيه معاملة يتراكم فيها المكر والخداع وتتبع العيوب والمساوئ، فلا غرو إذا نبتت في كيانه جراثيم التكبر والحقد، ولا شك أنهما منطلق كل أنواع الجحود، أمثال جحد بالخالق، وجحد بالحقيقة، وجحد بفضيلة الغير.

ولعل ما أوردنا فيما سبق هو سر الأسرار لفساد علاقة الإنسان مع بني نوعه، زد على ذلك الطابع المادي الوافد على حياة الإنسان المؤمن، فيمتزج بها تمام الامتزاج، فهذا الطابع يتجسد في نظرية الحياة التي تسود هذا العصر وتحكم عليه ألا وهي: «النظر في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب» (١). فأصبحت المصلحة الجشعة بذلك محور الحركة الأساسي في علاقة الإنسان مع بني نوعه.

ومن هذا المنطلق صار الجاه مقياسا للفضل، ومعيارا للشرف، فلا عجب إذا شاع في حاضرنا نوع من استعباد الناس، إذ تزاحمت الفجوة الاقتصادية في مجتمعنا، فالغني يزداد غنى، والفقير يزداد فقرا، وأصبح أصحاب الجاه والمناصب آلهة، والناس في الطبقة البائسة لهم عبيدا، يتقربون إليهم بالمدائح الزائفة والميول الكاذبة، استباحا لهم في إشباع مطامعهم على أملاك هؤلاء الأغنياء.

ثم انتشر في مجتمعنا كل ما يدعو إلى ارتكاب الفواحش، والتمادي فيها.. فما ظنك أنت إذا أصاب أفراد المجتمع نوع من الفراغ، وأمامهم فرصة سانحة للخوض

في الملذات، والغوص في اللهو؛ أفلا يكون المصير إلا إلى الفساد الفكري والخلقي؟! وإذا تذاوب هذا الفساد مع عقلية المجتمع ونفسيته في أزمان طوال، أفلا يكون الفساد إلا طابعا حتميا لذلك المجتمع؟! وإذا انطبع الفساد في عقلية المجتمع ونفسيته، فلا جرم إذا انقلبت الفطرة السليمة التي يعرف الإنسان بها خالقه فاسدة، والذوق السليم الذي يتذوق به الأشياء الحميدة مرتكسا.

ونحن عن مخاطر البيئة الفاسدة نستحسن ما قاله العلامة محمد الغزالي: «والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل، ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج، وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل، وضرورات الفكر وأصل الخلقة» (٢).

ومن هنا ترى كيف تتشعب المخاطر التي يتعرض لها مجتمعنا، فالمخاطر لا تأتي من البيئة الفاسدة فحسب، بل تأتي -كما مر بنا- من تلقاء نفس الإنسان الذي يتكون منه المجتمع.. ولعمري، ما عسى نحن فاعلون؟ فكأن زوايا الحياة جمعاء قد تجاوبت على إبعاد العباد عن المعبود سبحانه، وتعاونت على إخفاء معين الهداية الصافي، وتوافقت على طمس بواعث الإيمان في النفوس والجهاد في سبيله، وتداعمت على الانحطاط بالإنسانية إلى أحط الدركات.

السمو الاجتماعي بالإنسانية على منهج الإسلام

ما جاء الإسلام إلا ليعود بالإنسان إلى سيرته الأولى في أصل الخلقة، والقرآن -وهو دستور الإسلام الأول- إنما نزل ليأخذ بيد الإنسان ويريه قيمته الذاتية، بعد أن خاض في غفلة داجية، وغاص في ذلة خابية، فيعي بهذا الكتاب المجيد أنه -كما قال الإمام محمد عبده- «عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»-، فيعيش -بعد اهتدائه بهذا القرآن- حياة الأسياد التي تتأبى عن التذلل لوجه الخلق أيّا ما كان الأمر، ويتسم بما اتسم به الأسياد من غزارة في العلم، وسعة في الثقافة، ووفرة في الخبرة، ويتصف بما اتصف به الأسياد من الرجولة والحلم والشجاعة والكرم والوفاء والحياء والعفاف، ويتصرف تصرف الأسياد من إيثار غيره على نفسه، وبذل أقصى الجهود في تحقيق العدل والأمن بين بني نوعه.

فلا يهجس في أنفسنا أن حياة الأسياد هينة ميسورة كما نتصورها، وإلا لما تعرضت أوضاع العالم إلى الانحطاط الكلي بالإنسانية، إذ أصبح بنو آدم كلهم أسيادا، يراعون أنفسهم دائما على أفضل أحوالها، ولنعلم أن في السيادة مشقة لا قبل لها، ولا ينقاد لها -كما قال الماوردي- «إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم» (٣)، وعن مشقة السيادة قال المتنبي (٤):

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتّال

وما السنة النبوية المطهرة إلا نموذج فريد لحياة الأسياد الحقة، وبيان مفصل لما ينبغي أن يتحلى به الأسياد، ودليل واضح أن هذا النوع من الحياة السامية قد تحقق مرة بعد مرات في تاريخ البشرية.. إذن، فما بال هذه الحياة الشريفة لا تتحقق في حاضرنا، ونحن مع هؤلاء الكبار سواسية في أصل الخلقة، وفي إمكانية تحقيقها، ويقوي تلك الإمكانية أن بين أيدينا نفس الكتاب الذي كانوا بهديه مهتدين.

وما أظن أن تعاليم الإسلام -التي هي منبع وحيد لكل أنواع الرقي والسمو بالإنسانية- جاءت لتكون تاريخا يذكر وطقوسا تتلى، بل إنما جاءت لتكون واقعة تحقق وأسوة تقتدى. نعم، لقد سدت حاضرنا عن تحقيقها أزمة روحية، وعاقنا عن التأسي بها جفاف عاطفي، فضلا عن معرفة أي نوع من الحياة السوية -المقتبسة من القرآن والسنة النبوية- التي تحققت في تاريخ البشرية.

لنعرف قليلا لوازم السمو الاجتماعي بالإنسانية على منهج الإسلام:

إيمان المجتمع الصادق بالله

فالمجتمع الوحيد الذي استطاع أن يبدي ما للإنسانية من عجائب هو المجتمع المؤمن بالله الأحد حق الإيمان، ولمعترض أن يعترض علينا أن الإيمان ليس عاملا رئيسا في استخراج تلك العجائب، والغربيون الذين أصبحوا خير مثال في الجحد بالله، استطاعوا أن يحققوا سيادة الإنسان في الكون بمواهبهم الفذة من إنتاجات عجيبة مبهرة، ويستولوا بها على العالم أجمع، ويفعلوا بها ما يشاءون.

فنقول لهم: صحيح أنهم وصلوا بالعلوم والصناعات إلى مرحلة لا يعقل جحد آثارها، لكن ما هي إلا رزايا على الإنسانية جمعاء، وما الحربان العالميتان في القرن

العشرين إلا مقدمة لحروب أكثر فظاعة وبشاعة في المستقبل، فالنظرة العامة إلى الأوضاع السياسية السقيمة في العالم اليوم - خذ سوء أوضاع أوكرانيا وتدخل روسيا وأمريكا عليها في أوائل مارس ٢٠١٤م على سبيل المثال- تبدي لنا أن الحرب العظمى في انتظار أوفق توقيت لبدئها، وترقب أشجع دول في إشعال نارها.

صحيح أنهم استطاعوا أن يبدوا لنا العجائب المادية للإنسانية، ولكنهم أخفقوا تمام الإخفاق في إظهار ما للإنسانية من العجائب الروحية، المتمثلة في حياة الأسياد الحقة السالفة الذكر، فظهروا أمام العالم -مع قوتهم الباسلة- أطفالا في عقولهم وتصرفاتهم، لا يفقهون ما لهم وما عليهم، ولا يهتدون سبيلا، وما القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي، إلا نموذج ساذج عن عدم فقههم لمعاني الإنسانية السامية، بالإضافة إلى فقد مشاعرهم وموت ضمائرهم.

ومما سبق تبين لنا أن ما قصدناه من عجائب الإنسانية، هو العجائب المادية والروحية لها على السواء، فهذا النوع من العجائب لن يتحقق للإنسانية إلا حين يؤمن ذلك المجتمع ببارئه سبحانه، وينقاد متضرعا لتعاليمه، فهذا الإيمان الصادق والعجائب الإنسانية هما اللذان يخلقان التوازن في كل ناحية من نواحي الحياة.

ولنتصفح صفحات تاريخنا لنتيقن أن الإيمان الصادق بالله وحده، هو القادر على تحقيق حياة الأسياد الحقة، واستخراج عجائب الإنسانية الكامنة، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، هم الذين حققوا حياة الأسياد، فهم قوم متصفون بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾(المائدة:٥٤)، ومتسمون بقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩).

ومن مظاهر عجائب الإنسانية فيهم بسبب إيمانهم أن «انقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله، انقلبت حياته ظهرا لبطن؛ تغلغل الإيمان في أحشائه، وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الدم والروح، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها، وغمر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلا غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق» (٥).

أضف إلى ذلك أنهم كانوا سذجا كل السذاجة قبل إسلامهم، وما عثرنا عليه من طبيعة العرب ونفسيتهم وعقليتهم -في مقدمة العلامة ابن خلدون، وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين-؛ يزيدنا يقينا أنهم في منتهى التخلف علميا وثقافيا وحضاريا عن غيرهم من الأمم، ونحن بعد ذلك نستطيع أن نستبعد إمكانية تغلب العرب على الفرس والروم حينئذ، ذلك بعد مقارنة أحوال العرب السمجة بالنسبة إلى كلتا الأمتين العظيمتين. لكن ماذا حدث؟ المسلمون العرب قادرون على التغلب على الأمم المجاورة لهم. وما السر في ذلك؟ إنه الإيمان العميق بالله وحده هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك، بتأثيره البيّن في عقلية هؤلاء العرب ونفسيتهم وأساليب حياتهم ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢).

● مبالغة المجتمع في مراعاة الناحية الأخلاقية

لعل القارئ يتساءل: لماذا أضفنا كلمة «مبالغة» إلى المجتمع؟ فنقول له: لأن الأخلاق -وهي من لوازم صدق الإيمان- لا تتكون في يوم أو يومين، ولا بد لها من تربية تدوم، وتهذيب يطول، لا سيما في مراحل النشوء، أضف إلى ذلك لوازم الانحطاط الأخلاقي الدخيلة من وسائل لا تعد التي تحيط بنا، مما تضطرنا -بعد

غرس الإيمان في النفوس- إلى بذل ما في وسعنا في مراعاة الناحية الأخلاقية.

وأخلاق المجتمع الكريمة دليل على قوة إيمانهم بالله، لأن الإيمان الصادق يستوجب المؤمن أن يكون متحليا بمكارم الأخلاق مهما كانت الظروف.. وما انغمس مجتمعنا في فساد أخلاقي، وهبوط إنساني، إلا وقلوبهم قد خلت من الإيمان، ولعل هذا ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن» (٦)، ومن هنا نستنبط أن مكارم الأخلاق نتيجة حتمية لصدق الإيمان.

إذا كان الإيمان سمة روحية للإنسانية، فمكارم الأخلاق سمة جسدية لها كما أسلفنا. ولعمري، هل يصح للإنسان أن يسمى حيا، إذا كان كائنا من جسد فقط أو روح فحسب؟ كلا.. بل لا بد من كليهما. كذلك الإيمان ومكارم الأخلاق، وعلى ذلك لم يكن ديننا قليل الاهتمام والعناية بالأخلاق، بل أخذت مكارم الأخلاق مكانة عظيمة في الإسلام، حيث جعلها رسول الله ﷺ مقصدا أسمى من بعثته إذ قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٧).

ولنتجه إلى تعاليم القرآن لنعلم مدى اهتمامها بمراعاة أخلاق المجتمع.. فمن يقرأ سورة النور -على سبيل المثال- يجدها حافلة بآداب الحياة الاجتماعية، بل آخذة سبيل الشدة على وجوب التحلي بها، كما صورها قوله تعالى في مستهل السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾(النور:١)، وسبيل الحزم في إقامة الحدود على مرتكبي الفاحشة بدون تردد كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(النور:٢). ومن هنا يتبين لنا -كما قال الأستاذ سيد قطب- «مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية» (٨).

الخاتمة

وبعد، فخلاصة ما سبق أننا إذا أردنا أن يسمو مجتمعنا بالإنسانية، فلا بد من فهم الإنسانية على وجهها الصحيح، فالإنسانية الحقة هي عندما يكون الإنسان عبدالله وحده، وسيدا لكل شيء بعده. والإنسانية الحقة هي عندما يحقق الإنسان سيادته في الكون، فيحيا حياة الأسياد الحقة، ويتصرف تصرف الأسياد، ويتصف بما اتصف به الأسياد، ويتخلق بأخلاق الأسياد.

ومع ذلك فإننا اعترفنا بأن حياة الأسياد ليست هينة ميسورة التطبيق كما أسلفنا، لكن مهما يكن صعب تطبيقها مرتقيا، فإن ذلك ليس مبررا للخنوع على الذل، والخضوع للأعراف الفاسدة، لأننا وجدنا في تاريخ البشرية مجتمعا يطبقون حياة الأسياد الحقة، وكيف تتجلى منهم عجائب الإنسانية، روحية كانت أو مادية.

ووصلنا إلى أن الذي جعل حياة الأسياد الحقة متحققة التطبيق هو إيمان المجتمع الصادق بالله، ومبالغتهم في مراعاة الناحية الأخلاقية، ذلك لأن صدق الإيمان سمة روحية للإنسانية، ومكارم الأخلاق سمة جسدية لها.. ومن ثم، فالذي يهمنا حاليا تجاه مجتمعنا، هو كيف نجعل الإيمان مترسخا في قلوبهم، ومكارم الأخلاق منطبعة في سلوكهم؟

وأصبح مجتمعنا -برسوخ الإيمان وانطباع مكارم الأخلاق- خاليا عن كوادر الأهواء الطائشة، فيجد الاطمئنان مكانه في القلوب، والأمن مستقره في البيوتات كما سبق أن قلنا، ويتحقق كون الإنسان متدينا بالفطرة فينقاد إلى تعاليم خالقه متضرعا؛ ومدنيا بالطبع فيتعاون مع بني نوعه على البر والتقوى، ويحقق معنى الإخاء فيتكافل ويتكامل. ولا شك إذا اتسم مجتمعنا بتلك الأوصاف الفاضلة، فإننا قد حققنا الخيرية في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠). والله أعلم!

هوامش

١- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠١٠م)، ص١٩٨.

٢- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (دمشق: دار القلم، ط١٢، ٢٠١٢م)، ص٣٨.

٣- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، (القاهرة: جنة الأفكار، ٢٠٠٦م)، ص٣٠٩.

٤- أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، تحقيق: عبد المنعم خفاجي وغيره، (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٩٤م)، ص٣٠٥.

٥- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٥.

٦- رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة.

٧- رواه البيهقي بسنده عن أبي هريرة.

٨- سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط٢٠١١، ٣٩م)، ٤/٢٤٨٦.

د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وكلما قوي الإيمان واشتد عوده عظم البلاء.. سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة» (١).

واشتداد البلاء لاستخراج مقامات العبودية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الأنعام:٤٢)، فالتضرع هو دعاء الله وسؤاله بذل وخشوع، وإظهار للفقر والمسكنة، وهذه الحالة يحبها ربنا ويرضاها، بل أمر عباده بها: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأعراف:٥٥)، وقال في بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف:١٦٨).

ومن أعظم فوائد البلاء وساعات العسرة أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عز وجل، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة، فيحقق كمال الربوبية والألوهية، وتنطلق سهام الدعاء في كبد السماء: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الدخان: ١٢).

قال داود عليه السلام: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء (٢).

وكما أن الشدائد تظهر معادن الرجال، كذلك وقت العسرة والشدة تظهر مقامات الإيمان، وكلما اشتدت مطارق العسرة علت في القلوب مقامات الإيمان، وزاد اعتماد القلب ويقينه على الله، ولاذت الجوارح بالخشوع والاستكانة.

أنت الملاذ إذا ما أزمة شملت
وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت المنادى به في كل حادثة
أنت الإله وأنت الذخر والأمل
أنت الرجاء لمن سدت مذاهبه
أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة
عليك والكل ملهوف ومبتهل

وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (المؤمنون:٧٦). وتتعدد مطارق العسرة وتحيط المؤمنين من جميع الجهات، حتى تطرق بشدة النفوس والأموال والثمرات، حتى تصاب بشيء من الخوف بحكم طبيعتها، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾(البقرة:١٥٥)، كما يبتلى المؤمن في نفسه يبتلى بغيره، فيبتلى بأهله وأولاده:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (التغابن ١٤-١٥)، ويبتلى بعدوه وبالكفار والمشركين والمنافقين: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ (آل عمران:١٨٦).

ولقد صبر الأولون وفجروا منابع اليقين والإيمان -رضي الله عنهم- في مواطن العسر والزلزلة، وظهرت مقامات التسليم والثبات والصمود، ففي محنة الأحزاب -وغيرها كثير- ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وأحاط بهم الكفار والمنافقون، وخرجوا بطرا ورئاء وصدا عن سبيل الله، فقيل لأصحاب رسول الله ﷺ: إن الناس قد جمعوا لكم.. فما زادهم تجمعهم إلا إيمانا وتسليما، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران: ١٧٣).

هذا حال أهل الإيمان عند الشدائد وفي ساعات العسرة، أما حال أهل النفاق فهاكم وصفه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب:١٢)، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾(النساء:١٤٣)، ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾(الأحزاب:١٣-١٥).

رأينا صمود وثبات المؤمنين الذي تستحي منه الجبال الراسيات، وحال المنافقين الذي يشيب له الولدان، ولكن شتان بين حال وحال!! ولكن سرعان ما يزول العجب عندما تعرف أن هذا الإيمان في ساعات العسرة إنما منبعه اليقين في الله أولا، ثم في الاقتداء بخير الصامدين الثابتين ﷺ، فيتضاءل ثباتهم أمام ثبات القدوة الحسنة ﷺ، فقد امتلأت حياته بألوان متعددة من البلاء حتى قبل مجيئه إلى هذه الدنيا، فقد استقبل حياته بفقدان أبيه وولد يتيما، ثم فترة وجيزة ويفقد أمه، ثم يعوضه الله بجده وعمه، وبالأريبة الحنون السيدة خديجة -رضي الله عنها- ولكن لم تستمر الأمور على حالها، فيفقد عمه وزوجه في عام أطلق عليه عام الحزن، ليشتد البلاء عليه من السفهاء، فيبحث عن بيئة جديدة خصبة، وفيها منعة لتبليغ رسالة الله، فيذهب إلى الطائف قاطعا طريقا شاقا يقدر بخمسة وثمانين كيلو مترا، فيجد قسوة أشد وتضييقا وخناقا، ليقذفه الصبية والعبيد والسفهاء بالحجارة، فهذا البلاء وهذه الشدة تستخرج أعلى مقام الإيمان والعبودية لله، حيث رفع ﷺ يديه قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» (٣).

والنبي ﷺ يلخص ما لقيه في الطائف وغيره بقوله لعائشة رضي الله عنها، عندما قالت له: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم

أحد؟، قال ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، أن عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلاب -هكذا قال ابن طريف، وإنما هو كلال- فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مغموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله عزوجل قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» (٤).

فانظر ماذا حصل لنبينا ﷺ ومن معه من المؤمنين من عظيم المحن والابتلاء، ولكنهم في الوقت نفسه واثقون بنصر الله تعالى ووعده؛ ولذلك تساءلوا: متى نصر الله؟! قال الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(البقرة:٢١٤): «أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسوله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من البأساء وهي: شدة الحاجة والفاقة، والضراء وهي: العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟! ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب، وأنه معليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه؛ فأنجز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا» (٥).

الرسول ومن معه سألوا متى نصر الله؟ ولم يقولوا أين نصر الله؟ والفرق شاسع بين السؤالين، فالأول سؤال الواثق في نصر الله وفرجه، والسؤال الثاني سؤال يشتم منه رائحة الشك والعجلة، وهذا حال من لا يعرفون سنن الله في كونه، ولا يدركون حكمة الله في عباده، فقد يتأخر الفرج والتمكين والنصر وقد يأتي سريعا، وذلك حسب مقام الإيمان من قلب العبد واستجابة العباد لربهم، أو أن التأخير يأتي لحكمة لا يعلمها إلا الله، وهذه الحكمة تصب في مصلحة العباد، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(البقرة:٢١٦)، أو أن التأخير بسبب ما يعد لهؤلاء المتجبرين الظالمين من عقاب، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾(مريم:٨٤)، أو ليتمادى الظالم في غيه ليسطر حتفه بيده فيكون الإمهال لحكمة: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (آل عمران:١٧٨).

وتوالي ساعات العسرة على المؤمن لا تعني استمرارها وسيطرتها، لأنه كلما اشتد البلاء، وعظمت المحنة بالمؤمنين الصادقين الثابتين فإن فرجهم يكون قريبا، وتلك سنة كونية قدرها الله سبحانه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ (الشرح:٦).

إذا ضاقت بك الدنيا
ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين
تأمل فيهما تفرح

وليتأمل أصحاب الشدائد والابتلاءات كيف أن الله جل وعز عبر عن ساعات العسر والضيق بأنها مجرد مس لا تتمكن أبدا من المؤمن، وهي سرعان ما تتكشف ويأتي الفرج من الله، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(البقرة:٢١٤).

ولتعلم الأمة الإسلامية أنه لم ولن ترفع مطارق العسرة وزلزلة الابتلاء إلا بالإيمان الجازم، والتعرف على الله عز وجل في الرخاء، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال له: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» (٦).

و في رواية: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم: أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم: أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» (٧).

وقد كشف الله عن عبده ونبيه يونس عليه السلام، عندما أحاطته الظلمات الثلاث: ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت، بسبب أنه تعرف على ربه وقت الرخاء فعرفه وقت الشدة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الصافات:١٤٣-١٤٤).

كما لابد للأمة الإسلامية وشباب الصحوة على وجه الخصوص

أن يعلموا أن الخروج من عنق الزجاجة يحتاج إلى حكمة، ولا تنفع القوة وحدها.. فقد تضر بالعمل الإسلامي ويكون أول الضحايا أبناء هذه الصحوة، كما أن الخروج من الأزمات لا يأتي عفوا ولا بالخبط العشوائي، ولا بين عشية وضحاها، فالطريق طويل ولاسيما في عصرنا الذي سيطر فيه الأعداء وقوى الشر والفساد، هدفهم استئصال الأمة الإسلامية، وهذا يحتاج منا إلى نفس أطول مع الأخذ بجميع مقومات القوة، بمفهومها الشامل والكامل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠). ومن إعداد القوة التفاؤل، وحسن الظن في الله، والثقة في تأييده ونصره: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).

هوامش

١- أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٧/ ١٨٤ حديث رقم: ٢٩٢٠ وقال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٩٩٣ في صحيح الجامع.

٢- الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ١|٢٣.

٣- أخرج القصة بطولها ابن هشام ١/٢٦٠، ٢٦١ عن ابن إسحق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي مرسلا، ورجاله ثقات، دون قوله: «اللهم إليك أشكو.. ، وأورده الهيثمي (٦/٣٥) ونسبه للطبراني»، وفيه ابن إسحق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. (زاد المعاد ٣/٢٨، ٢٩، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط.

٤- أخرجه البخاري: -بدء الخلق- باب: إذا قال أحدكم آمين. والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومسلم: كتاب الجهاد والسير- باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.

٥- جامع البيان ٤/ ٢٨٨.

٦- رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

٧- أخرجه الطبراني (١١/١٢٣، رقم ١١٢٤٣). وأخرجه أيضا: أحمد (١/٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، انظر: ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم ١/١٢٥.

الشيخ محمد قطب في ذمة الله

فقدت الأمة الإسلامية المفكر الإسلامي المعروف محمد قطب، بعد أن وافته المنية يوم الجمعة ٤ أبريل ٢٠١٤ في مستشفى المركز الطبي الدولي في جدة بالمملكة العربية السعودية عن عمر يناهز ٩٥ عاما.

وكان الشيخ محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي قد سافر إلى السعودية منذ نحو نصف قرن، ليقضي الراحل بقية عمره فيها، معلما وداعية ومحاضرا ومشرفا على الأقسام والأطروحات العلمية والمناهج الدينية في المملكة، حيث تخرجت على يديه أجيال عدة تأثرت به في أساليب الدعوة، كما تأثر هو بالجيل العلمي المعاصر له في السعودية.

وزخرت حياة الداعية قطب بعدد كبير من المؤلفات في مجال الفكر والدعوة الإسلامية، كان من بينها: «الإنسان بين المادية والإسلام»، و«جاهلية القرن العشرين»، و«واقعنا المعاصر»، و«منهج التربية الإسلامية»، و«حول تطبيق الشريعة».

ويعد محمد قطب في نظر كثير من الباحثين الإسلاميين علامة فكرية بارزة، وصاحب مؤلفات مهمة؛ لعنايته بجانب الربط بين مضامين الدين والواقع المعاصر. وكان ممن نبه باكرا إلى خطر الصدام مع الأنظمة السياسية في العالم العربي، وكان يرى أن تتم تربية المجتمعات على الفكر الإسلامي أولا، مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٥).

هو محمد قطب إبراهيم، ولد في ٢٦ إبريل ١٩١٩ في بلدة موشا بمحافظة أسيوط في مصر، وكان والده (قطب إبراهيم) من المزارعين في تلك الناحية، وكان محبا للمطالعة، مقبلا عليها، فهو يعتبر من مثقفي قريته المهتمين بالأمور العامة، وبذلك كان موضع الاحترام والتقدير من أهلها، وعدوه من أصحاب الرأي فيهم، بالإضافة إلى مكانة أسرته بينهم.

أما والدته، السيدة فاطمة، فهي تنتمي إلى أسرة عربية محبة للعلم، وقد تلقى إخوتها دراستهم في الأزهر، وبرز منهم أحمد حسين الموشي، الذي امتاز بمواهبه الأدبية والقلمية، إذ كان شاعرا أديبا، وقد اشتغل بالصحافة والسياسة، فأحرز شهرة في كلا الميدانين. من هنا كان تأثر السيدة فاطمة، فنشأت محبة للعلم والثقافة، وقررت أن تبعث بولديها سيد ومحمد إلى القاهرة ليتلقيا تعليمهما هناك. ففي القاهرة بدأ الفتى محمد دراسته من أولها، فأتم المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها، وكان تخرجه فيها عام ١٩٤٠م. ومن ثم تابع في معهد التربية العالي للمعلمين فحصل على دبلومه في التربية وعلم النفس.

نحو ثقافة مثلى للطفل العربي

رفعت بروبي - باحث تربوي

● لقد جاءت توجيهات الإسلام لرعاية النشء من قبل أن يكون الطفل، حيث شملته الرعاية الإلهية وهو ما زال في بطن أمه، حملا، ثم جنينا في أحشائها، ورضيعا، ثم طفلا متفتحا لاستقبال الحياة بما فيها، ثم شابا تجري في عروقه دماء الحيوية.

● من هذا المنطلق حث الإسلام الوالد على رعاية ولده، والوالدة على السهر على ولدها، ولقد كان رسول الله ﷺ يحث الناس على رعاية أولادهم وحسن تربيتهم، وكان ﷺ يوازن بين العطف والرحمة والمرح مع الأطفال وبين التوجيه الجاد والتربية الصحيحة، قال ﷺ: «ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن».

● بداية نذكر أن صياغة فكر الطفل يتم تأسيسها منذ نعومة أظفاره، فيشب على ما شاهده، وتتعود عيناه على ما يطالعه في مجالات مختلفة، وتتعود أذناه على سماع ما زرع في وجدانه، وذلك في وجود القدوة، متمثلة في والديه، وحسب قول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا

على ما كان عوده أبوه

● ومن هنا تتضح أهمية وجود القدوة الحسنة للطفل داخل الأسرة ذاتها، يتشرب منها عاداته وتقاليده وفكره وكل شيء يراه. وصياغة فكر ووجدان الطفل الصياغة الثقافية الصحيحة وزرع المبادئ والقيم الخلقية فيه منذ الصغر ترسمان له طريق حياته ومستقبله، بل نستطيع القول إن ما ترسخ في وجدان الطفل سيكون النبراس الهادي له الذي يستضيء به وينير حياته المستقبلية.

● وثقافة الطفل تمر بمرحلة شائكة ومنعطف خطير يجب العمل على تصحيح مسارها من الآن، والعمل على ذلك باكرا قبل أن تستفحل المشكلة، وهذا يتطلب العمل الجاد وأن تؤخذ الأمور بجدية، ويتم العمل بنشاط ودون تراخ. وبداية يجب تعويد الطفل على التوجه إلى كتب معينة تم وضعها بواسطة خبراء في تربية الطفل؛ كي نضمن عدم احتواء تلك الكتب على سموم وأفكار مستوردة من معامل الغرب. كما يجب على أفراد الأسرة الترحيب بأي أسئلة يوجهها الطفل إليهم، وبالذات الأب والأم، وإنشاء علاقة حميمة بين الطفل والكتاب الذي ينتقيه له الأب. وهنا يقول الدكتور أحمد كامل «إن الأطفال الذين لم يشهدوا الكتب وهم صغار حدث لهم جفاء وهجر وملل للكتب وهم كبار، لأنهم لم يألفوها، وتلك مشكلة عدم وعي الأسرة. وإن رؤية الأطفال للكتب والجلوس أمامها من الأمور التربوية لجذب نظر الأطفال إلى الكتب والتعود على التعامل معها، كما يعطي أمانا

وحسن الجوار لما تحويه من معرفة».

● ومن المهم جدا أن نقوم بصب الثقافة العربية الأصيلة في عقل الطفل ووجدانه، وأن يتشبع بها تشبعا تاما بما ينعكس بالإيجاب على سلوكياته عامة وعلى فكره ووجدانه خاصة، وهذا يجرنا إلى القول إنه يجب علينا المحافظة على ثقافتنا العربية القوية وأن نقبض عليها بيد من حديد حتى لا نقع في يد ثقافة مصنوعة ومخصصة ومعلبة لاستهلاكنا الثقافي بشكل يهدم قيمنا وعاداتنا وثوابتنا وموروثاتنا، وهي أمور يصعب تنفيذها إذا توانينا عن السير في طريقها واخترنا السير في الطريق السهل الممتلئ بالأشواك. وفي هذا يقول الأستاذ عبدالتواب يوسف «إننا نومن بأن لكل شعب ولكل أمة وكل بلد ثقافته الخاصة، تتدفق عبر الحاضر من الماضي ولا بأس من روافد تصب في هذا النهر لتضيف إليه وتثريه، أما محاولة اقتلاع ثقافة ما وإحلال أخرى مكانها فأمر غير مقبول ولا معقول، ولقد حاول الاستعمار القديم وأخفق، كما حاولته معنا الكتلة الشرقية إبان الحرب الباردة ولم تنجح في صبغ نهر ثقافتنا بلونها الأحمر». ثم يعود الأستاذ عبدالتواب يوسف ليطمئن قلوبنا فيقول: «إن ثقافتنا العربية عريقة وأصيلة وعميقة الجذور ويستحيل اقتلاعها، ونحن لا نريد لعقول أطفالنا أن تصبح رفوفا توضع عليها أحدث ما تنتجه التكنولوجيا، بل نريد لعقولهم أن تتدرب وتجهز لتكون فاعلة ومشاركة في صناعة وإبداع التكنولوجيا كل ذلك في إطار قيمي وخلقي يقوم بعملية تنمية للطفل قبل تنمية الثروة المادية. فكل الأديان تحث على بناء الطفل بناء لا عوج فيه، وديننا الحنيف يدعو إلى بناء الطفل على الفطرة التي خلقها الله عليها وهو سبحانه وتعالى أعلم بخلقه». ولقد فطن العالم إلى أهمية تنمية الإنسان قبل تنمية الثروة فجاء في إعلان كوكويورك عام ١٩٧١ ما يلي «يجب أن تهدف التنمية إلى تطوير الإنسان لا تطوير الأشياء». وأيضا يجب ألا ندع أطفالنا عرضة للتيارات الثقافية القاتلة الوافدة من الخارج، سواء كانت روايات أو قصصا أو أفلاما كرتونية أو أفلام خيال علمي... إلخ، والتي تم صنعها في مجتمعات غريبة عنا في تقاليدها وعاداتها وقيمها وموروثاتها وتاريخها. ويجب أن نفهم الطفل أن لدينا الكثير والغزير من ثقافتنا الأصيلة، وأن لدينا ثقافة وأدبا يضاهيان نظيريهما الوافدين، بل إنهما يتفوقان عليهما، بفضل ثقافتنا الأصيلة ونبعها الروحي والديني الصافي والخالي من الشوائب، لأن ثقافتنا تتصل بتاريخنا وماضينا، وهما ينميان الهوية بما لا يدع مجالا للشك. ونذكر في هذا المجال أن ثقافتنا العربية ذات أصول ثابتة على مر الأيام والعصور، وهي التي أنارت حضارات الكثير من البلدان وما زالت تعطي وتمنح اللغة العربية دورها في هذا المجال.

ونحن ننبه إلى ضرورة تنشيط دور الكتاب والهيئات المنوط بها العمل في مجال ثقافة الطفل العربي للنهوض بواجباتها والتنسيق فيما بينها وبين أقطار العالم العربي، وصد محاولات الغرب الهادفة المباعدة بين أطفالنا واللغة العربية العريقة، وصد محاولات الغرب لمشايعة اللغة العامية وترسيخها في أقطارنا حتى نفقد الركن الرئيسي في ثقافتنا وهو اللغة العربية.

التجربة الرائدة

● ونذكر هنا تجارب بعض من تصدوا لهذه الهجمات الشرسة، ومنها تجربة د. عبدالله الدنان، التي تظفر برعاية كثيرين يتحمسون لها، وعلى رأسهم الأمير خالد الفيصل، الذي تفضل مشكورا بتعميم هذه التجربة في منطقة عسير في السعودية، حيث تم إنشاء دور حضانة (رياض أطفال) لا تستخدم فيها إلا الفصحى في مخاطبة الأعمار الصغيرة. كذلك تم إنشاء «جمعية لسان العرب» التي يرأسها دكتور عاطف نصار، والتي عقدت مؤتمرها السنوي التاسع بمقرها في جامعة الدول العربية بالقاهرة. كما قامت «جمعية اللغة العربية» برئاسة الدكتور كمال بشر، وهي تقوم بدور كبير بجانب المجمع اللغوي ووزارة التربية والتعليم لإعادة اللغة الفصحى إلى الألسنة والأقلام.

وجدير بالذكر في هذا المجال أن ننبه إلى ضرورة وجود القدوة التي تشكل العامل الرئيسي في إنماء شخصية الطفل الثقافية، فالقدوة هي البوصلة التي تضبط مسار الطفل، فيلزم وجود الأب – مثلا- الذي يجمع أولاده حوله كل ليلة في جلسات سمر يشربهم فيها المثل والقيم والعلم والخلق والبلاغة، حتى يتجنب الكثير من الآفات الفاغرة أفواهها في انتظار التهام وليمتها، وهم الأطفال، وحتى نقضي على «آفة الأسرة النووية» التي يتحدث عنها فلاسفة الغرب، حيث ينعزل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض أمام شاشات التلفزيون.

وهذا من شأنه إضعاف العلاقة الحميمة بين أفراد الأسرة الواحدة ويبعث على انعزال كل فرد بعيدا عن الآخر حتى عن الأب والأم.

إن الطفل العربي في أمس الحاجة إلى الترابط الوجداني الأسري والقيادة الواعية والقدوة الحسنة المتمثلة في الأب كرمز قيادي للأسرة العربية، والأم التي تلزم الطفل دائما حتى في فترات تغيب والده في عمله خارج المنزل. والواجب على الوالدين التنبه إلى ما يقدمان للطفل في هذه المرحلة الحرجة من حياته، فإن ما يقدم للطفل من ثقافة لهو الهادي له طوال حياته المستقبلية فهو الذي يحدد معالم شخصية الطفل وقيمه وعاداته وتقاليده، وإنها لمسؤولية كبرى نأمل أن ينهض بها الأب وأن تهتم بها كل أم؛ لنضمن تخريج أجيال يحملون الثقافة العربية الأصيلة ويشقون طريق حياتهم من خلال هذه القيم والسلوكيات والصادرات والموروثات الثقافية الأصيلة.

من خلال ورقته العلمية في المؤتمر الدولي لمركز الأبحاث والاستشارات الاجتماعية:

الجميل لـ «الوعي الإسلامي»: دمج مجهولي الأبوين في الأسر البديلة ضرورة

محمد عبدالعزيز - الكويت

مجهول الأبوين هو المولود الذي لا يعرف نسبه، بعد أن طرحه أهله خوفا من العيلة، أو فرارا من مهمة التربية. وقد عرض أستاذ الإدارة التربوية في كلية التربية في جامعة حائل في المملكة العربية السعودية الدكتور عبدالله بن حمود الجميل، بحثه حول المشكلات النفسية والاجتماعية لمجهول الأبوين في المؤتمر الدولي الثالث لمركز الأبحاث والاستشارات الاجتماعية - لندن، ومؤتمر الرابطة الأكاديمية الأول حول موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية في العالم الإسلامي، تحت شعار «البحث العلمي ركيزة لحل المشكلات»، والذي أقيم في معهد الكويت للأبحاث العلمية في فبراير الماضي. وكان لـ«الوعي الإسلامي» هذا اللقاء معه للتعرف على الخطوط العريضة لبحثه، الذي يتناول هذا الموضوع الحساس النادر التطرق إليه في عالمنا العربي.

● بداية، ما القيمة التي تسعى إلى ترسيخها من خلال بحثك؟

- من محاسن ديننا ومزاياه ما جاء به من الحث والتأكيد على التكافل بين أفراده، واهتمام بعضهم بشأن بعض، فالمؤمنون إخوة متحابون، ورباط الإيمان بين أهله كرباط النسب والقرابة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة:٧١).

ويوضح نبينا ﷺ حال أهل الإيمان فيقول: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (متفق عليه). لذلك، فإن التكافل الاجتماعي هو المعنى والقيمة الأبرز اللذان سعيت إلى ترسيخهما من خلال البحث.

ومن مظاهر هذا التكافل بين أفراد المجتمع الاهتمام برعاية الأيتام، وتأكيد ذلك ما بيّنه الله سبحانه من فضل هذا العمل ومن صفات الأبرار: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ (البقرة:١٧٧).

وقال فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان:٨). وعاب الله تعالى من لا يكرم اليتيم فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر:١٧). وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى

الجميل في حواره مع المحرر

﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢﴾ (الماعون:١ و٢).

وقد قال النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى» (متفق عليه). وقال: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات» (رواه أحمد بسند صحيح).

من أجل كل هذا فقد عني الإسلام بمجهول الأبوين، فأوجب التقاطه وحرم إهماله. وكذلك ألحقه باليتيم، إذ المعيبة عليه أعظم، فهو بلا هوية: لا أهل أو أقرباء. وبالتالي، لا حقوق نسب ولا نفقة ولا ميراث.

ولذلك، قرر العلماء أن اليتيم ليس من فقد أباه فقط، لكنه أيضا كل لقيط وكل من فقد العلم بنسبه، بل إن مجهول الأبوين هو أشد حاجة إلى العناية والرعاية من معروف النسب؛ لعدم معرفة قريب له يلجأ إليه عند الضرورة.

● وعلام يدل ذلك، وما القصد من البحث؟

– يدل ما سبق على عدم الاهتمام من قبل معظم دور الحضانة والرعاية أو الجمعيات الأهلية بفئة الأطفال مجهولي الأبوين. بالإضافة إلى تجاهل العديد من دور الإيواء لأهمية اختصاصي التغذية، فتقوم بتقديم وجبات موحدة وفق نظام الدار لا وفق ما يحتاج إليه الطفل من غذاء. وكذلك غياب المشرفين والمشرفات المتخصصين والحاصلين على شهادة عليا من أجل التمكن من أداء واجباتهم تجاه هذه الفئة على أتم وجه. أيضا الحاجة الحقيقية للحب والحنان والعطف وليس الشفقة من أجل الشفقة.

والقصد من ذلك التعامل مع مجهول الأبوين بكرامة واحترام، هو الاحتواء من أجل تعزيز المشاعر الإيجابية لديه ومساعدته في التغلب على المشكلات النفسية والاجتماعية، والاندماج في المجتمع بشكل طبيعي. وقدمت هذا البحث في محاولة لإظهار المشكلة على السطح وتناولها بشكل علمي من أجل أخذها بعين الاعتبار، وإجراء المزيد من الدراسات والبحوث العلمية لمواجهة التهميش والإقصاء اللذين يعاني منهما كثير من مجهولي الأبوين في البلدان العربية.

● وما أهم المحاور التي استندتم إليها في بحثكم حول مجهولي الأبوين؟

– يعد موضوع مجهولي الأبوين في المجتمع العربي موضوعا حساسا ومن النادر أن تتناوله وسائل الإعلام والندوات والأنشطة الاجتماعية بصورة إيجابية أو إنسانية، وهذا ما أكده كثير من العلماء. وعلى هذا الأساس حاولت من خلال البحث فتح آفاق جديدة في هذا الموضوع الإنساني من خلال محاور معينة، هي: أولا، وجود أطفال قد حرموا من الأسرة، مما يعني حرمانهم من الحب والحنان والعواطف والمشاعر الإيجابية. ثانيا، إن المجتمعات العربية لا تزال تنظر إلى فئة مجهولي الأبوين نظرة دونية مقارنة بالمجتمعات الغربية. ثالثا، محور يتعلق بتعقيد بعض الإجراءات الروتينية في دمج مجهول الأبوين في الشهور الأولى مع الأسر البديلة. بالإضافة إلى محور يتعلق بعدم تخصص بعض المشرفين أو المشرفات في دور الحضانة ودور التربية الاجتماعية. وأخيرا، غياب الحلول العملية لمشكلات مجهولي الأبوين في وزارات الشؤون الاجتماعية بالبلدان العربية.

● وما المؤسسات الاجتماعية الإيوائية التي يناط بها حماية مجهولي الأبوين؟

أولا: مراحل دار الحضانة: تعد أول مرحلة لرعاية الأطفال المجهولي الأبوين، من مرحلة الرضاعة بعد الولادة حتى سن ٦ سنوات.

ثانيا: مراحل دار التربية الاجتماعية: توفير أسباب الرعاية الكاملة للأطفال من سن ٦ سنوات حتى ١٨ سنة.

ثالثا: مؤسسات التربية النموذجية: تكوين جو أسري قريب لجو الأسرة الطبيعية من خلال محاكاة النظام الأسري بوجود الأم البديلة والخالة والأخت الكبرى والعمة، ويمكن أن يستقل خارج دور التربية بعد سن ١٨

سنة، وتحت إشراف وزارة الشؤون الاجتماعية.

رابعا: الأسر البديلة: تقدم الرعاية للطفل الذي يتناول حقوقه الأسرية المكفولة، من حضانة ورعاية ونفقة وتنشئة، رغبة في الأجر من عند الله.

خامسا: الجمعيات الخيرية الأهلية: جمعيات أهلية بدأت على يد مجموعة من أهل الخير تقدم خدماتها لمجهولي الأبوين من حضانة ورعاية ونفقة وبرامج خدمية وتربوية وتعليمية.

● وما المشكلات النفسية التي من الممكن أن يعاني منها مجهولو الأبوين؟

– لمجهولي الأبوين مشكلات نفسية عديدة، نذكر منها القلق والاكتئاب والعناد، بالإضافة إلى مشكلة تطرف الانفعالات النفسية المتمثلة في: انفعال الخوف المرضي، وانفعال الغضب، وانفعال الغيرة، فضلا عن مشكلة الجوع العاطفي.

● ما المشكلات الاجتماعية التي رصدتها في بحثكم بشأن هذه الفئة؟

– مشكلة العزلة الاجتماعية، ومشكلة العدوان والعنف الاجتماعي، والمشكلات السلوكية التي تؤثر على علاقة هؤلاء الأطفال بالمجتمع: مشكلة السرقة، ومشكلة الكذب، ومشكلة التأخر الدراسي.

● برأيك.. ما دور المؤسسات المجتمعية في وقاية مجهولي الأبوين من تلك المشكلات؟

أولا: ضرورة دمج الأطفال مجهولي الأبوين في المجتمع من خلال الأسرة البديلة، التي تعتبر البيئة الأمثل والأفضل لتنشئة الطفل، منذ الشهور الأولى.

ثانيا: احترام مجهولي الأبوين واحتواء مشاعرهم وصون كرامتهم، بعيدا عن النظرة الدونية والطبقية والعنصرية، والعمل على إشباع حاجاتهم النفسية من حب وحنان وعطف وانتماء. ومن الأهمية بمكان، التوعية الإعلامية المكثفة للمجتمع بحقوق مجهولي الأبوين، وأنهم مثل الأيتام في فضل كفالتهم ورعايتهم، وتفقد أحوالهم، وإشراكهم في مختلف المناسبات الخاصة والعامة بما فيها المناسبات العائلية. ولا يمكن إغفال دور إعداد المشرفين والمراقبين (من الرجال أو النساء) المتخصصين في المؤسسات الاجتماعية الإيوائية إعدادا دينيا وعلميا وتربويا، بما يساعدهم على حسن التعامل معهم.

● هل من نماذج لمجهولي الأبوين مبدعين في العالم؟

– نعم، كثيرون، وأذكر منهم: سمير محمد (صاحب كتاب «إبداع في قيادة الذات»)، وستيف جوبز (مخترع، وأحد أقطاب الأعمال في الولايات المتحدة).

● وما البحوث والدراسات المستقبلية التي تقترحونها؟

– الدراسات المستقبلية متعددة في هذا المجال، منها ما قدمنا به مقترحات للبدء به في المستقبل، مثل: إجراء بحوث علمية تقف على حقوق مجهولي الأبوين التي يستحقونها من المجتمع بجميع مؤسساته الاجتماعية. وإجراء بحوث علمية لتحديد الاحتياجات التدريبية من أجل إكساب مجهولي الأبوين مهارات التواصل الاجتماعي والتغلب على العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية. وإجراء بحوث علمية عن سبب عزوف بعض الأسر عن احتضان مجهول الأبوين كأسر بديلة. بالإضافة إلى مقترح عمل دراسات مسحية وتحديد الأعداد الحقيقية لمجهولي الأبوين. كما أن إنشاء مراكز معلومات في العالم العربي سيكون له أثر في علاج المؤثرات السلبية، وإجراء بحوث علمية تحدد العلاقة بين المشرفين والمشرفات ومجهولي الأبوين، من حيث التعامل والتوجيه والإرشا

بعض الأمثلة لعدد مجهولي الأبوين في البلدان العربية حسب المصدر

السنة	المصدر	عدد مجهولي الأبوين	الدولة
٢٠١٠	وزارة الشؤون الاجتماعية بالسعودية	١١٥٧ طفلا	السعودية
٢٠١٣	الإمارات اليوم	٧٣٣ طفلا	الإمارات
٢٠٠٨	جريدة القدس اللندنية	٢٧٠ ألف طفل	مصر
٢٠٠٩	آفاق العروبة	١١٠٠ طفل	السودان
٢٠١٣	صحيفة الخبر الجزائرية من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٧	٢٧٤٠٠ طفل	الجزائر

الشعب النموذج

إسلام مهدي
باحث في العلوم الزراعية

يحتاج المصلحون دوما إلى نموذج كامل يقيمون عليه أساس أعمالهم، ويهتدون به في طريقهم إلى استنهاض الأمة من رقدتها والانطلاق بها. وفي ظل قصور النماذج التي نراها في واقعنا، لا شك أن كل مصلح يعاني في قرارة نفسه مما فاته من شهود النموذج النبوي المعصوم، ويود لو كان حاضرا نموذج الخلافة الراشد، فلا شيء يتعلم منه الإنسان أكثر من الشهود والممارسة. لذا، سأتكلم هنا عن شعب حقيقي مختار نتخذه نموذجا نحذو حذوه لننطلق في الطريق.. رغم أنه ليس من شعوب البشر!

إنه «شعب النحل».. فأنت حين تنظر في أمة النحل تجد كل خلية أو عش نموذجا صارما لأمة محكمة النظام، مهدية المنهج، مؤتلفة البناء، باقية لآلاف الأجيال..تجد شعبا منهمكا في عمله لا يتم اختيار أحد منه لوظيفته إلا بناء على الموهبة والكفاءة وحدهما، فلا تفضيل للمقربين «الثقات»، ذلك أن مفهوم «الثقة» في عالم النحل لا ينبني إلا على الكفاءة.

وتتمثل أهلية فرد الشعب (الشغالة) لعمل ما في جاهزيتها له؛ بحيث لا تقوم بمهمة إلا حين تنضج أعضاء جسدها اللازمة للقيام بها (١).

لن تجد نحلة عقيما طلب منها وضع البيض، ولن تجد نحلة عمياء تم تعيينها في قسم الحراسة، فالتكليف مبني على الموهبة والكفاءة فقط.. هذه خلية النحل التي تريد أن تستمر آلاف السنين وليس مجتمعا بشريا يريد تدمير نفسه بنفسه.

وأول ما تقوم به الشغالة فور خروجها من العين السداسية، حيث تمت حضانتها (الطفولة والمراهقة)، هو أن تنظف موضعها ليستقبل الحضنة الجديدة من بعدها. وهي حين تنظف مكانها فإنها تعود لتدخل العين السداسية، حيث سكنت وهي بعد صغيرة ضعيفة (٢)، تعود، لا لتبقى فيها، ولكن لتأكل جلدها القديم (٣)! ذلك الذي انسلخت منه لتصبح شغالة ناضجة: تأكل تاريخها وتهضمه حتى لا تنساه، تأكل تاريخها ليخالط أعضاءها فيكون جزءا من تكوينها، بينما يرى المسلم المغترب عن دينه أنه لن يتقدم حتى يلقي تاريخه خلف ظهره!

وبعد مرور ٣ أيام من إجراء التنظيف وهضم التاريخ يبدأ نضج غدد إفراز الغذاء الملكي (لبن النحل).. ولم يكن لهذه الغدد أن تنشط دون التغذية على جلد الانسلاخ القديم؛ فلا مستقبل من دون تاريخ. كان لا بد لها أن تهضم التاريخ حتى تفرز المستقبل.. ويبدأ إفراز الغدد الملكية ضعيفا، فيسمح لها فقط بخلط حبوب اللقاح (الطلع)؛ تخلطها لتصنع منها «خبز النحل» فتغذي عليه الحضنة الكبيرة السن التي ما زالت في العيون السداسية توشك أن تخرج منها. لقد أصبح لديها شيء تقدمه للأجيال القادمة بعد أن هضمت التاريخ، فأين

هذا ممن يدعون أن عندهم الحل والإصلاح وهم لم يعرفوا تاريخ أمة الإسلام، بل لا يريدون البناء عليه، ويدعون أن عندهم الحل وأنهم من المصلحين؟! إن فاقد الشيء لا يعطيه.

ومع ممارسة الشغالة لرعاية الحضنة فإن ذلك المجهود يحرق مزيدا من الدهن المخزون في جسد الشغالة، وينضم إلى الحريق وقود من حبوب اللقاح التي تبدأ الشغالة في التغذية عليها (٤). ويكون ناتج هذا الحريق وقودا سائغا لعملية نضج جديدة. فيتم نضج غدد إفراز الغذاء الملكي ويحسن إنتاجها ويصبح غزيرا.. تماما كالأم التي تلد للمرة الثانية فيصبح لبنها غزيرا يكفي وليدها ويفيض.

ومع غزارة الإنتاج تأتي سعة المسؤولية، فهي أيام كانت ضعيفة الإفراز كانت تهتم بالحضنة الكبيرة السن (٥) وهي مثيل طلاب الثانوية والإعدادية في عالمنا البشري يحتاجون إلى التوجيه أكثر من التأسيس، ويطلبون كماليات الغذاء أكثر مما يطلبون الغذاء نفسه. أما حين يتم نضج غدد الإفراز فتتوجه الشغالات إلى العناية بالحضنة الصغيرة السن (٦) وهي مثيل لطلاب روضة الأطفال والابتدائية في عالمنا البشري، وهؤلاء لن يصلح حالهم بالتوجيه وحده، بل لا يتم أمرهم إلا على التأسيس الراسخ والبناء المتين. وفي هذا إشارة كونية إلى وجوب تخصيص المعلم الأكثر خبرة وعطاء -وهو الأكبر سنا- للطلاب الأصغر، حيث يحيطهم بالرعاية الأبوية ويربيهم بالحنان. بينما يخصص المعلم الأقل خبرة -وهو أصغر من الآخر- للطلاب الأكبر سنا لتيسير التقارب الفكري والنفسي، فيطرح المراهق مشكلاته على معلمه دون وجل ولا خجل.

ولك أن تتصور كم الجهد المبذول في تربية الحضنة، إذ إن الحضنة الواحدة من النحل تتلقى ١٣٠٠ زيارة يوميا، وتستمر الزيارة الواحدة من ٠,٥ دقيقة إلى ٣ دقائق (٧)! يجري خلالها إمدادها بالغذاء وفحصها للاطمئنان على صحتها ودراسة معدنها في هذا العمر الصغير! ويتم حصر من تصلح أن تكون ملكة في المستقبل، فإذا كانت الملكة الحالية كفؤا تُركت الشغالة على حالها، وأمّا إذا كانت الملكة تتخبط ولم تعد قادرة على الحكم فإن الشغالات تهتم بتغذية من تصلح أن تكون ملكة جديدة. إن النحلة تفرز صغارها لترى فيها أمارات القيادة، لكنها لا تقدم أحدها للحكم إلا إذا رأت الحاكم غير صالح، أو إذا كان أكثر صلاحا من الحاكم الحالي، ولا تختار من بين المرشحة للحكم إلا الأصلح، وبالطبع لا تختار للحكم إلا من نشأت في كنف الخلية ورضعت لبن شغالاتها بحيث ترث التاريخ فتحكم به المستقبل، فتأمل!

وإذا حصرت عدد الشغالات التي تهتم باليرقة الواحدة طوال مدة حضانتها وجدته قرابة ٢٨٠٠(٨)، بحيث تهتم الشغالة الواحدة بالعديد من الحضنة. وتتلقى الواحدة من الحضنة رعاية العديد من الشغالات، فإذا علمت أن الخلية الواحدة قد يسكنها ٢٠٠٠٠-٦٠٠٠٠ نحلة (٩)، فتأمل توزيع مسؤولية التربية على المجتمع كله، وحقيقة احتواء المجتمع للحضنة (الأطفال والمراهقين)، وراقب قوة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ في هذا المجتمع المثالي الضخم، ثم انظر إلى أولاد المسلمين تجد أنهم قد تم التخلي عنهم وتسليمهم إلى التلفاز أو إلى مربين من غير المسلمين يخرجونهم في النهاية تابعين، نفسيا وعقليا، لأمم أخرى غير أمة الإسلام!

والعجيب أن النحلة تحرص كل الحرص على أمان الحضنة كما تحرص على تربيتها! فالخلية تكون مرتبة في أقراص متراصة، لا تكون فيها الحضنة إلا في الأقراص الوسطى، فتضع الملكة البيض في القرص الأوسط، وتجد الحضنة الأكبر سنا في الأقراص الأبعد، ثم تحيط أقراص العسل بالحضنة من كل اتجاه، كل هذا من أجل حماية الحضنة من الآفات والدخلاء على الخلية، وتجعل العسل درعا لحماية الحضنة وتدفئتها. النحلة إذن لا ترى شيئا أكثر أهمية من الحضنة، ولا حتى العسل.. العسل «ثروة النحل» التي تجمعها بمشقة وعناء قطرة من كل زهرة. فأين الملقون بأولادهم يتسكعون في الطرقات متاحين لكل خطر ويتعللون بانشغالهم في طلب المعاش وتوفير الرفاهية قبل ضرورات الحياة؟! وإذا فرغت الشغالة من رعاية المراهقين (الحضنة الكبيرة السن)، واستقر في غريزتها أهمية أقراص العسل التي تراها حولها وهي ترعى الحضنة، فإنها تسارع إلى مهمة جديدة، وهي تسلّم الرحيق وحبوب اللقاح من الشغالات التي تجمعها من خارج الخلية (١٠)، فتحفظ الرحيق في بطنها قليلا وتفرز عليه الإنزيمات التي تركزه وتحوله إلى عسل فـ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (النحل:٦٩)، لتسكبه في العيون السداسية، حفظا وادخارا، وكذلك تحفظ حبوب اللقاح وتضيف إليها بعض العسل لحفظها.

وعند تمام اليوم الثاني عشر من عمر الشغالة يقل نشاط غدد الغذاء الملكي (لبن النحل)، وتنشط غدد إفراز الشمع، الذي يخرج في شكل قشور على بطن النحلة، فتتلقفه بأيديها، وتعجنه بلعابها، وتبني به مساكنها في تؤدة وروية. وتضحي النحلة بالعسل من أجل الشمع! فكل كجم من الشمع ينتج عن استهلاك النحل من ٥ إلى ٢٥ كجم من العسل وفق درجة الحرارة (١١).

وكلما احترت النحلة كان إفراز الشمع أكثر يسرا وكان استهلاك العسل أقل. لم يكن للنحلة أن تكتسب خبرة البناء إلا بعد فترة الدأب والصبر في تربية الحضنة، ولم يكن للبناء أن يتم إلا بالتضحية بالمكاسب والمدخرات، ولا

يكون البناء أكثر يسرا إلا في حرارة الفتن والأزمات! ليس كل الناس يصلحون للبناء.. لا يعرف البناء إلا من يعرف الماضي والمستقبل، لا يعرف البناء إلا من هضم الماضي ثم ربى للمستقبل، ولا يعرف البناء إلا من يضحي بكل المكاسب ويصبر على الفتن والأزمات من أجل بقاء الأمة وتوسعها ومجدها.

وحين يهل اليوم الثامن عشر من عمر الشغالة تنتهي مهمة البناء لتبدأ المهمة البديهية بعده: حراسة البناء (١٢). فمن يحرس البناء إلا صانعه؟! وكيف لمن لا يعرف البناء أن يضحي من أجله؟! إن غدد الشمع تضمر لتنشط غدد السم فتغذي ذبان النحلة بمواد خاصة تقتل المعتدين على الخلية أو تؤلمهم فتدفعهم للهرب. وكل نحلة تلسع عدوا تفقد ذبانها وغدد السم فيها وتموت! غدد السم التي هي في أصلها مثيلة الرحم والمبايض عند إناث البشر.. أترى امرأة تضحي بها لتتحول إلى سلاح تقتل به المعتدين؟! نعم، إنها المرأة التي تربي فتى ليكون مجاهدا شهيدا في سبيل الله، يروي أعتاب أمته بدمه، ويجعل لحمه سمادا يغذي شجرة عزتها ومجدها.. فطوبى للأم من شغالة حارسة وطوبى للابن من ذبان لاسع.

ويستقر في غريزة النحلة أن كل شغالة في أمتها ستكون يوما حارسة أو شهيدة! وهنا تتكامل فكرة الحراسة عنها في واقعنا اليوم، ففي عالم النحل يحرس الحضنة من رباها وغذاها من فمه، ويحرس البناء من صنعه وأفرزه، ويحرس العسل من ركبه في بطنه. فتكون الحراسة مبنية على عقيدة يقينية وضرورة ملحة، فتصبح التضحية بالحياة سهلة. بينما لو كان الحارس ينشأ حارسا لا يعرف التربية ولا البناء ولا الصناعة ولا الادخار ولا الصمود للضغوط والفتن؛ فإنه يكون هش العقيدة سهل الفتنة، بل ربما يصبح يوما ما حربا على الخلية وفتنة لأهلها، إذ تغريه سطوته السهلة، ويضلله أعداء الخلية بالإغراء.

وحين تضمر غدد السم تنتهي الحراسة، وتتقدم الشغالة في العمر فتتحول إلى تاجر يجمع ولا يشتري.. فكل شعب أو مجتمع، من الإنسان والحيوان، يحتاج إلى غيره ليصنع غذاءه. ولذلك، حين تفرغ النحلة من آخر مهامها في الخلية مع ضمور آخر غدة موهوبة من الرب لهذه المهام، فإنها تتفرغ لجمع ما تحتاج إليه الخلية من ماء ورحيق وحبوب لقاح وبروبوليس (١٣)، (أدوية ومضادات حيوية تفرزها النباتات طبيعيا في صورة صمغ).. وحين لا تستطيع الشغالة المشاركة في التربية والبناء والحراسة، فإنها تمد العاملين بموادهم الخام، وتدفع عجلة الحياة، وتعمل على نهضة شعبها غير طامعة في منصب هو محجوز قدرا لصاحب الموهبة.. الملكة.

وأنت ترى شعب النحل هو الأكثر تطبيقا لمفهوم النهي عن المنكر، فكما أن النحلة الحارسة لا تدع دخيلا يخترق الخلية، فإنها كذلك تفرض رقابة صارمة على سكان الخلية ذاتها، فإذا دخلت نحلة تاجرة تحمل رحيقا مسموما جمعته من زهرة ملوثة أو رحيقا مختمرا مسكرا جمعته من زهرة ميتة، فإن الحارسة تقتلها؛ صيانة للخلية من الفساد.. إنها حارسة لأمان الشعب من ناحيتين: الأمان البدني والبنائي، وكذلك البناء الخلقي. وإذا حدث وكان الدخيل ضخما، كالفأر مثلا، فإن النحل لا تتولى يوم الزحف، ولكن تجتمع عليه وتقتله باللسع، حتى إذا نجح في اجتياح الخلية! ولأنه لا طاقة للنحل بحمل جثته إلى الخارج، فإن النحل التاجر تنتفض لتحنط جثة الفأر بالبروبوليس، الذي يطمرها ويعزلها تماما ويمنعها من التعفن وإفساد جو الخلية (١٤)! إن النحل لا تتوانى عن عزل الفساد الداخلي والخارجي، ولا تكف عن إنكار المنكر، بل تمنعه وتطهر مجتمعها منه. ولذلك، يستمر شعب النحل ولا يضيع. وإن الشعوب بخير ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وبذلك، نرى أن شعب النحل يقدم لنا النموذج المثالي العامل بالوحي دون عصيان، إذ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل:٦٨). فصار هذا الوحي الخاص غريزة للنحلة لا حيلة لها في عصيانه، بينما يعصي البشر وحي الرب تبارك وتعالى. في عالم النحل نرى شعبا تتكامل فيه شخصية الفرد وتشتد أواصر المجتمع، يمارس كل فرد فيه المهام وفق الموهبة التي تعني الكفاءة بلا اعتبار لأهواء وأطماع. ومن هذا الشعب أرجو أن أكون قد قدمت نموذجا يؤثر في قلوبنا لنعمل وننطلق في الطريق.

هوامش

١ – Brian R. Johnson (٢٠١٠). Division of labor in honeybees: form, function and proximate mechanisms. Behav Ecol Sociobiol (٢٠١٠) ٦٤:٣٠٦.

٢ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥١.

٣ – Langstroth L. L. (٢٠٠٨). the Hive and the Honey-Bee. p٥٠.

٤ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥١.

٥ – المصدر السابق.

٦ – المصدر السابق.

٧ – Sammataro Avitable (١٩٧٨). The Beekeeper's Handbook

٨ – Lindauer. M (١٩٥٣). Division of labour in the honeybee colony. Bee World. ٣٤، ٦٣–٧٣ ٨٥–٩٠.

٩ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٠.

١٠ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٢.

١١ – المصدر السابق.

١٢ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٣.

١٣ – البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٤–٦٨.

١٤ – Double J Farm publications (٢٠١٤). The Story Of Miraculous Propolis. https://www.flynnsbeefarm.co.uk/propolis.php.

«سمرقند»

د. محمد محمدي النورستاني
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

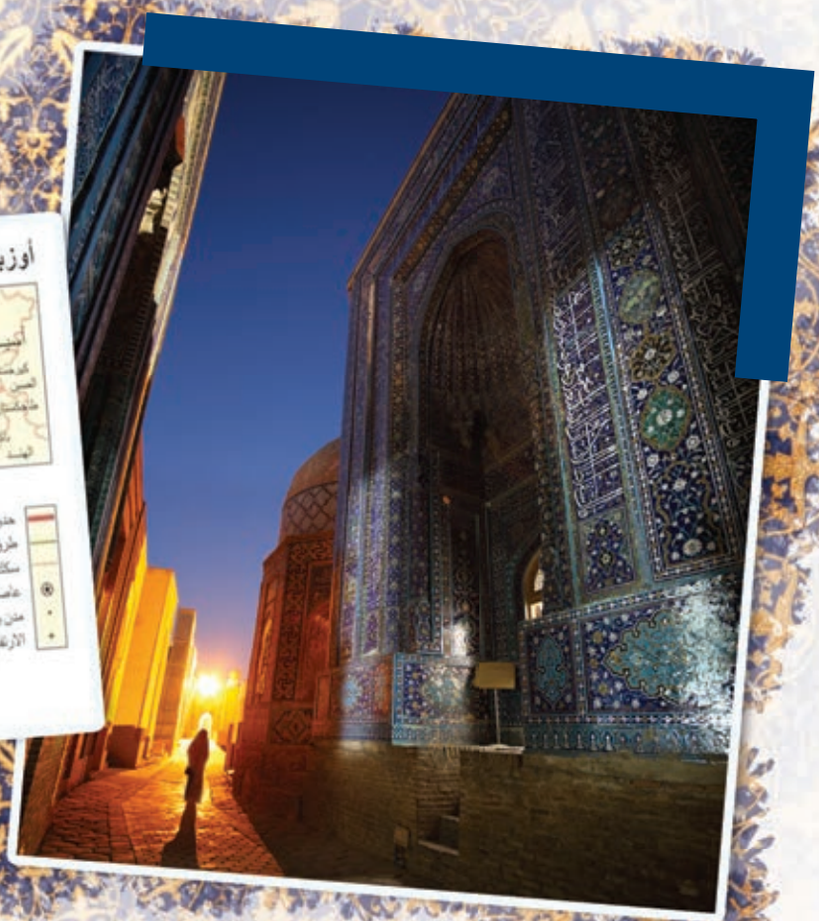

مدينة «سمرقند»، مدينة عظيمة من أعظم مدن بلاد «ما وراء النهر»، وهي عاصمة (تيمورلنك)، الذي امتد ملكه فشمل معظم أرجاء العالم القديم آنذاك، وهي ومدينة «بخارى» أهم حاضرتين في بلاد (ما وراء النهر)، وكانت عاصمة إقليم الصغد، وكان الصغد يعد إحدى جنان الدنيا الأربع، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من المائة الثالثة أيام السامانيين، وكانت أجلّ مدنه: سمرقند، وبخارى، ويمكن القول بأن الأولى كانت مركزه السياسي، بينما كانت الثانية عاصمته الدينية، إلا أن كلتا المدينتين كانتا في مرتبة واحدة، وتعدان قصبتي الصغد (١).

وتقع سمرقند على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصغد الجنوبية (نهر زرفشان)، في أعلى النهر، تقع على نشز من الأرض، على نحو من (١٥٠) ميلا شرق بخارى.

وصف القدامى لمدينة سمرقند

قال المقدسي – المعروف بالبشاري – (ت نحو ٣٨٠هـ): «سمرقند: قصبة الصغد، ومصر الأقاليم، بلد سريّ جليل عتيق، ومصر بهي رشيق، رخي كثير الرقيق، وماء غزير بنهر عميق... ذو رساتيق جليلة، ومدن نفيسة، وأشجار وأنهار.. في الصيف جنة...» (٢).

وقال الحموي (ت٦٢٦هـ) واصفا مدينة سمرقند، ومبينا كبرها واتساعها، وأنها محفوفة بالبساتين والأشجار، وقل أن تخلو دار من بستان، وأن جميع دورها تجري فيها المياه إلا القليل، قال:

«واستدارة حائطها: اثنا عشر فرسخًا، وفيها بساتين ومزارع وأرحاء، ولها اثنا عشر بابًا، من الباب إلى الباب فرسخ، وعلى أعلى السور آزاج (٣) وأبرجة للحرب، والأبواب الاثنا عشر من حديد، وبين كل بابين منزل للنواب، فإذا جزت المزارع صرت إلى الربض (٤)، وفيه أبنية وأسواق، وفي ربضها من المزارع عشرة آلاف جريب (٥)، ولهذه المدينة – أعني الداخلة- أربعة أبواب، وساحتها ألفان وخمسمائة جريب، وفيها المسجد الجامع والقهندز (٦)، وفيه مسكن السلطان، وفي هذه المدينة الداخلة نهر يجري في رصاص، وهو نهر قد بني عليه مسناة (٧) عالية من حجر يجري عليه الماء... ووجه هذا النهر رصاص كله.

وقد عمل في خندق المدينة مسناة، وأجري عليها، وهو نهر يجري في وسط السوق بموضع يعرف بباب الطاق، وكان أعمر موضع بسمرقند، وعلى حافات هذا النهر غلات موقوفة

على من بات في هذا النهر، وحفظة من المجوس عليهم حفظ هذا النهر شتاء وصيفا.. وفي المدينة مياه من هذا النهر عليها بساتين، وليس من سكة ولا دار إلا وبها ماء جار إلا القليل، وقلما تخلو دار من بستان، حتى إنك إذا صعدت قهندزها لا ترى أبنية المدينة؛ لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار.

فأما داخل سوق المدينة الكبيرة: ففيه أودية وأنهار وعيون وجبال، وعلى القهندز باب حديد من داخله باب آخر حديد...» (٨).

وقال أيضا: «وقالوا: ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفا من سمرقند، وقد شبهها حصين بن المنذر الرقاشي فقال: كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للإشراف، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للإطباق» (٩).

ومن هذا الوصف نعرف أن مدينة سمرقند كانت من أعظم المدن حضارة في ذلك الوقت، فشوارع المدينة مرصوفة بالحجارة، ومبانيها مشيدة من الطين والخشب.

ومن الملفت للنظر: أنه كان يوجد في المدينة والربض أكثر من ألفي موضع يمكن أن يستقي الناس منها الماء المثلج بالمجان، وذلك مما يصرف عليه من الوقف، وكان الماء يحفظ بطرق مختلفة، من بين سقاية مبنية، وحباب نحاس منصوبة، وتلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية (١٠).

وكانت هذه المدينة فرضة تجارية عظيمة لبلاد ما وراء النهر، ومن جملة ما اشتهرت به: الكاغذ السمرقندي، حيث كان في مدينة سمرقند أول مصنع للورق خارج سور الصين العظيم، ومنها كان يحمل إلى سائر بلاد الشرق والغرب.

وذكر بعض المؤرخين أن سكان المدينة كانوا حوالى مائة ألف أسرة، وذلك قبل استيلاء جنكيز خان عليها، بينما كان سكانها في عهد السامانيين قد جاوز النصف مليون، كما توقعه المستشرق بارتولد (١١).

فتح سمرقند

تم فتح مدينة سمرقند لأول مرة سنة (٥٦هـ) في عهد أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنهما–، تحت قيادة سعيد بن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وممن استشهد في هذه المعركة قثم بن العباس ابن عم النبي ﷺ، وقد أقام له أهل سمرقند – بعد أن أسلموا – مزارا ومشهدا، يقال له (مزار شاه زندة)، أي: مزار السلطان الحي؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولازال مزاره قائما حتى الآن.

وهذا العمل وأمثاله مما انتشرت به البلية في كثير من بلاد الإسلام، حيث نجد المزارات والمشاهد المنتشرة فيها تعبد من دون الله تعالى، ودين الإسلام أساسه إفراد الله تعالى بالعبادة، وعدم إشراك أحد معه فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ثم أعاد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي عندما نكث أهلها العهد الذي أعطوه لسعيد بن عثمان، وذلك سنة (٩٣هـ) على ما ذكره الطبري والذهبي وابن كثير (١٢)، وقيل: سنة (٨٧هـ)، حيث حاصرها، وبعد حرب ضروس استمرت يومين: طلب أهلها الصلح، فصالح أهلها على أن للمسلمين ما في بيوت النار، وهي معابد المجوس، وأخذ قتيبة حلية الأصنام، وأمر بإحراق الأصنام، فقال سدنتها: إن فيها أصناما من أحرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فأحرقها، وأخذ ما عليها من حلي وذهب، فوزنه، فوجده خمسين ألف مثقال. ووجد صنما عجيبا، له عينان من جوهر ثمين، يشع إشعاعا قويا، وكل جوهرة في حجم بيضة الحمام، فأخذها، وأرسلها إلى الحجاج في العراق.

وأمر قتيبة أن يبدأ ببناء المسجد الجامع، فتم بناؤه، وخطب الناس قبل أن يتحول منها إلى مدينة مرو (١٣).

التنافس بين سمرقند وبخارى

وكان التنافس بين (بخارى) و(سمرقند) يشتد حينا ويفتر أخرى، فتارة تكون بخارى عاصمة جميع بلاد ما وراء النهر، وتارة سمرقند.

كانت سمرقند هي العاصمة حتى جاء السامانيون في العهد العباسي (ت٢٦١-٤٣١هـ)، فجعلوا عاصمتهم (بخارى)، وفي عهدهم بلغت شأوا بعيدا في الحضارة، ثم سيطرت الدولة الغزنوية، وكانت عاصمتهم (غزنة) في أفغانستان، ثم عاد الأمر إلى (خوارزم) عند قيام الدولة الخوارزمية، ثم جاء المغول فخربوها جميعا، ثم ظهر تيمورلنك، وجعل عاصمته (سمرقند)، وفي أيامه بلغت سمرقند عهدها الذهبي، وتفنن في تشييدها وبناء المساجد والمكتبات والمرافق العامة فيها، ومما شيده في آخر عمره المسجد الجامع، الذي أراد أن يكون أكبر مسجد وأحسنه على مستوى العالم.

وبانتهاء عهد التيموريين عادت (بخارى) لتحتل الصدارة في عهد الشيبانيين والاشتراخانيين، ثم بعد ذلك مع قيام الخانيات في القرن الثامن عشر الميلادي، حيث تفككت دولة الاشتراخانيين، واستقل كل أمير بمنطقته، ودعيت (خانية)، فكانت هناك (خانية بخارى)، و(خانية خوقند)، و(خانية خوارزم-وتسمى الآن خيوة)، وكانت أكبر هذه الخانيات هي (خانية بخارى)، وكانت سمرقند تابعة لخانية بخارى، وكانت مصيفا لخانية بخارى.

ومع هذا ظلت سمرقند تنافس بخارى على مدار التاريخ، وهي تفوقها جمالا وبهاء وروعة، وتجري تحت أسوارها الجداول، التي تصب من الجبال المجاورة صوب السهل المنبسط تحت أسوار سمرقند.

ومع هذا التنافس بين المدينتين، إلا أنه «قد ظلت سمرقند من حيث الرقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة، حتى في تلك العهود التي كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد.. وهذه المكانة التي نالتها سمرقند

إنما ترجع قبل كل شيء إلى موقعها الجغرافي الفريد عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى القادمة من الهند، مارة ببلخ، ومن إيران مارة بمرو، ومن أراضي الترك، كما أن ما امتازت به المنطقة من خصب فوق المألوف جعل من الميسور لعدد هائل من السكان أن يجتمعوا في بقعة واحدة..» (١٤).

حلول الدمار بسمرقند وغيرها من المدن

وبينما كانت مدينة سمرقند مزدهرة على النحو الذي ذكرته، حل بها وبغيرها من مدن ما وراء النهر وخراسان من الدمار والخراب والرعب الذي بثه المغول، فتم تدمير معظم مدينة سمرقند عام (٦١٦هـ)، ثم أعيد بناؤها على مقربة من المدينة القديمة، ولم تستطع أن تستعيد مكانتها إلا بعد مدة مديدة.

ولازالت آثار المدينة القديمة باقية في تلال (أفراسياب) القريبة من المدينة الجديدة (١٥).

وقد زارها الرحالة المعروف ابن بطوطة بعد قرن من الدمار، فوصفها بأنها «لا سور لها، ولا أبواب عليها»، وذكر أن أكثر دورها خراب، وقال أيضا: «وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك» (١٦).

ومع كل ما حل عليها من الدمار، فقد استعادت مجدها السابق بعد ذلك، وذلك في ختام المائة الثامنة، حين اتخذها تيمور عاصمة له، فجدد البلد، وشيد المساجد، ومازال بعض ذلك قائما إلى الآن (١٧).

سمرقند في القرون الأخيرة، قبل دخول الروس وبعدها

مع بداية الغزو الروسي القيصري سقطت المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر وبلاد تركستان الواحدة تلو الأخرى، كما سقطت الخانيات، بينما ظلت خانية بخارى تقاوم الغزو الروسي القيصري، ولم تسقط إلا في عام ١٩٢٢م.

وبعد استيلاء الروس على بخارى وسمرقند: همّشوا دور المدينتين، وجعلوا مدينة (طاشقند) - وهي عاصمة طاجكستان - عاصمة لما وراء النهر.

على أن مدينة سمرقند لم تكن في الفترة التي سبقت الغزو الروسي في وضع تحسد عليها، وقد زارها الشيخ عبد الرشيد إبراهيم أوائل سنة (١٩٠٧م)، وقال في وصفها: «إن المدينة القديمة والمباركة التي هي مركز آسيا الوسطى وزينة بلاد الدنيا - حسب تعبير أهلها - كانت في عهد من العهود عاصمة أقطار آسيا.

أما اليوم: فهي أنقاض وخرائب للآثار الإسلامية القديمة. ويقدر عدد سكان سمرقند بسبعين ألف نسمة، كلهم من الأوزبك...».

وقال أيضا: «وكانت سمرقند مركزا للعلوم، وإن المراصد الضخمة كانت فخر وزينة هذه المدينة. واليوم فإن أنقاض مدرستي (ديللة جار) و(شيردار) العظيمتين.. شهود على تلك الحضارة..وفي الوقت الحالي ليس في سمرقند ما هو جدير بالمشاهدة سوى هذه الأبنية القديمة. أما الآثار والتحف القديمة: فقد نقلها الروس إلى بترسبورغ (ليينن غراد) بعد استيلائهم على المدينة، وإن الكتب الإسلامية القديمة والآثار المعمارية الجميلة الموجودة في مكتبة القيصر ببترسبورغ، كلها جلبت من سمرقند...» (١٨).

بعض من ألف في مدينة سمرقند

وقد ألف في سمرقند وذكر تاريخ علمائها عدد من العلماء، منهم:

الحافظ أبو سعد عبد الرحمن بن محمد الإدريسي الأسترآباذي (ت٤٠٥هـ)، وسماه (تاريخ سمرقند)، وهو مفقود.

والحافظ أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (ت٤٣٢هـ)، وسماه أيضا (تاريخ سمرقند)، وهو مفقود أيضا.

العلامة أبو حفص عمر بن محمد النسفي الحنفي (ت٥٣٧هـ)، وسماه (القند في ذكر علماء سمرقند)، وهو مرتب على الحروف، وقد طبع إلى حرف العين. ولم أطلع على الكتاب كاملا. وقد نقل عنه المستشرق الروسي بارتولد من بداية الكتاب، من الجزء الذي لا يوجد في المطبوع، ويبدو أنه اطلع عليه كاملا.

المنتسبون إلى سمرقند

ينسب إلى سمرقند من العلماء والمشهورين والمحدثين عدد لا يحصى، وقد بلغ عدد من ترجم لهم الإمام نجم الدين النسفي من حرف الخاء إلى حرف الكاف (١٠١٠) علما.

ومن المحدثين المعروفين بالنسبة إلى سمرقند:

أبو الليث السمرقندي، وهو الفقيه المحدث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي، صاحب كتاب (تنبيه الغافلين)، توفي سنة (٣٧٥هـ) (١٩).

ومنهم: أبو عمران عيسى بن عمر ابن العباس بن حمزة السمرقندي، صاحب الإمام الدارمي، وراوي مسنده عنه، كان حيا في قرب سنة (٣٢٠هـ) بسمرقند (٢٠).

ومنهم: العلامة الإمام الرحال أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد السمرقندي الكوخميثي، وهو من تلاميذ الحافظ المستغفري، وقال عنه النسفي: «هو الإمام الحافظ قوام السنة... نزيل نيسابور، لم يكن في زمانه مثله في فنه في الشرق والغرب، له كتاب (بحر الأسانيد في صحاح الأسانيد)، جمع فيه مائة ألف حديث، فرتب وهذب، لم يقع في الإسلام مثله، وهو ثمانمائة جزء. ولد سنة (٤٠٩هـ)، وتوفي سنة (٤٩١هـ) (٢١).

أشهر أعلام سمرقند من المحدثين

هو الإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمي الدارمي أبو محمد السمرقندي، نسبة إلى دارم بن مالك، بطن كبير من تميم.

ولد الإمام الدارمي -رحمه الله- سنة (١٨١هـ)، وطلب العلم من صغره، فرحل في شبابه إلى البلاد، وطوف بالأقاليم والبلدان؛ طلبا للعلم والحديث؛ فرحل إلى مصر والشام والعراق والحرمين وبلخ وبخارى؛ حتى اعتبره الخطيب البغدادي أحد الرحالين في الحديث، والموصوفين بجمعه وحفظه والإتقان له، مع الثقة والصدق والورع والزهد والرزانة والاجتهاد والعبادة والتقلل.

شيوخه

يعتبر الإمام الدارمي من المكثرين من الشيوخ؛ فممن روى عنهم: إبراهيم بن المنذر الحزامي، وأحمد بن الحجاج المروزي، والأسود بن عامر شاذان، وحجاج بن منهال، وحبان بن هلال، وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني، وأبو نعيم الفضل بن دكين.

تلاميذه

روى عنه كثيرون، منهم: الإمام البخاري في غير الصحيح، والإمام مسلم في صحيحه، والنسائي في غير سننه، وأبوداود والترمذي في سنيهما، والنسائي في غير سننه، وعبدالله بن أحمد بن حنبل، والإمام أبو زرعة عبيد بن عبدالكريم الرازي، ومحمد بن بشار (بندار) وهو أكبر من الدارمي، والإمام محمد بن يحيى الذهلي وهو أكبر من الدارمي، وغيرهم.

وقد ألف الإمام الدارمي مؤلفات عدة، منها ما ذكره الخطيب البغدادي في التاريخ (٢٩/١٠): أن الدارمي رحمه الله قد صنف المسند والتفسير والجامع.

لم يكن الدارمي رحمه الله مقلدا لأحد من أصحاب المذاهب؛ فقد كان مجتهدا كامل الآلة؛ قال عنه الحافظ الذهبي: «كان من أوعية العلم يجتهد ولا يقلد، ولهذا كان له أقوال فقهية تدل على علمه وفقهه، وكتابه يدل على ذلك؛ حيث ذكر أبواب كثيرة في الأحكام الفقهية، ومن نظر إلى تراجم الأبواب وجدها تدل على ذلك».

ثناء العلماء عليه

كان الإمام الدارمي رحمه الله عالما ورعا تقيا؛ مثالا للصدق والثقة والأمانة والعقل والرزانة، ولذلك أثنى عليه العلماء ثناء عطرا، ومن ذلك:

قال أبو حاتم الرازي: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق، ومحمد بن يحيى أعلم من بخراسان اليوم، ومحمد بن أسلم أورعهم، وعبدالله بن عبدالرحمن أثبتهم. وقال أيضا: هو إمام أهل زمانه.

وقال أبو حامد الشرقي: إنما أخرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة: محمد بن يحيى، ومحمد بن إسماعيل، وعبدالله بن عبدالرحمن، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبي طالب.

وقال محمد بن إبراهيم بن منصور الشيرازي: كان على غاية من العقل والديانة؛ ممن يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهد؛ أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند، وذب عنها الكذب، وكان مفسرا كاملا وفقيها عالما.

وقال إسحاق بن داود السمرقندي: قدم قريب لي من الشاش؛ فقال: أتيت أحمد بن حنبل فجعلت أصف له أبا المنذر، وجعلت أمدحه؛ فقال: لا أعرف هذا، فقد طالت غيبة إخواننا عنا، لكن أين أنت عن عبدالله بن عبدالرحمن! عليك بذاك السيد، عليك بذاك السيد.

وقال محمد بن عبدالله المخرمي: يا أهل خراسان مادام عبدالله بن عبد الرحمن بين أظهركم فلا تشتغلوا بغيره.

وقال محمد بن بشار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور، وعبدالله بن عبدالرحمن بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى.

وقال الذهبي: كان الدارمي ركنا من أركان الدين، قد وثقه أبو حاتم الرازي والناس، وحدث عنه بندار والكبار.

وفاته

توفي الإمام سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة؛ قال إسحاق ابن أحمد بن خلف البخاري: كنا عند محمد ابن إسماعيل البخاري؛ فورد عليه كتاب فيه نعي عبدالله بن عبدالرحمن؛ فنكس رأسه، ثم استرجع، وجعل تسيل دموعه على خديه، وأنشأ يقول:

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم

وفناء نفسك لا أبا لك أفجع

رحم الله الإمام الدارمي رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هوامش

(١) انظر: (بلدان الخلافة الشرقية) (ص/٥٠٣-٥٠٤).

(٢) (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي (ص/٢٧٨).

(٣) (آزاج) جمع (أزج)، وهو ضرب من الأبنية، بيت يبنى طولا، ويقال له بالفارسية: أوستان، ويجمع على (آزج)، و(آزاج). (تاج العروس) (٢٨٧/٣/أزج).

(٤) الربض لغة: ما حول المدينة، ويستعمل في كتب البلدان بمعنى الضاحية خارج المدينة.

(٥) (الجريب) يقدر بـ(١٣٦٦) مترا مربعا.

(٦) أي: القلعة.

(٧) المسناة، وجمعه: مسنوات، ومسنيات، ما يبنى لحجز ماء السيل، وهو السد.

(٨) (معجم البلدان) للحموي (٢٤٧/٣-٢٤٨).

(٩) المصدر السابق (٢٤٨/٣).

(١٠) انظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٦٠/٢).

(١١) (تركستان) لبارتولد (ص/١٧٦).

(١٢) انظر: (تاريخ الطبري) (٤٧٢/٦)، (الكامل) لابن الأثير (٥٧١/٤)، (تاريخ الإسلام) للذهبي (١٠٤١/٢)، (البداية والنهاية) لابن كثير (٤٤٠/١٢-٤٤٣).

(١٣) انظر: المصادر السابقة، وانظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٥٥/٢).

(١٤) انظر: (تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي) لبارتولد (ص/١٧٠)، وانظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٥٨/٢-٤٥٩).

(١٥) انظر: (صحافي ومدينتان: رحلة إلى سمرقند وزنجبار) لرياض نجيب الرئيس (ص/٩٢)، وفيه معلومات قيمة عن مدينة سمرقند، وقد زارها سنة (١٩٩٢م).

(١٦) انظر: (رحلة ابن بطوطة - المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار) (ص/٣٩١) ط: دار الكتب العلمية.

(١٧) انظر: (بلدان الخلافة الشرقية) (ص/٥٠٨).

(١٨) انظر: (العالم الإسلامي في رحلات عبد الرشيد إبراهيم) (٢٧/١، ٢٩).

(١٩) انظر: (الجواهر المضية) (٢/ت٦١٠)، (سير أعلام النبلاء) للذهبي (٣٢٢/١٦).

(٢٠) ترجمته في: (سير أعلام النبلاء) (٤٨٧/١٤).

(٢١) ترجمته في: (سير أعلام النبلاء) (٢٠٥/١٩-٢٠٦).

الشيخ لحبيب فارس

(١٩١٩ - ١٩٩٤)

د. محمد مراح
أكاديمي جزائري

الشيخ لحبيب فارس، شخصية دعوية مهيبة، أضاء بإشراقاته النورانية الدعوية سماء تبسة، طوال سنوات السبعينيات والثمانينيات خصوصا، فكان الشيخ الملهم، والمربي الحصيف، والموجه الحكيم لشباب المدينة، قبيل وأثناء نور الصحوة المباركة. فكانت دروسه الجمعية وخطبه الطويلة نسبيا (كان كل من درس الجمعة وخطبتيها يستغرقان نحو ساعتين في كثير من الأحيان، بما في ذلك أثناء فصل الصيف، بالمسجد العتيق، على ضيق مساحته ورحابة النفوس واستعدادها للتلقي)؛ تخشع لها القلوب، وتشرئب إليها الأعناق، وتسعد بها النفوس، فلقد كانت بحق رحيقا ترتشفه نفوسنا في تلك الفترة العطرة. كان الشباب يلتفون حوله في أماكن كثيرة، فضلا عن الموعد الأسبوعي مع شعيرة الجمعة، يجلسون إليه في مقصورة المسجد العتيق إثر صلاة الجمعة، وإثر صلاة العصر، خصوصا في الصيف بشكل دائم، فعلى الرغم من هيبته كان ينفتح على تطلعاتهم وأشواقهم الإيمانية مجيبا، وموجها، ومعلما، ومرشدا.

كنا نجتمع إليه في روحاته وغدواته ما بين المسجد وبيته، وأثناء تمشيه اللطيف حوالي منزله، بل وأثناء فترات جلوسه أمامه صباحا ومساء، كانت له جلسته المميزة، يعلوه الوقار والهيبة، يشغله التفكر والتأمل كشأن كل العظماء.

ولازلت أذكر تلك الجلسات الإيمانية ما بين العصر والمغرب في شهر رمضان المبارك، الذي وافق فصل الصيف آنئذ، ولقوة طرح وتحليل الشيخ لحبيب رحمه الله تعالى، وتوزيع حديثه على اهتماماتنا ما كنا نشعر بتعب الصوم وشدة الحر وطول الوقت، ولم يكن في مسجد الشيخ العربي التبسي سوى مراوح. فقد كان حديث الشيخ لحبيب فارس، رحمه الله تعالى، يأخذ بعقولنا ويستولي على قلوبنا ونفوسنا، فيذهب بها بعيدا في رحاب الإيمان والتربية وعين اليقين، فلا ينفض المجلس قبيل المغرب إلا وقد خرجنا شبابا آخر غير الذي كنا حين جلسنا.

من خصائص خطابه:

– في تقديري أن أهم ميزة تحلى بها خطابه، قدرته الباهرة على التحليل؛ فلا أذكر أنه تحدث في مسألة حديثا عابرا مقتضبا، أو سطحيا بسيطا، اللهم إلا أن يكون السائل من عامة الناس وبسطائهم ويدرك محدودية تفكيره، بل لقد كان أحيانا مع هؤلاء البسطاء من الناس يجيبهم ويحثهم بما ينبه عقولهم وتفكيرهم؛ إذ لا تعدم استعدادا عقليا لدى أكثر الناس، خصوصا في فترات الصفاء النفسي وطمأنينة القلب، وهو في الحقيقة إعمال للمنهج القرآني ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾(الرعد:٤)، كان النص القرآني أو النبوي عنده فضاء رحيبا عميقا للتدبر والتحليل. وهو لعمري منهج القرآن الذي ربى عليه النبي ﷺ الصحابة الكرام؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾

(ص:٢٩)، فدروسه وخطبه الجمعية كانت مسرحا خصبا للتحليل والاستنباط والغوص على معان جليلة، له في كثير منها فضل السبق والإبداع.

- **التفكير المنهجي**، اتسم تحليله بمنهجية واضحة، منظمة؛ إذ ينطلق في الدرس أو الخطبة من نص قرآني أو نبوي حول مسألة ما، ثم يسترسل محللا، يدور حول الموضوع في كل ما يفتح الله عليه من المعاني والإشراقات النورانية، التربوية خصوصا. كل ذلك دون أن ينفصل عن موضوعه الأساس. وهذه الخاصية ساعدت كثيرا ابنه البار الأخ البدر فارس، بارك الله فيه، في وضع عناوين محددة دالة لخطبه ودروسه التي حصل عليها من أخينا يوسف مباركية، رحمه الله، مسجلة على شرائط الكاسيت، ثم حملها على CD

- قد لا يكون الشيخ لحبيب رحمه الله تعالى من أولئك الشيوخ الذين يغرقونك في بحر من الأحكام والمعلومات الفقهية وغيرها من علوم الشريعة، إلا إنه أُوتي ذوقا خاصا في فهم وعرض الإسلام، فاتخذ له منهج إيقاظ العقول وإعمالها في التوجيه، والبناء؛ أي أنه كان يبني شخصيات الشباب الفكرية، ويستثير كوامن قدراتهم العقلية، حتى تصلب أعوادهم وتتميز شخصياتهم الفكرية، وينبعثوا عن إيمان عميق راسخ في تغيير واقعهم.

- **قوة خطابه**، وهي ميزة تعكس شخصيته؛ إذ بقدر قوة تلك الشخصية وصلابتها -كما يعرفها كل من عرف الشيخ رحمه الله تعالى-، كان قوة خطابه، معاني وأفكارا، ونبرة صوت، حين يحلل ويناقش، فقوة كل تلك العوامل لا تخطئها الملاحظة، حتى ولو كان في أهدأ لحظاته كلاما وتحليلا.

- **وضوح أفكاره**، يستطيع السامع (تراث الشيخ العلمي والفكري والدعوي كله شفوي) أن يتابع أفكاره في وضوح تام، رغم عمقها في أكثرها. ينساب كلامه سلسا مرتبا متينا موزونا، يبلغك الفكرة بينة واضحة لا لبس فيها.

وبعد، فلا أدعي تقديم ما أود قوله وتقديمه حول الشيخ من ذكريات خاصة، أو عرض تحليلي لجهده الدعوي المبارك، فضلا عن الدراسة المستوفية متطلباتها وشروطها، فهي ليست سوى كلمات فاضت بها النفس، إذ لطالما ترددت في قلبي وجوانحي معانيها، قد تكون فضحت حبا مكينا في القلب للشيخ لحبيب فارس، فأردت نقلها للشباب، عسى أن ينتفعوا من خلالها بالاستفادة من منهج الشيخ ودعوته، رحمه الله.

ولد بإحدى القرى بجنوب تبسة، مدينة بالشرق الجزائري: حوالي ٧٠٠ كلم بينها وبين العاصمة الجزائر، على الحدود التونسية. كما أنها من أوائل المدن فتحا إسلاميا في شمال إفريقيا، حفظ فيها القرآن الكريم وتلقى بعض مبادئ العربية والشريعة على أيدي معلميها، ثم انتقل لنفطة بالجنوب التونسي ودرس بها، وانضم بعدها للزيتونة، وتتلمذ على الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، المفكر والسياسي التونسي الكبير. إثر عودته انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدعوة من الشيخ الشهيد العربي التبسي (١٨٩٥-١٩٥٧)، كلف بمهمة ممون للثورة التحريرية في بدايتها بالمنطقة، وتجنيد الشباب. لذا ألقي عليه القبض وحرق منزله وصودرت أمواله، تنقل بين مختلف المعتقلات الاستدمارية شرق ووسط وغرب البلاد، وذاق صنوف العذاب فيها، إلى أن فرج الله عنه بالفرج الاستقلالي. عرض عليه منصب الإفتاء بوزارة الشؤون الدينية لكنه أبى، واختار العمل الدعوي من خلال الخطابة والتدريس والاتصال الفردي، خصوصا بالشباب، وتعرض إلى مضايقات كثيرة، أشهرها توقيفه عن الخطابة في فترة من سنوات سبعينيات القرن العشرين. وظل على نهجه التبليغي الإرشادي إلى أن وافاه الأجل -رحمه الله تعالى- إثر مرض ألزمه الفراش.

إن دروس الشيخ لحبيب فارس المسجدية قد جمعهما ابنه البار الأخ البدر فارس، بعد أن بذل جهودا مضنية في تفريغها من الأشرطة، وجمع طائفة من الشهادات من عارفي الشيخ، رحمه الله تعالى، وأصبح العمل جاهزا للطبع، فلم تسعفه إمكاناته لذلك، فسعى مساعي حثيثة وتلقى وعودا من جهات رسمية محلية كثيرة، فلم يتحقق من ذلك شيء للأسف، لكن الأمل في الله تعالى وطيد في أن يتحقق، فيعرف الكتاب النور بإذنه تعالى.

محدودية السياحة البينية للدول الإسلامية

عبدالحافظ الصاوي
خبير اقتصادي

في إطار اقتصاد الخدمات الذي يشكل جزءا لا يستهان به في الناتج المحلي الإجمالي لكل من الدول النامية والمتقدمة على السواء، يأتي الاهتمام بنشاط السياحة، وتولي العديد من الدول الإسلامية أهمية خاصة لنشاط السياحة، لما يمثله من مصدر مهم للنقد الأجنبي، الذي تعاني الدول الإسلامية من نقص فيه.

وحسب بيانات منظمة السياحة العالمية؛ فقد وصل عدد السائحين على مستوى العالم في عام ٢٠١٢م، إلى ما يزيد عن مليار سائح، كما وصلت العائدات السياحية لهذا العدد من السائحين إلى ١٠٧٦ مليار دولار أمريكي. كما تصنف المنظمة عدد الأنشطة والصناعات الاقتصادية بنشاط السياحة بـ ١٨٥نشاطا، سواء كان هذا النشاط يرتبط بالسياحة بشكل مباشر أو غير مباشر (١).

وفي إطار ما يعيشه العالم الآن من تحويل دفة الاقتصاد العالمي نحو الشرق، فقد لوحظ أن حصة أوروبا والأمريكتين من السياحة العالمية قد بدأت في التراجع، فبعد أن كانت تزيد عن نسبة ٧٠٪ من إجمالي عدد السائحين في العالم، تراجعت في عام ٢٠١٢م، لتصل إلى ٦٧,٣٪، ويتوقع أن تتراجع حصة أوروبا والأمريكتين خلال السنوات القادمة، لصالح الدول الصاعدة لتزايد حصتها من النشاط الاقتصادي العالمي.

وعلى الرغم من أن منظمة التعاون الإسلامي تضم في عضويتها ٥٧ دولة، أي ما يزيد عن ربع عدد دول العالم التي تتمتع بعضوية منظمة الأمم المتحدة، فإن نصيبها من حركة السياحة العالمية لا يزال ضعيفا، في الوقت الذي تمتلك فيه دول منظمة

التعاون الإسلامي مقومات سياحية هائلة، سواء على صعيد السياحة الثقافية، أو الشواطئ الطبيعية، وغيرها من المقومات السياحية.

واقع السياحة البينية الإسلامية

يحدد تقرير صدر حديثا عن مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية بأنقرة، بعنوان «السياحة الدولية في البلدان الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي: الآفاق والتحديات ٢٠١٣م» (٢): نصيب دول منظمة التعاون الإسلامي من عدد السائحين على مستوى العالم، بنسبة ١٥,٢٪ في عام ٢٠١١م، بواقع ١٥١,٦ مليون سائح، في حين كانت حصة هذه الدول في عام ٢٠١٠م نحو ١٦,٣٪، ويرجع التقرير هذا الانخفاض إلى الأحداث التي شهدتها الدول العربية في نهاية عام ٢٠١٠م وبداية عام ٢٠١١م، كما بلغت حصة دول المنظمة نسبة ١٣٪ فقط من إجمالي عوائد السياحة العالمية، بواقع ١٣٥,٥ مليار دولار.

إلا أن الملمح البارز في أداء الدول الإسلامية على الصعيد السياحي العالمي، هو وجود كل من تركيا وماليزيا على قائمة أكبر ١٠ مقاصد سياحية على مستوى العالم، لتحتل تركيا المرتبة السادسة وماليزيا المرتبة العاشرة، وتحافظ الدولتان على هذا الترتيب على مدار عامي ٢٠١١ و٢٠١٢م.

وتمثل السياحة نشاطا معتبرا في العديد من الدول الإسلامية، فهي تمثل نسبة لا يستهان بها في الناتج المحلي الإجمالي لتلك الدول، فبيانات ٢٠١١م، تشير إلى أن قطاع السياحة يسهم بنسبة ٨٪ من إجمالي الناتج المحلي في مجموعة من الدول الإسلامية منها: لبنان، المغرب، مصر، ماليزيا، البحرين.

لكن على صعيد السياحة البينية لدول المنظمة، نلحظ أن هناك تطورا بطيئا، فبيانات عام ٢٠٠٧م تشير إلى أن عدد السائحين بلغ ٤٧,١ مليون سائح، وفي عام ٢٠١٠م، أي بعد ٣ سنوات، وصل عدد السائحين بين الدول الإسلامية ٥٣,٣ مليون سائح، ووصل العدد في عام ٢٠١١م إلى ٥٤,٤ مليون سائح.

وسمة كثير من الأنشطة -التي ترصد الأداء الاقتصادي والتجاري البيني للدول الإسلامية- هي أن مجموعة من الدول تسيطر على النسبة الأكبر من النشاط، وتعيش بقية الدول حالة من العزلة، أو المشاركة المحدودة، ففي عام ٢٠١١م، استحوذت ١٠ دول على نسبة ٨١,٣٪ من حجم السياحة البينية، بواقع ٤٤,٢ مليون سائح، وهو ما يعني أن نصيب باقي دول المنظمة والبالغ عددهم ٤٧ دولة من السياحة البينية، ١٠ مليون سائح تقريبا.

ونفس المنوال ينطبق على مؤشر العائدات السياحية البينية، حيث استحوذت هذه الدول العشر على النصيب الأكبر بواقع ٩٣,٥ مليار دولار، وبنسبة تبلغ ٨١٪، وهذه الدول التي تستحوذ على النصيب الأكبر من السياحة البينية للدول الإسلامية حسب الترتيب التنازلي هي (السعودية، تركيا، البحرين، سورية، ماليزيا، الكويت، كازاخستان، تونس، إيران، الأردن).

ونلاحظ على هذا الترتيب الآتي: أن المملكة العربية السعودية في الصدارة لما تتمتع به من السياحة الدينية، حيث أداء مناسك الحج والعمرة. أما تركيا فهي تعد مقصدًا سياحيًا إسلاميًا ودوليًا، نظرًا للطفرة الاقتصادية والحضارية التي حققتها على مدار السنوات العشر الماضية، وأن إدراج سورية على هذا المؤشر في إطار بيانات عام ٢٠١١م، حيث لم تكن الأوضاع السياحية والأمنية قد تدهورت على ما هي عليه الآن في عام ٢٠١٤م، حيث وصلت معدلات السياحة إلى الصفر.

أسباب محدودية السياحة البينية

تعود محدودية السياحة البينية للدول الإسلامية إلى مجموعة من الأسباب، تتعلق في غالبيتها بالدول الإسلامية ذاتها، كما يعود بعضها لأسباب خارجية. أما الأسباب الداخلية ففي مقدمتها، الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعيشها غالبية الدول الإسلامية وانتشار الفقر، وبالتالي لا تتوفر الإمكانات المادية التي تساعد على السفر والتنقل بين الدول الإسلامية. فمن بين نحو ٥٠ دولة تصنف على أنها الأشد فقرًا على مستوى العالم؛ يوجد من بينها قرابة ٢٤ دولة هي أعضاء في منظمة التعاون الإسلامي.

أيضا حالة عدم الاستقرار السياسي والأمني داخل الدول الإسلامية، فضلا عن العلاقات غير الجيدة على الصعيد السياسي بين الدول الإسلامية، مثل نزاعات الحدود، وإذكاء روح العداء والتقاطع بين مواطني هذه الدول. فمن السهل على مواطني الدول الإسلامية المختلفة الحصول على تأشيرات الزيارة والسفر والتنقل للدول غير الإسلامية، في الوقت الذي توضع فيه العديد من العراقيل أمام التنقل والسفر لمواطني الدول الإسلامية بين بعضها بعضا.

كذلك الأوضاع التنموية لدول العالم الإسلامي، لا تجعل منها مزارات لراغبي العلم أو التدريب أو العلاج، كما هو الحال في دول أخرى، فباستثناء تركيا وماليزيا، لا تمتلك باقي الدول الإسلامية البنية الأساسية الصلبة والمعرفية التي تجذب السياح إليها من مختلف بلاد العالم، فضلا عن جذب السياح من الدول الإسلامية.

وثمة عامل مهم يتعلق بالتوعية المعرفية وضرورة التطلع لمعرفة حضارة وثقافة باقي الدول الإسلامية من قبل أفراد الأمة الإسلامية، فحضارة الغرب، وريادتها التكنولوجية والحضارية؛ جعلت التعرف على بلاده وثقافتها وحضارتها سهل على كثير

من أبناء العالم الإسلامي، بينما الدول الإسلامية تفتقد لهذه الميزة الحضارية.

أما العوامل الخارجية فعلى رأسها وجود الكيان الصهيوني، الذي يحول دون التواصل البري بين عدد كبير من الدول الإسلامية في دولتي أفريقية وآسيا، فزوال دولة الكيان الصهيوني يجعل من السهل، أن ينتقل المواطن المسلم بسيارته ليزور العديد من الدول الإسلامية، وبلا شك أن السفر البري أقل من حيث التكلفة مقارنة بوسائل النقل الأخرى.

متطلبات زيادة السياحة البينية

النشاط السياحي البيني، سيكون انعكاسًا طبيعيًا لزيادة حجم التعاملات الاقتصادية والتجارية بين الدول الإسلامية، لذلك يجب العمل على زيادة الروابط التعاونية والتكاملية بين الدول الإسلامية، فحجم التبادل التجاري لا ينبغي أن يكون كما هو على مدار السنوات الماضية، حيث لا يتجاوز نسبة الـ ١٠٪.

العمل على إنهاء حالات النزاع بين الدول الإسلامية، والعمل على نزع موروثات الغزو الفكري بين أفراد الأمة الإسلامية، وأن تستحضر كل دولة عوامل التعاون والتكامل فيما بينها وبين بقية الدول الإسلامية، وأن يستفاد من الروابط القديمة، التي رسخ لها مفهوم الأمة ثقافة وسلوكا خلال ما قبل الدولة القُطرية. والعمل على أن تستفيد كل دولة إسلامية على ما لديها من مزايا تنافسية على الصعيد الإسلامي، من معاهد إسلامية، أو ارتباط بعض المناطق بمشاهير العلماء ورواد الحضارة الإسلامية.

الاتجاه نحو تسهيل حصول أفراد المجتمعات الإسلامية على تأشيرات الدخول والزيارة لمختلف الدول الإسلامية، طالما الأمر يتعلق باحترام سيادة الدول، ولا يخالف قوانينها الداخلية، وأن يستفاد من تجربة الاتحاد الأوروبي في حرية السفر والتنقل، بل والاستفادة من تجربة تركيا مؤخرًا في هذا الشأن، فكل فترة تعلن تركيا عن أن مواطني دولة ما يعفون من تأشيرة الدخول ويحصلون عليها في مطارات تركيا؛ مما أنعش حركة السياحة في تركيا بشكل كبير، وجعلها تحتل المرتبة الثانية بعد السعودية في حركة السياحة البينية للدول الإسلامية، ولولا السياحة الدينية التي تتميز بها السعودية لأداء شعائر الحج والعمرة، لكانت تركيا في المقدمة.

لا تصلح العواطف لبناء علاقات اقتصادية خالصة، فلابد من وجود مصلحة يستفيد منها الطرفان، وهو ما ينبغي أن تركز عليه برامج ترويج السياحة البينية للدول الإسلامية، فبعد سبع مؤتمرات عقدتها منظمة التعاون الإسلامية منذ عام ٢٠٠٠م وحتى الآن، على مستوى وزراء السياحة للدول الإسلامية، ينبغي أن تستهدف الدول الإسلامية السائح المسلم، ليس من قبيل تميزه عن غيره، ولكن من قبل وحدة الثقافة والدين، وسهولة تقديم وسائل الترفيه والراحة بما لا يخالف الشريعة الإسلامية. ولعل تجربة الفنادق الإسلامية، والطعام الحلال المنتشرة في العديد من دول العالم، تعطي الدرس للدول الإسلامية لما تمتلكه من ميزة تنافسية لجذب السائح المسلم.

وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من التجربة الماليزية بترويج برامج السياحة الطبية الإسلامية، التي خاطبت شريحة معينة تطلب خدمات طبية نسائية للنساء، وأخرى رجالية للرجال.

العمل على جذب الاستثمارات السياحية فيما بين الدول الإسلامية، بما يساعد على تحسين بنيتها الأساسية في مجال السياحة، مثل الفنادق والمدن الترفيهية، أو البحث عن مجالات سياحية تتميز فيها الدول الإسلامية كل على حدة، سواء السياحة الجبلية، أو العلاجية، أو الريفية، أو الثقافية، أو الدينية، وهكذا.

يُعد العنصر البشري عماد أية عملية تنموية، ويحتاج النشاط السياحي نوعية متميزة للعمل فيه، وهو ما يفرض على دول العالم الإسلامي الإسراع في القضاء على الأمية، والتوسع في مجال التعليم المرتبط بالنشاط السياحي، حتى يمكن أن يساهم هذا النشاط في القضاء على البطالة التي يعاني منها معظم دول العالم الإسلامي.

ويرتبط بهذا المجال التعليم الخاص بإدارة المنشآت السياحية، حيث يلاحظ أن معظم المنشآت السياحية بمستوياتها المختلفة في العالم الإسلامي، تديرها شركات إدارة من خارج دول العالم الإسلامي. ومن شأن وجود مديرين مؤمنين بأهمية مراعاة القواعد الشرعية أن يؤدي ذلك لعدم الوقوع في الممارسات الخاطئة التي يعاني منها قطاع السياحة في الدول الإسلامية(٣).

إن قضايا الأمة الإسلامية على اختلاف تنوعها، يرتبط بعضها ببعض، ولا شك أن الأمر يحتاج إلى أن تفعل المؤسسات التي تم إنشائها في إطار التعاون الإسلامي، ولا شك أن العمل على تحرك أحد القطاعات اقتصاديًا سيدفع بباقي القطاعات نحو التفاعل الإيجابي، ونحسب أن عدد السكان يزيد عن ١,٢٥ مليار نسمة، جدير بأن يصنع نشاطًا سياحيًا مزدهرًا.

هوامش

١- منظمة السياحة العالمية، «التصنيف الدولي الموحد للنشاطات السياحية» http://www.unwto.org/statistics/basic_references/index-en.htm

٢- اعتمد المقال على الأرقام الواردة بالتقرير المذكور، وهو منشور على موقع المركز بشبكة الانترنت، عبر هذا الرابط، علمًا بأن المركز يتبع منظمة التعاون الإسلامي.
http://www.sesric.org/publications-detail-ar.php.id=٢٨٤

٣- عبدالحافظ الصاوي، نحو استراتيجية تنموية للسياحة .. رؤية تنموية، تقرير واقع الأمة .. بين الثورات والمرحلة الانتقالية، إصدار مجلة البيان ١٤٣٤هجرية - ٢٠١٣ ميلادية، الإصدار العاشر، ص ٤٥٢.

مقاومة السكري

د. محمد عزيز الرحمن القاسمي
باحث في الطب النبوي

يزداد السكر في الجسم ويتحول إلى شحم، ولا يخرج عن طريق البول، بل يكون في العضلات. والرجل المصاب بمرض السكر يضعف يوما بعد يوم، لأن السكر بدل أن يصل إلى العضلات لا يزال يخرج عن طريق البول. ويكون هرمون الأنسولين Insulin hormone في الجسم المعتدل السالم في كمية ملائمة عادة، وهو يحلل الجلوكوز المعد عن طريق الدورة الدموية إلى خلايا جسمية body cells بحيث يستعمل هناك للقوة والطاقة. وهناك خصوصية أخرى لهذا الهرمون بخلاف ذلك، وهي تخزين الجلوكوز بمقدار وافر للاستخدام فيما بعد، وكذلك تخزين ما فضل من الشحم. وبالعكس من ذلك، اذا فقد الجسم صلاحية توليد هرمون الأنسولين أو قل أو فسد استعماله يصاب بمرض السكر، ويقال لهذا الجسم «مصاب بالسكر».

وله صورتان: الصورة الأولى، توليد أنسولين يضعف إلى حد كبير بحيث لا يفي بحاجة الجسم. ويقع الخلل لعدم الكمال في العملية الفطرية لتصدير الدم إلى body cells.

والصورة الثانية: وهي التي لا يتولد فيها هرمون ما. ففي هاتين الصورتين يفسد استعمال الأغذية الموصلة إلى الجسم، ويزداد مقدار الجلوكوز في الدم، ولا تجد خلايا الجسم قوة حسب الحاجة، ويخرج هذا الجلوكوز عن طريق البول، ويتحلل شحم الجسم من أجل قوة العضلات شيئا فشيئا، ويضعف بذلك المصاب بمرض السكر ويهزل. والسكر الذي يتولد من لحم الجسم وشحمه يسبب كيتون ketone ومركبات ضارة تجعل الدم مسموما، كما يسبب هذا كثرة التبول.

وهذا المرض يوجد في الرجال أكثر من النساء، وفي الجنس الأبيض أكثر من الأسود، وربما يكون وراثيا. ويستحسن دوما الابتعاد عن الهم والغم والصدمات الروحانية والأغذية غير المفيدة والقيام بالرياضة البدنية المناسبة.

ولضعف الجلوكوز في جسم المريض صورتان: الأولى التي لا يتولد فيها أنسولين insulin، وهي أخطر صورة. أما الثانية فهي التي يتولد فيها أنسولين ولكن أقل من الضرورة أو فسد استعماله، وهي أقل ضررا من الأولى.

والصورة الأولى يقال عنها تابع للأنسولين، وهي تتطلب عناية كبيرة وأوسع، ولا بد من علاجها على الفور. بينما الصورة الثانية يقال عنها غير تابع للأنسولين non – insulin dependent.

إعداد : سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

كيف تختار الكتاب الجيد؟

١ - اختر كتابا نافعا

كثير من الناس يشترون الكتب بناء على أغلفتها الجذابة، وهذا أمر غير صحيح، فحاول أن تختار كتابا مفيدًا.

٢ - نظرة متفحصة إلى الكتاب

طالع الكتاب واقرأ المقدمة والمحتويات ودار النشر والفصول وحجم الخط المناسب بسرعة وفي دقائق معدودة، وكذلك اقرأ قليلا لتتعرف على أسلوب الكاتب وطريقته.

٣ - استخدم أسلوب التلخيص

لتحقيق أقصى درجة من الاستفادة من الكتاب لخص كل فصل قمت بقراءته في ورقة، واجعلها داخل الكتاب، بحيث إذا أردت أن تعود إلى الكتاب فرجعت إلى الملخصات فقط دون الحاجة إلى قراءة الفصل بأكمله. وهذه هي الطريقة التي اتبعها في قراءة الكتب.

٤ - استخدم البطاقات

اجعل بجانبك أثناء القراءة بطاقات صغيرة.. دوّن فيها الأفكار الجيدة والأقوال والحكم والتمارين التي تفيدك في مشروع قادم، كتأليف كتاب أو إعداد صفحة مثلا أو إلقاء كلمة جماهيرية واستخدمها أثناء حديثك.

فنـــون القـــراءة

قد يتعذر كثير من الناس في عدم لجوئهم إلى القراءة بقلة الوقت، وهو أمر غريب، لأنهم يجدون أوقاتا للطعام والشراب والسينما ومشاهدة التلفاز والجلوس في المقاهي. ومن كان حريصا فعلا على القراءة يمكنه أن يجد وقتا كافيا لها، وعليه أن يجعل للقراءة جزءا في جدوله اليومي، بحيث تصبح هذه الملكة عادة يومية. وسأسوق بعض الأفكار والتقنيات لكيفية القراءة والاستفادة القصوى مما تقرأ:

١ - خصص وقتا للقراءة

يروى أن العالم إسحاق نيوتن كان ينام بشكل متقطع: ينام ساعتين ثم يستيقظ ليقرأ ويعمل، وإذا ما أحس بالملل نام ساعتين أخريين وقام مجددا ليقرأ. فتخصيص وقت للقراءة أمر مهم جدا.

٢ - استغل أوقات الانتظار

هنالك أوقات كثيرة تضيع هدرا أثناء الانتظار في السيارة مثلا أو في الدوائر الحكومية أو في الطائرة أثناء السفر، فحاول أن تصطحب معك كتيبا صغيرا تقرأ فيه في هذه الأوقات الضائعة بدلا من قلق الانتظار. فكم من أناس ألفوا كتبا وصنعوا مشاريع في هذه الأوقات البسيطة التي قد نحتقرها.

٣ - خصص لك مكانا جيدا للقراءة

اجلس في مكان مريح، وتحت إضاءة مريحة للعين، بعيدا عن الإزعاج، حتى تتعود وتعيش أجواء القراءة السليمة من دون مقاطعات. وأنا شخصيا أفضل القراءة في المسجد أو أمام البحر أو في الحديقة أو أحد المقاهي الهادئة.

٤ - الساعة البيولوجية

كل إنسان لديه ساعة معينة من اليوم يبلغ فيها نشاطه العقلي ذروته. وينصح العلماء والباحثون بشدة باستغلال هذا الوقت في أعمال تحتاج إلى تركيز عال، كالقراءة مثلا، حتى تستفيد بأقصى درجة ممكنة مما تقرأه. ولعل أفضل ساعة للقراءة هي بعد صلاة الفجر لحديث الرسول ﷺ «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

ارتباط القراءة بقيام الحضارات

١ - الحضارة اليونانية

على الرغم من قدم الحضارة اليونانية، لكونها ترجع إلى ما قبل الميلاد، فإن آثار هذه الحضارة وإنتاجها الفكري والأدبي الغزير (إرث أفلاطون وأرسطو وسقراط) لا تزال مؤثرة في العديد من الناس حتى اليوم.

٢ - الحضارة الإسلامية

عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية العريقة أقف إجلالا لهذه الحضارة العظيمة التي انطلقت من دستور رباني ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق:١)، حيث بلغت هذه الحضارة من الرقي والعمران الشيء العجيب، مما أذهل كل الحضارات، كالقصور الأندلسية وهندستها الإسلامية التي لا تزال آثارها شاهدة اليوم في غرناطة وإشبيلية وقرطبة. فعلماء المسلمين، الذين انكبوا على القراءة والمطالعة في العلوم المختلفة، استفاد منهم الأوروبيون اليوم في بناء جامعاتهم وحضارتهم الزائفة.

وشهد شاهد من أهلها

يقول المستشرقان هارولد جولد وايت وكاتي كوب في كتابهما «إبداعات الفكر»: «كان المسلمون مفعمين بالحياة، أنقياء. وكانوا أناسا تواقين متحمسين للفكر.. فالديانة الإسلامية تتطلب من الأشخاص أن يفهموا القرآن من أجل أنفسهم.. وقد ترجم هذا التشديد على القراءة والكتابة إلى الاهتمام بكل الحرف الفكرية».

٣ - الحضارة اليابانية

اليابان، هذا البلد الصغير جغرافيا، الذي يعاني من شح موارده الطبيعية، لكنه غني بعناصره البشرية. وبعد الدمار الذي حل باليابان بعد الحرب العالمية الثانية بإلقاء قنبلتين ذريتين، قام اليابانيون من الصفر، وأخرجوا من ركام الحرب حضارة راقية أصبحت من القوى الصناعية الضاربة في العالم.

إحصائيات مزعجة

ذكرت صحيفة الرأي الأردنية فيما ذكرت أن:

١ - متوسط القراءة في العالم العربي يعادل ٦ دقائق في السنة، بينما متوسط القراءة في إحدى الدول الأوروبية ٢٠٠ دقيقة في السنة!

٢ - توجد في الكويت مكتبة واحدة فقط لكل ٣٠ ألف نسمة!

٣ - ما تطبعه كل دور النشر العربية أقل من نصف ما تطبعه إسرائيل!

٤ - يصدر كتاب لكل ربع مليون مواطن عربي، بينما يصدر كتاب لكل ١٥ ألف مواطن في العالم المتقدم!

أفكـــار

١ - من اليوم، كون لك مكتبة خاصة في منزلك، وانتق الكتب الجيدة التي تغذي العقل إيجابا، وابتعد عن كل ما هو سلبي.

٢ - ضع لك قائمة شهرية وسنوية بالكتب التي ستقرأها، وخصص لنفسك معدلا معينا للقراءة يوميا.

٣ - كون مجموعة قراءة من عدة أشخاص، بحيث تتفقون على كتاب معين لهذا الشهر، ثم تتناقشون في الكتاب وتبدون الملاحظات والأفكار حوله. وهذه من أعظم الطرق للتحفيز على القراءة في جو تنافسي جميل.

٤ - احمل معك كتيبات صغيرة في السيارة أو في جيبك، واقرأها بين الحين والآخر في ساعات الفراغ وأوقات الازدحام والانتظار.

٥ - اطلع على كل ما هو جديد من الكتب والمجلات، واقرأ حتى تواكب التطور في الثقافة والفكر.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

القول الأحق بالفتوى

المقصود بيانه هنا: القول الذي يجب الأخذ به في الفتوى، وذكر بعض ضوابط ذلك.

ذلك أنه لازم على المفتي أن يتحرى القول الحق في فتواه، ولا يجوز له أن يحكم في قضية ما، أو مسألة ما وفق هواه، أو ما وقف عليه من أقوال الشيوخ في مذهب ما دون الاجتهاد للوصول إلى الصواب فيما يراه.

وقد اتفق العلماء على أنه يجب على المفتي أن يفتي بالقول الراجح الأقوى دليلا، والأقوم برهانا من أي مذهب كان.

قال الإمام الشاطبي، رحمه الله: «إذا ثبت أن الحمل على التوسط هو الموافق لقصد الشارع، وهو الذي كان عليه السلف الصالح؛ فلينظر المقلد أي مذهب كان أجرى على هذا الطريق؛ فهو أخلق بالاتباع وأولى بالاعتبار، وإن كانت المذاهب كلها طرقا إلى الله، ولكن الترجيح فيها لا بد منه؛ لأنه أبعد من اتباع الهوى كما تقدم، وأقرب إلى تحري قصد الشارع في مسائل الاجتهاد». (الموافقات ٥/ ٢٨٠).

وقال الشيخ ابن عابدين، رحمه الله، في منظومته «عقود رسم المفتي»:

ولا يجوز بالضعيف العمل
ولا به يجاب من جا يسأل
إلا لعامل له ضرورة
أو من له معرفة مشهورة

ثم قال في شرح هذين البيتين: «قدمنا أول الشرح أن الحكم والفتيا بما هو مرجوح خلاف الإجماع، وأن المرجوح في مقابلة الراجح بمنزلة العدم، والترجيح من غير مرجح في المتقابلات ممنوع، وأن من يكتفي بأن

شراء سيارة غالية الثمن ولافتة للنظر

(رقم الفتوى ٥١٥١)

عرض على اللجنة الاستفتاء التالي:

رجل من أهل الدين والمروءة، وهو متوسط في العمر، ويرغب في اقتناء سيارة يقودها، وهي من أنواع الرياضية وغالية الثمن ولافتة للنظر، والتي أصبحت -عرفا- سمة من سمات الشباب المستهتر، علما بأنه يقودها متقيدا بآداب السير وقواعد المرور، غير أنه يخشى أن يلحقه بسببها كلام الناس ويعيبوا عليه قيادتها، فهل من مانع شرعي يمنعه من اقتنائها وقيادتها؟ ولعله يجد في نفسه حرجا من قيادتها بسبب نظر الناس وكلامهم.

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا كان المستفتي يشتري السيارة المذكورة بعقد مشروع، ويستعملها بما يوافق الأنظمة المرعية، ولا يرتكب في ذلك أمرا ممنوعا شرعا، ولا يدخل في حد الإسراف والتبذير، ولا يقصد منه الشهرة، فلا يوجد مانع شرعي من شرائها وقيادتها على الوجه المذكور، ولا عبرة باختلاف السن. أما الحرج الاجتماعي الذي يتحدث عنه فتقديره متروك للمستفتي نفسه، ويحسن بالمستفتي ألا يخرج عن عرف أمثاله. والله أعلم.

الإسراف في وليمة الزواج

(رقم الفتوى ١٦٥٠٦)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي:

لدينا عادة قبلية منتشرة في الحجاز وهذه العادة هي: إذا قام أحد أفراد القبيلة بتزويج ابنته إلى أحد شباب إحدى القرى المجاورة، فإنه يطلب من الشاب المتزوج إحضار ما لا يقل عن اثني عشر خروفا، وعندما يسأل والد البنت المتزوجة عن ذلك، يذكر بأن هذه الخراف سوف يذبحها كوجبة لجماعته.

والسؤال: هل هذه العادة حلال في شرع الله أم حرام؟

أجابت اللجنة بما يلي:

يستحب عمل الوليمة بمناسبة الزواج من غير إسراف؛ لقوله ﷺ للمتزوج: «أولم ولو بشاة» (متفق عليه). أما الإسراف في الولائم بمناسبة الزواج أو غيره؛ فإنه محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف:٣١).

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ

تكون فتواه أو عمله موافقا لقول أو وجه في المسألة، ويعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح؛ فقد جهل وخرق الإجماع». (ص٤٨).

وقال الإمام النووي، رحمه الله: «وليس للمفتي والعامل على مذهب الإمام الشافعي في المسألة ذات الوجهين أو القولين أن يفتي أو يعمل بما شاء منهما من غير نظر، وهذا لا خلاف فيه، بل عليه في القولين أن يعمل بالمتأخر منهما، إن علمه، وإلا فبالذي رجحه الشافعي، فإن لم يكن رجح أحدهما، ولا علم السابق لزمه البحث عن أرجحهما فيعمل به» (روضة الطالبين ١١/١١١).

وعليه؛ فطالب العلم يتحرى الحق ويفتي به، ويتجنب الفتوى بغير علم، أو بالضعيف من الأقوال.

وفي الغالب لا تخفى معرفة الصواب من الأقوال عن العالم؛ لا سيما إن كان ذا عقل راجح، مطلعا على أقوال المذهب، ومنتبها إلى قواعد الترجيح فيه.

أما غير المجتهدين فقد نبه الإمام الشاطبي إلى ضابط مهم يعتمد عليه المفتي؛ فقال: «فإن قيل: فهل لغير المجتهد من المتفقهين في ذلك ضابط يعتمده أم لا؟

فالجواب: إن له ضابطا تقريبيا، وهو أن ما كان معدودا في الأقوال غلطا وزللا قليل جدا في الشريعة، وغالب الأمر أن أصحابها منفردون بها، قلما يساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحب قول عن عامة الأمة، فليكن اعتقادك أن الحق في المسألة مع السواد الأعظم من المجتهدين، لا من المقلدين». (الموافقات ٥/١٤٠).

لذلك، ينبغي على المفتي أن يراعي ما يلي:

أولا - أن يحرص على تتبع الأقوال بأدلتها.

ثانيا - أن يتحرى معرفة مواطن الإجماع، ويحذر من مخالفته وخرقه.

ثالثا - أن يعلم أن البحث عما يرضي الناس في الفتوى مزلة الأقدام.

رابعا - أن يجعل في صدره، عند البحث والتحري، حيزا للجمهور، ولو ظهر له قوة الدليل المخالف؛ فقد يخفى عليه القول الأحق بالفتوى.

خامسا - أن يجتهد في الدعاء؛ رجاء أن يرزقه الله تعالى فهما وعلما ورحمة.

﴿ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ (الإسراء:٢٦ و٢٧). ولأن الإسراف في الوليمة يثقل كاهل الزوج، ويعسر الزواج، والنبي ﷺ قد حث على تخفيف مؤنة الزواج، فالواجب عليكم ترك هذه العادة، والاقتصار على المشروع، وفي ذلك الخير والبركة. والعادة إذا كانت تخالف الشرع وجب تركها؛ لما فيها من الشر.

صرف الأموال في شراء المخلفات الأثرية

(رقم الفتوى ٢١٠٦٤)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي:

يستنكر بعض الغيورين ما يصرف من الأموال الطائلة في شراء ما يسمى بالمخلفات الأثرية لبعض الأشخاص المشاهير، أو المعظمين؛ من ملابس، ومقتنيات كان يقتنيها، أو يستعملها ذلك الشهير، أو المعظم في حياته، وتُدفَع في مقابل الحصول على ذلك مبالغ طائلة قد تصل إلى الملايين.

أجابت اللجنة بما يلي:

لا شك أن هذا عمل محرم من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا العمل نوع من الوثنية؛ لأنه قد يفضي إلى الشرك، والتبرك بتلك الآثار، والتعلق بأصحابها من دون الله عز وجل، وما وقع الشرك في الأمم السابقة إلا بسبب تعظيم آثار عظمائهم وصالحيهم، كما حصل لقوم نوح وغيرهم.

الوجه الثاني: أن بذل الأموال في الحصول على تلك الآثار هو من أعظم الإسراف والتبذير، اللذين حرمهما الله في محكم كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ (الإسراء:٢٦ و٢٧). وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾ (الأعراف:٣١).

الوجه الثالث: أنه قد جاء الشرع المطهر بوجوب الحجر على السفهاء والمبذرين، لمنعهم من ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ (النساء:٥).

فالواجب على ولاة الأمور -وفقهم الله- وضع حد لمثل هذا التصرف المشين، والتوجيه بصرف هذه المبالغ في سبيل الله عز وجل من كفالة الأيتام وإطعام الفقراء والمساكين وسد عوز المعوزين، وتمويل المشاريع الخيرية العامة. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

مقدمة ابن خلدون

إعداد : خالد خلاوي

لا يكاد يذكر علم الاجتماع والعمران إلا وتذكر معه المقدمة الشهيرة التي كتبها العلامة ابن خلدون لكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، والتي نالت من الانتشار والاهتمام من قبل العلماء والباحثين أكثر مما ناله الكتاب نفسه، فلعل ابن خلدون أراد بكتابه المبتدأ أن يضع نفسه في مصاف كبار المؤرخين، فإذا بمقدمة الكتاب تضعه في مصاف مؤسسي العلوم ليصبح أول من أسس لعلم الاجتماع.

ولقد استفادت الإنسانية شرقا وغربا من النظريات التي وضعها ابن خلدون في قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها، يقول أرنولد توينبي: ابتكر ابن خلدون وصاغ فلسفة للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العصور والأمم، ويقول جورج مارسيز: إن مؤلف ابن خلدون هو أحد أهم المؤلفات التي أنجزها الفكر الإنساني.

في السطور التالية تعريف بابن خلدون والمقدمة ملخصا من بحث الأستاذ الدكتور علي عبدالواحد وافي الذي نشره ضمن سلسلة تراث الإنسانية (١)

التعريف بابن خلدون

هو العلامة عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي، ولد في تونس عام (٧٣٢هـ - ١٣٣٢م)، في أسرة علم وأدب، وبدأ خطواته الأولى في طلب العلم في تونس، حيث تتلمذ في جامع القرويين، فحفظ القرآن الكريم ونهل من معارف الآبلي وابن مرزوق، ولقي بفاس لسان الدين بن الخطيب الذي كان له أثر عظيم في تعليمه وتكوينه.

قضى ابن خلدون أغلب مراحل حياته في تونس والمغرب الأقصى، وكتب الجزء الأول من المقدمة بقلعة أولاد سلامة بالجزائر، وعمل بالتدريس في جامع الزيتونة بتونس، وفي المغرب بجامعة القرويين في فاس، وبعدها في الجامع الأزهر بالقاهرة، وفي آخر حياته تولى القضاء المالكي بمصر إلى أن توفي سنة (٨٠٨هـ ١٤٠٦م)، وتم دفنه قرب باب النصر بشمال القاهرة.

محتويات مقدمة ابن خلدون

يقول د. علي عبدالواحد وافي: تطلق مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات التي يتألف منها «كتاب العبر» (حسب طبعة بولاق التي تم إخراجها سنة ١٨٦٨م)، ويشمل هذا المجلد على ما يلي:

أولا: خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته، وتقع في نحو سبع صفحات، وقد عرض فيها المؤلف بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله لبحوث المؤرخين من قبله، وذكر طوائفهم، ووجوه النقص في بحوثهم، وأشار إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف الكتاب كله (كتاب العبر)، وبين طريقته وأقسامه.

ثانيا: مقدمة في فضل التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، وذكر شيء من أسبابها. وتقع هذه المقدمة في نحو ثلاثين صفحة.

ثالثا: «الكتاب الأول في طبيعة العمران وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب». ويقع في نحو ستمائة وخمسين صفحة. وهذا هو القسم الرئيسي مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون.

ويشمل على ما يأتي:

١ - تمهيد، يقع في نحو سبع صفحات: تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه، والأسباب التي دعته إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب، وموضوع كل بحث.

٢- ستة بحوث رئيسية (سماها ابن خلدون فصولا، وسميناها أبوابا، حتى لا تلتبس بالفصول الفرعية التي تنطوي تحتها)، وهي:

الباب الأول: «في العمران البشري على الجملة»، ويشتمل على ستة فصول (سماها ابن خلدون مقدمات)، ويقع في نحو تسعين صفحة.

الباب الثاني: «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل». ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعيا، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الباب الثالث: «في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب والسلطانية». ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعيا، ويقع في نحو مائتي صفحة.

الباب الرابع: «في البلدان والأمصار وسائر العمران». ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعيا، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الباب الخامس: «في المعاش

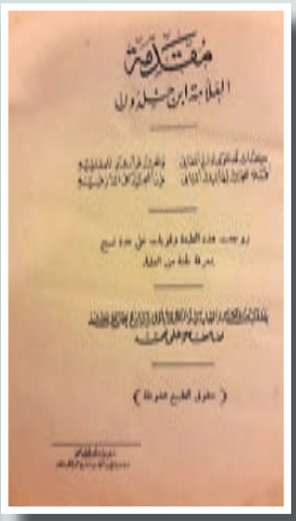

ووجوهه من الكسب والصنائع، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال». ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعيا، ويقع في نحو ثمانين صفحة.

الباب السادس: «في العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال». ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعيا، ويقع في نحو مائتين وعشرين صفحة.

منهج ابن خلدون في البحث

يعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، وتعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعا والتأمل في مختلف مناحيها، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية، وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات. والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعا، وفي ضوئها إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شؤونها من قوانين.. فهو في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين، تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع، أو بعبارة أخرى: تتمثل في جمع المواد الأولية اللازمة لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ، وتتمثل ثانيتهما في عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية، ويصل بها إلى الغرض الذي قصد إليه من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين، وهذا هو جوهر منهجه في البحث. وهو المنهج الذي لايزال إلى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع.

في العلوم والكتابة العربية

سلك ابن خلدون في كتابة الرسائل الخاصة والحكومية، منذ أن تولى وظيفة كتابة السر والإنشاء لأبي سالم بن أبي الحسن، سلطان المغرب الأقصى، وفي تأليف «مقدمته» وكتابه «العبر» أسلوبا جديدا يمتاز بالسهولة والوضوح، والتعبير الدقيق عن الحقائق، وقوة التدليل، وترابط الفكرة، وحسن الأداء والتناسق، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة، والتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع، ولم يكن أسلوبه هذا في الحقيقة جديدا كل الجدة، وإنما كان إحياء للأسلوب العربي الأصيل الذي امتازت به العربية في عصورها الذهبية الأولى، والذي يتمثل في أوضح صورة في أسلوب عبدالحميد الكاتب، في عصر بني أمية، ثم في أسلوب الجاحظ ومن إليه من فحول الكتاب في العصر العباسي.

ولا تقتصر فائدة المقدمة على ابتكارها في دراسة شؤون الاجتماع، وأثرها في أسلوب الكتابة العربية وحسب، بل تقدم لنا كذلك بحوثا قيمة في تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها، وأهم ما ألف في كل فرع منها. وبذلك تدلنا على رسوخ قدم ابن خلدون في معظم العلوم والفنون والمعرفة في عصره، وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه، وقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث في مواطن كثيرة، وخاصة في الفصول الثاني والثالث والسادس من الباب الأول، وفي الفصول العشرة الأخيرة من الباب الخامس، وفي معظم فصول الباب السادس.

فدرس فنون الفلاحة والبناء والنجارة والخياطة والحياكة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء، ودرس علوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه، والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف، والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية بمختلف فروعها، والمنطق والفلسفة والإلهيات، وبحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوي والتعليمي.

ومن العجيب أنه لا يمر مرورا سريعا على هذه الطوائف الغريبة من العلوم والفنون، بل يفصل القول تفصيلا، ويذكر مناهجها وطرق استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها، وأشهر أئمتها.

١- مقدمة ابن خلدون، د. علي عبدالواحد وافي، تراث الإنسانية ج١ ص ٢٨٦ وما بعدها، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ

الماء.. جمال للبشرة وصحة للجسم

لا تقتصر فوائد الماء على إرواء الجسم، وإزالة السموم منه، بل يمنح الجمال للبشرة، ويجعلها ندية نضرة، وهذا كله بفضل ما يحتوي عليه الماء من معادن وأملاح مفيدة وضرورية للبشرة.

فهو يحتوي على المغنيسيوم، الذي يساعد في القضاء على التعب والتشنج، والبوتاسيوم العنصر الأساسي في عمل العضلات والخلايا، والكالسيوم المهم جدا في تكون مخزون العظام والمساعد في الوقاية من ترققه، والصوديوم الذي يتدخل في تنظيم حركة الماء بالجسم، والسيلينيوم محارب الأكسدة ومقاوم شيخوخة الخلايا، والفلور المهم جدا للحماية من التسوس، والزنك الذي يسهم في الحفاظ على حصانة الجسم، وغير ذلك من عناصر.

ومن النصائح المهمة لتحقيق أكبر استفادة للبشرة من الماء:

شرب الماء صباحا قبل تناول أي طعام: ابدأ بشرب كوب كبير من الماء، فهو ينظف المعدة، ويرطب الجسم، والأفضل هو الاستمرار في شرب الماء خلال النهار، فالتوقيت ليس مهما، المهم هو تناول كمية كافية من الماء يوميا.

● **حسام فتحي أبوجبارة**

طيور الكعبة.. تسبح بحمد ربها

في بحث طريف للكاتب الصحافي الأستاذ صلاح منتصر رصد -بعين الصحافي الراصدة- مشهد الطيور الصغيرة التي تحوم وتحلق فوق رءوس الآلاف في صحن الكعبة المشرفة، وحاول أن يضبط طائرا واحدا -على حد قوله- فقط يطير فوق بنيان الكعبة نفسها، أو فوق سقفها.. «عيناي مثبتتان على كل طائر وأنا أتابع جناحيه وهو يقترب من حدود سقف الكعبة العلوى، ثم فجأة.. وقبل أن يدخل سماء سقفها، أراه يستدير بجناحيه ويبتعد يمينا أو يسارا أو خلفا، كأن هناك إشعاعا من نوع خاص ضد هذا الاختراق.

جاء هذا الرصد ضمن عدة رصدات سجلها في كتابه القيم «طيور الكعبة» الصادر عن «دار مايو» للنشر بالقاهرة، عام ١٩٩٨م، والذي جاء في ١٩٠صفحة من القطع المتوسط.

● **السيد مسعد**

غادر

غادر بلاد الأنبياء
فلست إلا في بلاد المجد غادر
غادر وعبئ في حقائبك المكائد
عبئ شرورك
لست إلا في بلاد الحب
فاجر
وارفع يديك عن المساجد
والكنائس والمقابر والمصائر
واجمع طموحات الأفاعي
لا تدع شيئا وغادر
غادر وخل الحب في أحلامنا
والفجر يضحك للأزاهر
غادر فهذا الطفل محتاج
لأن يلهو وأن يدنو من الصبح المسافر
غادر فهذا الطفل محتاج لأن يحيا طفولته
بلا غدر ولا جرح
ولا خوف يحاصر
غادر وخل الدمع والأحزان من قلبي تغادر
غادر تراب القدس
واترك حلمنا يحبو
ولا تترك دموعا أو مخاطر
غادر فهذا الليل محفوف
بآلام وأحزان وأحلام
وإيمان وآهات ودمعات وساهر
ولأنت بالقلب البريء
يموت بين سنابل الأحلام كافر
ولأنت بالشيخ المسن يموت
بالأحزان مقصوفا وبالطعنات كافر
ولأنت بالأم التي فقدت ورود حياتها
ولأنت بالنيران تغلي حولها
والحزن بين فؤادها واليأس كافر
ولأنت بالبنت الشريدة في بقاع اليتم
تبحث عن رفات الأهل
تبحث عن طعام الصبح
تبحث عن ورود الحلم
كافر
ولأنت بالعصفور يشدو
أنت بالفجر الوديع
وأنت بالإحساس كافر
أنت بالأحلام تلهو في عيون الورد كافر
أنت بالآفاق تقطر حبها للأرض كافر
أنت بالأقصى وبالحرمات كافر
أنت بالتاريخ والأزمات والأمجاد
والأعراق والآلاء.. كافر
أنت بالقدس العريقة
أنت بالزيتون والآيات كافر
أنت بالآيات كافر
أنت بالآيات كافر

● **سامح محمد يوسف**

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

الحياة الدنيا في القرآن الكريم

الحياة الدنيا هي هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان، بكل ما فيه من أحداث وأشخاص، وخير وشر، وأفكار وفلسفات، وآمال وطموحات.. هي دار الابتلاء والاختبار للإنسان.

والقرآن الكريم يضرب الأمثال للناس ليوضح لهم حقيقة هذه الحياة الدنيا التي حتما ستنتهي بعد الازدهار والزينة والجمال والبهاء، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الكهف:٤٥).

ويشير القرآن الكريم إلى هؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويكفرون بالآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات:٣٧-٣٩).

ومتع الحياة فتنة للإنسان، وابتلاء له، وقد ينجح الإنسان في الاختبار وقد يفشل، لذلك يجب ألا يفرح الإنسان بمتع الحياة، ويجب عليه أن يحذر منها.

ويشير القرآن إلى الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

والمؤمن لا يترك الدنيا، ولا يحرم نفسه من خيرها الذي أحله الله، قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ (البقرة:٢٠٠-٢٠١).

● د. يحيى محمود أبوالمعاطي سنبل

من الإعجاز النفسي

مع التقدم العلمي الذي عرفته مختلف مجالات العلوم في عصرنا ظهرت واضحة وجلية حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وكتب في ذلك المصنفات الكثيرة، غير أن هناك جوانب من هذا الإعجاز لم تنل حقها من الدراسة والتمحيص، وأهمها جانب الإعجاز النفسي، والذي تنبه إليه منذ القرن الرابع الهجري أبوسليمان الخطابي حين قال: «في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها».

وإذا كان القرن الماضي قد شهد تقدما كبيرا في العلوم الطبية وعلوم الجراحة والتشريح، وتمكن الإنسان بفضل ذلك من معالجة الكثير من الأمراض المستعصية، فإن القرن الواحد والعشرين يوحي بأن التحدي الكبير الذي سيواجه البشرية في المستقبل هو تحدي الأمراض النفسية والعصبية.

يشهد لذلك ما تتحدث عنه الإحصاءات التي تتوقع أن تصبح الأمراض النفسية أكثر الأمراض انتشارا في العالم بحلول عام ٢٠٢٠م.

● عبدالحق الشكيري

الفجر القادم

العمل هو الصورة الحية للتعاليم الربانية، والمترجمة للمفاهيم والقيم، ولابد أن تنشأ لدينا رغبة عارمة وحب للعمل، لأننا لن نتغير إلا بالعمل ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(التوبة:١٠٥). والعمل بهمة وروح وثابة يساهم في تفجير الطاقات الكامنة داخل الإنسان.. فانهض أخي العزيز فالركب سائر.. والأمة تعيش المخاض، والروح ترفرف في عليائها تنتظر من يسمح لها في النفاذ كي تبدد أوهام الماضي الكئيب.. أرجوكم يا سادة أن تسرعوا الخطى وتعملوا جاهدين لإنقاذ العالم، فهو يئن ويشتكي، فهل من مشمر وهل من مشارك؟ ساهم وشارك واستبق لنفسك الخيرات، ولا تدخر وسعا أو جهدا ولو بسيطا، غدا ستشرق الشمس ويتبدد الظلام وتنقشع الظلمات ويغدو العالم سعيدا بعودة النور من جديد، والبشريات تملأ الدنيا، فأسوار الظلم بدأت تنهار وتتهاوى، وأجواء الحرية تنادي عشاقها، فكن واحدا من الركب المبارك، ولا تتخلف عن المسيرة المباركة والمحروسة بعين الله، فهل بعد ذلك تتراجع وتظل على سلبيتك.. إنها فرصة عظيمة لمن أراد أن يكون ذكره مع الخالدين.

● محمد الشحات أبوعبيد

نور العلم

كلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب.

وقال مالك للشافعي -رضي الله عنهما- في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾(الأنفال:٢٩). ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم.

(**إعلام الموقعين ١٩٨/٤**).

علامة حسن الخلق

علامة حسن الخلق عشرة أشياء: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للكبير والصغير، ولطف الكلام لمن هو دونه وفوقه.

(**الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١١**).

صحة الفهم

صحة الفهم: نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية.

ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى.

(إعلام **الموقعين ٩٦/١**).

النفاق

سأل رجل حذيفة فقال: ما النفاق؟

قال حذيفة: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به.

(**سير أعلام النبلاء ٢٦٣/٢**).

إعداد: تركي النصر

فضول المخالطة داء

إن فضول المخالطة هي الداء العضال، الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة.

(**بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم ٢٧٣/٢**).

لسان الحكيم وراء قلبه

كانوا يقولون: «إن لسان الحكيم وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول يرجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك.

وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه، لا يرجع إلى القلب، فما أتى على لسانه تكلم به».

وقال أبوالأشهب رحمه الله: «كانوا يقولون: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه».

(**الزهد والرقائق لابن المبارك ١/ ١٣١**).

عشق الصور

سئل بعض العلماء عن عشق الصور، فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان، فإنه وسواس خناس، قد التقم قلب الغافل.

(**مفتاح دار السعادة ١١٢/١**).

لا تسأل الناس شيئا

عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: قال لي أبوالدرداء رضي الله عنه: لا تسألي الناس شيئا، قالت: فقلت: فإن احتجت؟ قال: فإن احتجت فتتبعي الحصادين، فانظري ما سقط منهم فاخبطيه ثم اطحنيه ثم كليه، ولا تسألي الناس شيئا.

(**الزهد للإمام أحمد ص٢٦٦**).

الراعي والرعية

قال ابن تيمية رحمه الله: «... النقص في الراعي والرعية جميعا، فإنه كما تكونوا يول عليكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾(الأنعام:١٢٩).

(**مجموع الفتاوى ٣٥/٢٥**).

خسف القلوب

متى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها؛ فاعلم أنه قد خسف به، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي.

(**بدائع الفوائد ٣/٢٢٤**).

من فقه شريح

قال عمير بن يزيد: كنت عند شريح، فجاء رجل وامرأته يختصمان، فقالت المرأة: طلقني ولم يعلمني الرجعة حتى انقضت العدة.

فتزوجت رجلا، ودخل عليها زوجها، فقال شريح: ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق؟ ولم يردها عليه.

(**أخبار القضاة ٢/٢٣٥**).

القوانين الوضعية

إن تطبيق القوانين والمناهج غير الإسلامية في بلاد المسلمين يورث المسلمين مزيدا من التخلف ويقتل الإبداع، ويصيب المسلم بمركب النقص، ويوقع في عقدة التفوق للأجنبي، ويورث مزيدا من العطالة، ويشعر المسلم بالإثم الدائم من تعطيل شريعة الله، ولا يجد من نفسه أي احترام لقانون لا يمت إليها بصلة.

(**نظرات في مسيرة العمل الإسلامي للعبيد ص١١٦**).

كل مطلوب متعبد به

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

«إن الأصل الشرعي أن كل مطلوب هو من جملة ما يتعبد به إلى الله تعالى ويتقرب به إليه، فالعبادات المحضة ظاهر فيها ذلك، والعادات كلها إذا قصد بها امتثال أمر الله عبادات»

(**الاعتصام ١/٢٨١**).

الوحدة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من استوحش من الوحدة، واستأنس بالناس؛ لم يسلم من الرياء».

(**موسوعة ابن أبي الدنيا ٦/٥٠٦**).

بين الانقباض والانبساط

قال الإمام الشافعي رحمه الله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

(**حياة السلف بين القول والعمل ص٦٨٣**).

الحسنة تدل على أختها

قال عروة بن الزبير رحمه الله: إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة، فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل السيئة، فاعلم أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، وإن السيئة تدل على أختها.

(**صفة الصفوة ٢/٤٣٨**).

فلا تظلموا فيهن أنفسكم...

د. محمد أحمد الدش
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

لله الحكمة البالغة في الاصطفاء، حين يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وحين يصطفي من الأزمنة أشرفها.. وحين يصطفي من الأمكنة أفضلها.. وتتجلى بعض مظاهر تلك الحكم حين يربط الله تبارك وتعالى الأفضلية في الأعمال الصالحة بأفضلية الزمان والمكان؛ حيث يضاعف فيهما الثواب على الأعمال الصالحات على غيرها من الأمكنة والأوقات، وقد قال أهل العلم: إن لبعض الأوقات أثرا في زيادة الثواب على الطاعات والعقاب على المحظورات، ومن الأزمنة التي خلقها الله عز وجل ويعظم فيها العقاب على فعل المنكرات وارتكاب المحرمات- الأشهر الحرم، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(التوبة:٣٦).

ونحن في هذه الأيام نستقبل شهر رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وهو من الأشهر الحرم، وقد قيده النبي ﷺ «بمضر» للإيضاح وإزالة اللبس عنه، فقد كانت «مضر» تجعل رجبا هذا الشهر المعروف الآن، وهو الذي بين جمادى وشعبان، بينما كانت «ربيعة» تجعله رمضان، ولهذا أضافه الرسول الكريم ﷺ إليهم تمييزا وإيضاحا، وقد كانوا في الجاهلية يعظمون هذا الشهر فيكفون فيه عن القتال والأخذ بالثأر؛ تعظيما له، ففي صحيح البخاري أن أبا رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جُثْوَةً من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناهُ عليه ثم طفنا به، فإذا دخل رجب قلنا : مُنَصِّلُ الأسِنَّةِ، فلا ندع رمحا فيه حديدة، ولا سهما فيه حديدة، إلا نزعناه وألقيناه شهرَ رجب».

والقرآن الكريم يحمل إلينا دعوة من رب العزة سبحانه وتعالى بالابتعاد عن الظلم، إذ يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾(التوبة:٣٦).

والظلم أنواع عدة، منها ظلم الإنسان لنفسه ولغيره.. أما ظلم الإنسان لنفسه فإن أعظمه: الشرك وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣). فبالشرك يظلم الإنسان نفسه ويوردها موارد الهلاك، وكون الشرك ظلما عظيما لأنه يتضمن المساواة بين الخالق والمخلوق، بين واجب الوجود وممكن الوجود، بين واهب النعم ومن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا... ويظلم الإنسان نفسه أيضا بمجاوزة الحد وارتكاب المعاصي واقتراف الآثام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾(الطلاق:١).

والمؤمنون جميعا كنفس واحدة، ومن ظلم أخاه فهو في الحقيقة ظالم لنفسه، فحين يسلب حق أخيه أو يتعرض له بالإيذاء فإنما يظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله تعالى في الآخرة، حتى لو كان عابدا متعبدا، يأتي يوم القيامة مفلسا من الحسنات. وارتكاب هذه الأنواع من الظلم منهي عنه في كل الأزمنة والأمكنة، بيد أنه في الأشهر الحرم أشد حرمة وأعظم عقوبة، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ﴾ مقصود به الأشهر الحرم الأربعة، فهذه الأشهر الحرم لمكانتها وشرفها اختصت بضرورة الإقلاع عن المعاصي وترك المنكرات وانتهاك الحرمات.. وإن كانت هذه الحرمة في كل الأزمنة والأمكنة، يقول الإمام القرطبي في تفسيره: «إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام، ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال».